

ما الذي جرى في سوريا

محمد حسنين هيكل

كتب قومية

ما الذي جرى في سوريا

محمد حسنين هيكل

مقدمة

لم يكن القصد من هذه الاحاديث كلها عن سوريا وعن الذي جرى فيها ، أن تكون كتابا .

وانما كانت هذه الاحاديث تفاعلا تلقائيا مع المشهد العنيف الذي شهدته دمشق فجر يوم ٢٨ سبتمبر من سنة ١٩٦١ ، والذي كان من أعقد المواقف في الدراما الهائلة التي تعانيها الامة العربية كلها الآن ، والتي تكاد أن تشبه فترة مخاض ، تمهد وسط الآلام والعذاب لخروج حياة جديدة وبزوغ أمل وليد !

وليس معنى التفاعل التلقائي هنا أن هذه الاحاديث كانت صادرة عن الانفعال العاطفي بالحدث الكبير ..

لكنني في نفس الوقت لا أستطيع أن أدعي أن الجانب العقلي في هذه الاحاديث قد نحي الفوران العاطفي وأبعد آثاره .

لا أقول ذلك .. !

وانما أقول انني بقدر ما استطعت لم أترك للعاطفة وحدها أن تشدني الى هذه الاحاديث ، وكذلك من ناحية أخرى فاني لم أستطع - وأكاد أقول انني لم أرض - أن تكون هذه الاحاديث املاء حساب دقيق .. جامد ومشدود .!

***

ولربما كان من حظي ، انني قبل أن تقع احداث سبتمبر سنة ١٩٦١ ، كنت أعد العدة لدراسة واسعة عن تجربة الوحدة ، وتقييم حر لمشاكلها وأوضاعها .

ومن هنا فلقد كانت المعلومات لدى جاهزة ، والوثائق على استعداد ، ومن هنا كان من حظى ، وبالصدفة وحدها ، ان اجد ذلك كله قريبا منى فى لحظات الانفعال العاطفى .

على انه فى مناى ، ان تخرج دراسات اخرى ، اكثر عمقا واوسع شمولا لهذه التجربة الهامة فى نضال الامة العربية ، وفى اعتقادى ان الفهم العميق لقصة الوحدة بين سوريا ومصر ، هذه القصة التى عاشت ثلاث سنوات ونصف سنة سوف يكون لها من الآثار على المستقبل العربى ، ما يمتد الى عشرات السنين .

بل ان تفاصيل هذه التجربة سوف تمتد فى تاثيرها ، الى ماهو ابعد من فكرة الوحدة فى حد ذاتها ، ومن المؤكد ان هذا التاثيرسوف ينعكس ايضا علىفكرة الحرية والاشتراكية فى المثل العربى الاعلى .

***

ولقد تحمست لاخراج هذه الاحاديث فى شكل كتاب لسبب ..

ذلك ان هذه الاحاديث ، وان كانت قد وصلت الى الجانب الذى نعيش فيه من التجربة ، واعنى به مصر ، فان الاسوار والحواجز عاقت وصوله الى النصف الآخر منها ، الى الجانب الثانى فى التجربة المشتركة واعنى به سوريا . وانا اعلم ان بعض الفصول من هذه الاحاديث قد تخطت الاسوار والحواجز عن طريق موجات الاثير .

كذلك اعلم ان بعض النصوص المكتوبة قد تسللت فعلا الى سوريا وان بعضها قد جرى طبعه كمنشورات بواسطة الاحرار وهم كثيرون برغم القهر والضغط فى سوريا .

اعلم ذلك ودليلى عليه اننى تلقيت آلاف الخطابات من داخل سوريا التى معظمها فى صناديق البريد فى لبنان ..

لكنى اثق انه سوف يجىء يوم تطلب فيه الجماهير السورية الحرة صورة للتجربة ، مستوفاة وكاملة .

واعرف ان هذه الجماهير سوف تتلقف يومها كل كلمة تعرضت للتجربة ببحث او مناقشة .

لهذا فلقد أردت أن أكون مستعدا بنصيبي ، كصحفي عاصر التطورات وراقبها عن قرب ، وكان له فيها – ضمن الآراء الكثيرة – رأي يحتمل الصواب والخطأ لهذا تحمست لطبع هذا الكتاب

استعدادا ليوم تسقط فيه الاسوار والحواجز

استعدادا ليوم لاتعود فيه الفرقة المصطنعة قادرة على تحدى الطوفان الشعبى

استعدادا ليوم تنتفض فيه دمشق وتقذف بعيدا عنها بكل البقايا المتخلفة عن الاستبداد الرجعى الاقطاعى .

يومها ، بعد ان تنزاح أطباق الظلام الكثيف عن آفاق سوريا ، سوف تكون صيحة الجماهير فى سوريا هى : ماذا جرى .. ؟

يومها سوف أكون اسعد خلق الله ، لو أن هذا الكتاب ، سارع فقدم نفسه على الفور ، محاولة للرد على السؤال .!

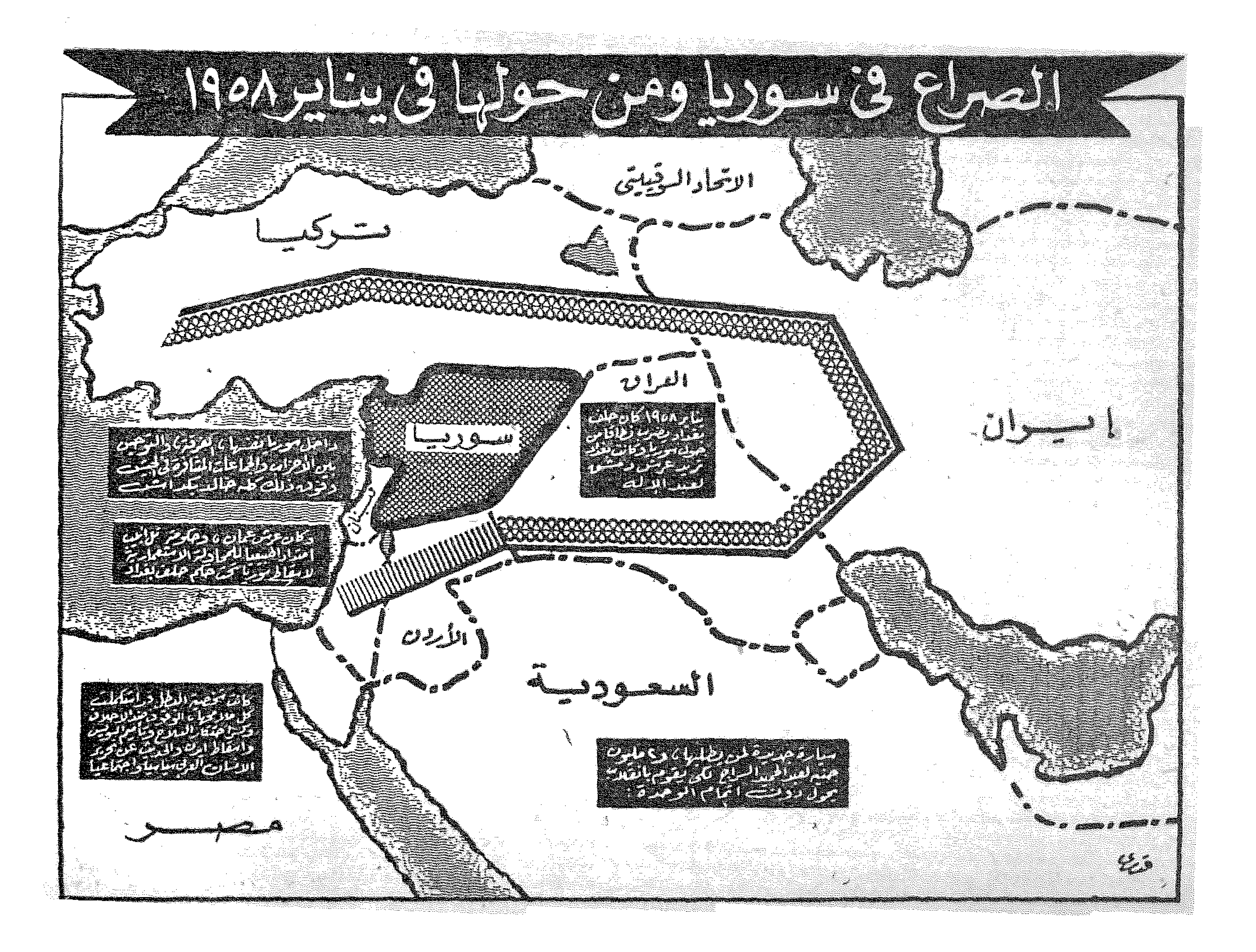
محاولة ضمن آلاف المحاولات غيرها

يومها ، سوف تكون الجماهير السورية صاحبة حق فى كل حرف ، فى كل كلمة ، فى كل صفحة من جريدة او كتاب .!

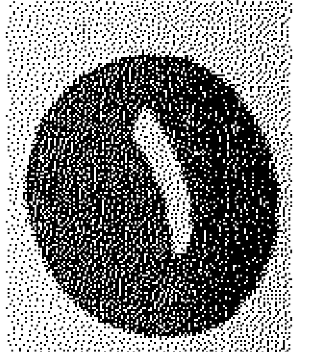
حق لاتصادره البنادق ، ولا تقدر أن تحجبه عروش الملوك ، ولا تقوى عليه جيوش الاستعمار واساطيله .!

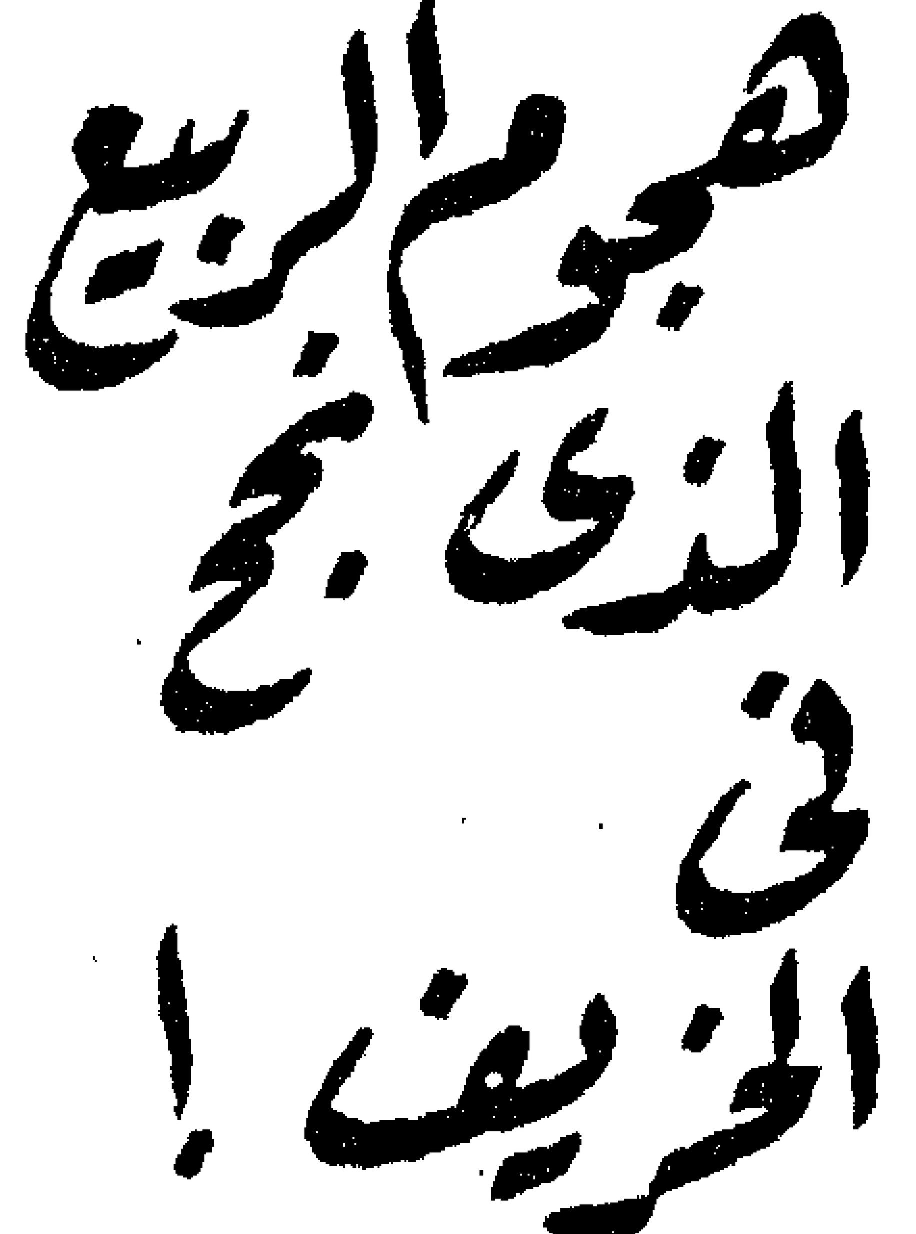
تلك حتمية التاريخ ، ويومها قادم مع طلوع الفجر ذات صباح ..

محمد حسنين هيكل

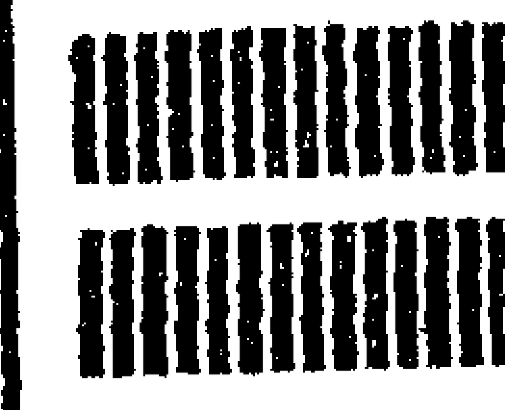


الصراع فى سوريا ومن حولها فى يناير ١٩٥٨
الاتحاد السوفييتى
تركيا
إيران
العراق
سوريا
لبنان
الأردن
السعودية
مصر





دروس من الأزمة لابد
أن نستفيد منها لمستقبل
النضال



ماأسهل الكتابة أيام السلام .

وما اصعبها فى ظروف الازمات

أيام السلام تصبح الكتابة ، كأنها النشيد ، كأنها الاغنية ، كأنهـا زقزقة العصافير صـبـاح يوم من أيام الربيع .

وفى ظروف الازمات يختلف الامر .

الكتابة تصبح انتزاعا من الاعصــاب ، قطرات دم من القلب ، خصوصا اذا كان الذى يريد أن يكتب ، يحاول بطاقته البشرية المحدودة أن لا يترك الزمام لعواطفه ، لا يريد ان يستسلم لليأس القاتل ولا للامل الخادع ، لا يريد للمرارة فى مشاعره أن تجرف امامها المبادىء والمثل ، لا يقبل أن يبكى ولا يرضى أن يشتم .

محاولة صعبة ، أشبه ما تكون بتجربة اشعال عود ثقاب وسـط العاصفة وأمام الريح وتحت المطر .

هذا هو الذى أشعر به الآن . . . وسن قلمى يلمس الورق ، ودوامة فى رأسى من الافكار والصور ، من التجارب والاحـلام ، من التلفت الى وراء والتطلع الى امام .

أشياء كثيرة أريد أن أكتب عنها . . خواطر مزدحمة تلح على . . مشاكل كانت . . أخطار قامت . . أضواء خبت وأضواء تلوح .

***

هل أكتب ان العاصفة التى هبت على سوريا كانت أمرا متوقعا ؟

هل أقول انه كان لابد للاستعمار ، لقوى الاستعمار فى المنطقـة ، ولعناصر الرجعية ، أن تلم صفها فى هجمة مركزة على الجمهورية العربية المتحدة ، قاعدة النضال العربى وطليعته ؟

ذلك قلته فى العاشر من شهر مارس الماضى سنة ١٩٦١ فى مقـال بعنـوان هجـوم الربيـع . .

فى ذلك الوقت قلت أن ستار الهدوء الذى يغطى المنطقة العربيـــة ستار كاذب .

وان شعارات التضامن العربى التى ترفعها القصور الرجعيـة فى المنطقة كلها اقرب ما تكون الى قبلة الموت .

وأن الاستعمار وقد جرب فى كل ربيع ألوانا من الهجوم العسكرى ، والنفسى ، والاقتصادى ، على القومية العربية ، يجرب الآن أن يهاجمها بأسلوب جديد ، اسلوب الاقتراب وذلك حتى «تقوم الجمهورية العربية المتحدة بتجميد فعالياتها وتجريد نفسها من أسلحتها وتحويل صـوت دعوتها الى همسة ، واشعاع ضوئها الى بصيص خافت ، ثم هى بعد ذلك تفقد قدرتها على الاندفاع ، ثم قدرتها على الحركة» .

ذلك قلته بالحرف الواحـد فى ذلك الوقت من شهر مارس سنة ١٩٦١ .

ولكن هل أعيده اليوم ، لافعل كذلك الذى يضع يديه فى وسـطه ويقول بالغرور والعناد :

ألم أقل لكم ؟!

لا أفعله بذلك القصد ..

ولا أذكره بكاء على اللبن المسكوب .

ولكن أستعيده ليكون من فوائد الازمة أن نعرف ، والى الابد ، ان المعركة بين قوى الاستعمار وبين القوى الوطنية يجب أن تكون لها حدودها الفاصلة ، وان النضال بين فلول الرجعية ، وبين طلائع التقدم يجب أن يكون ظاهرا لا يخفيه الاغضاء أو التراضى ، أو الاستسلام الى حل وسط .

***

هل اكتب :

ــ أين كانت أجهزة المخابرات والمباحث ، وكل هذه الادوات التى يرسمون لهـا صورا كانها الكابوس الذى يرزح على صدر النائم ؟

من العجيب أنه كان ثمة تقرير سمعت عنه ــ ولست أملك هـذه اللحظات وسيلة للتحقق النهائى من أمره ــ كان قد كتبه أحد المسئولين عن المخابرات ، وفيه وردت معلومات عن الذين قادوا حركة التمرد فى دمشق ، وعن تنظيماتهم ، وعن نواياهم ، ومع ذلك فان هذا التقرير ، لم يجد الاهتمام الكافى !

هل أصرخ وأقول كيف حدث ؟

مثل هذا يحدث فى كل مكان .. فى كل بلد .. حتى فى أقوى البلدان .

ومع ذلك ، فهل أقول ، اننى أسمع فى ضميرى همسا يقول :

ــ الخيرة فيما اختاره الله !

ان فكرة الوحدة ما كان يجب لها ان تكون عملا بوليسيا !

وأعرف فى هذه الثوانى ، أن عشرات الاصوات ، آلافها سوف تصيح فى وجهى :

ــ لقد كان واجبا حماية الوحـــدة من اعدائها .

ومع ذلك ، فانى أتمنى لو تسامح الذين يصيحون فى وجهى ، بضع ثوان معى ، أشرح خـــلالها منطقى .

دعونى أسلســـل أفكارى ، لتكون لى الفرصـــة التى أشرح بها تصورى ...

***

دعونى أقل أولا أن الوحدة التى تمت فى فبراير من سنة ١٩٥٨ كانت عملا سهلا ، خدعتنا سهولته ، وصورت الامر للامة العربية على نحو هين ويسير ...

صحيح أن نضال الامة العربية من أجل وحـــدة شعوبها طويل ومستمر .

ولكن الذى حدث فى فبراير سنة ١٩٥٨ ، تم بسرعة ، وتم ببساطة يمكن أن تصدق فى الاحلام ولكن لا تصدق فى الواقع الحى .

ولقد يقال لى :

ــ اذا كان الحلم قد تحقق ، فلماذا لم نستطع الامساك به،وتدعيمه، ومنحه قوة الحياة المستمرة ؟

وأقول ــ بشرف ــ فى هذه اللحظة من لحظات الازمة ، التى يشعر الانسان فيها أن لا حواجز من الاوهام بينه وبين ضميره .

ــ لقد كان ذلك من أصعب الامور ، لان الامة العربية لم تملك بعد مقومات التدعيم الحقيقى لوحدة شعوبها .

لقد كان يجب أن يكون هناك أساس فكرى عميق لاقامة الوحدة .

وكان يجب أن يكون هناك أساس اقتصادى قوى لاقامة الوحدة .

وكان يجب أن يكون هناك أساس اجتماعى قوى لاقامة الوحدة .

وذلك كله لم يكن قائما .

وانما كانت هناك مرحلة خطر ...

وكانت هناك فورة عاطفية . . .

وفى وقت اقامة الوحدة كانت سوريا تتعرض لضغط من جانبين . .

من جانب حلف بغداد . . . تتقدمه الاسرة الهاشمية التى باعت تراث العرب والاسلام كله مقابل تيجان وعروش .

ومن جانب الشيوعيين . . . يتزعمهم الحزب الشيوعى السورى الذى أراد تحويل سوريا الى قاعدة للعمل فى قلب العالم العربى .

وبين الضغطين ، وفى أعقاب عدوان السويس ، تجلى الخطر ، وكانت الفورة العاطفية رد فعل له .

وقامت أول تجربة للوحدة العربية .

وفى ذلك الوقت كانت الوحدة أشبه ما تكون بعملية دفاع طبيعية قامت بها الامة العربية ، وأكاد أقول الآن أن هذه العملية الدفاعية حققت اغراضها .

● اسقطت حلف بغـــداد وأزاحت كابوس الاسرة الهاشمية من العراق .

● ارغمت الخطر الشيوعى أن يتراجع عن سوريا بل واستطـاعت أن توجه اليه ضربة شديدة فى العراق .

ولكن اتمام الوحدة وتدعيمها كان يحتاج الى ما هو أكثر من عمليات الدفاع .

ان الوحدة كان لا بد لها أن تكون ما هو أعمق من ذلك وأبقى .

كان لا بد لها لكى تبقى وتعيش فى تجربتها الاولى ـ أن تكون أبعـد من الخطر المرحلى ، ومن فورة العاطفة التى قامت كرد فعل له .

***

دعونى أقل ثانيا أن العناصر التى قادت اتجاه الوحدة فى ســوريا ، انساقت اليه بطريقة سلبية . . . او بمعنى أصح ـ وهذا استكمال لما شرحته الآن ـ بطريقة دفاعية .

كانت الاحوال فى سوريا تتردى الى هاوية مجهولة الاعماق .

وفى وقت من الاوقات بدا ـ أمام العناصر السورية التى انســاقت فى اتجاه الوحدة ـ انه اذا لم يحدث شىء من خارج سوريا ، فان سوريا سوف تقع اما تحت سيطرة حلف بغداد ، واما تحت حكم الشيوعيين .

وكانت تلك ـ على حقيقتها ـ هى الصورة التى شرحها ضـــباط

الجيش وقادة الاحزاب السورية حينما قدموا الى القـــاهرة يطلبون الوحدة بصورتها الاندماجية الشاملة .

فى ذلك الوقت قال لهم الرئيس جمال عبد الناصر :

ان اقامة الوحدة يحتاج الى تمهيد أكبر .

اننـــا نحتـــاج على الاقـــل الى خمس ســـنوات ، لنضـع اسسا حقيقية للـــوحدة .

أسسا اقتصادية .
أسسا سياسية .
أسسا شعبية .

ولكن الخطر كان يلهب ظهورهم ، وفورة العاطفة تشدهم .

ومن ناحية أخرى ــ وأنا اقول الآن ذلك كله بصراحة ــ فلقد كان كل منهمْ يريد السبق الى الوحدة لتكون له بعد ذلك ــ فى حمايتهــا ــ فرصة للتحكم فى أقدار سوريا ، بعد أن عزت هذه الفرصة على كل منهم فى حمى الصراع الحزبى الذى كان محتدما ذلك الوقت فى سوريا .

وأنا واحد من الناس الذين اعجبوا بحزب البعث ــ مثلا ــ قبـل الوحدة .

اعجبت به خلال قراءاتى لفيلسوفه ميشيل عفلق .

ولكنى أيضا واحد من الناس الذين صدمتهم تصرفات حزب البعث بعد الوحدة ، فلم يكن فى رغبة قادته فى ذلك الوقت من شىء الا محاولة الانفراد والسيطرة والتسلط على الامور فى الاقليم السورى وحده .

كانوا يريدون يدا مطلقة هناك .. لا أكثر ولا أقل .

وكان هذا حال غيرهم من العناصر التى انساقت فى عملية تنفيـذ الوحدة سنة ١٩٥٨ .

***

دعونى أقل ثالثا ، انه فى وجود هذه العوامل الدفاعية والسـلبية التى قادت تيار الوحدة ، لم تكن هناك فى الواقع بين الشعبين العربيين فى مصر وسوريا من روابط فعلية وايجابية لقيام الوحدة الفورية ، الاشىء واحـــد .. هو جمال عبد الناصر وشخصيته وشعبيته .

وانا معجب بجمال عبد الناصر .. مؤمن به .

ولا أظن أحدا يستطيع أن يتهمنى فى هذا الاعجاب أو هذا الايمان .

ولكنى اقول ـ بقلبى وعقلى ـ ان «شخصية البطل» لا تكفى وحدها لتصنع وحدة الامة العربية .

ان «شخصية البطل» يمكن أن تكون قوة دافعة ، يمكن أن تكون قوة قادرة على التمهيد للاسباب الحقيقية للوحدة .

ولكن «شخصية البطل» لا يمكن بحال من الاحوال أن تكون كل أساس الوحدة وكل مضمونها .

ان «شخصية البطل» تستطيع أن تقود .. وتستطيع أن تلهم .

ولكنها لا بد أن تقود قوى شعبية عارمة .

لا بد أن تلهم اسسا حقيقية راسخة .

ولقد كنت فى كثير من الاحيان ، اشعر بالخطر الذى لا بد أن تواجهه تجربة الوحدة التى قامت سنة ١٩٥٨ ، من جراء ارتكازها فى الاساس على شخصية «البطل» .

وفى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الامة العربية ، بعد ما حدث فى دمشق ، أشعر فى أعماقى بعرفان لا يحد ..

لقد تحقق الخطر فى وجود «البطل» ... وقعت النكسة ، و «شخصية البطل» واقفة بكل قوتها وقدرتها ... تملك أن تصحح خطأ الحوادث ... وأن تصنع حركة حقيقية نحو الوحدة ... تقوم على الاساس الصلب المتين ، الذى لا يتعلق بفرد ولا يرتبط «بشخصية بطل» ...
وانما يقوم على حركة الجماهير نحو آمالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... وعلى هذه الحركة وحدها يقوم .. ليبقى ويدوم .

***

هل أكتب :

ـ الحمد لله الذى ألهم جمال عبد الناصر فى لحظة الازمة الحاسمة أن يكون ابنا طبيعيا لامته فيأمر بايقاف كل العمليات العسكرية ؟

لقد كانت وقفة رائعة من مواقف قهر النفس ومغالبة العاطفة .

وقفة من مواقف الرجولة القادرة على تحويل مجرى التاريخ .

فى ساعة من ساعات يوم الخميس الاسبق ... بعد قيام حركة التمرد فى دمشق ، وقيام المظاهرات الشعبية المعادية لها فى كل مكان خصوصا فى حلب واللاذقية ، كانت هناك قوات ضخمة على استعداد للتحرك .

كانت هناك فرقة من جنود المظلات ، من جنود الصاعقة قوامها الفا مقاتل تتأهب للهبوط فى اللاذقية وحولها .

وكان الاسطول كله على وشك أن يتحرك ليلحق بها .. بل كانت بعض السفن التجارية قد تحولت فى ساعات الى ناقلات جنود .

بل وبدأت طليعة قوة المظلات تهبط بالفعل .

بل وبدأ الاسطول يتحرك وعلى ظهره فرقتان كاملتان ، بالسلاح والمدرعات .. أى ما يقرب من خمسة وثلاثين الف جندى .

كانت قوة الصاعقة قادرة ـ ولو وحدها ـ على السيطرة على ميناء اللاذقية ، حتى تلحق بها القوة القادمة على الاسطول ... وكانت هذه القوة كلها قادرة على احتلال شمال سوريا كله والزحف على دمشق لضرب حركة العصيان .

وفى ومضة الالهام الالهى ، تحول مجرى التاريخ العربى كله .

تدخل جمال عبد الناصر وأوقف كل شىء ...

سأل نفسه فى هذه اللحظة الحرجة سؤالين :

أولا ـ هل أرضى لقوات من الجيش الثانى للجمهورية العربية المتحدة أن تشتبك فى معركة عسكرية مع قوات الجيش الاول ؟

وأجاب على نفسه :

● ليس لمثل هذا حاولت الامة أن تقيم جيشها القوى ، وأن تضع تحت يده أقوى السلاح .

ان الجيش العربى القوى أعد للعدوان الاستعمارى .. وأعد لاسرائيل .

ثانيا ـ ما هو ثمن النصر ؟ ..

وأجاب جمال عبد الناصر على سؤاله الثانى :

● الثمن مهما كانت النتائج سوف تدفعه الجمهورية العربية المتحدة ... سوف تدفعه الامة العربية ... سوف تدفعه من دماء أبنائها ، وسوف تدفعه الى الابد من فرقتها وانقسامها .. ففى لحظة الاشتباك يمكن أن تتحول المعركة الى «مصرى» والى «سورى» خصوصا عندما يبدأ الدم يسيل انهارا فى سهول الشمال ورباه .

وبعد السؤالين ... وبعد الاجابة عليهما ... أوقف جمال عبد الناصر بنفسه كل التحركات العسكرية .

١ ـ الطائرات التى كانت فى طريقها لانزال قوات المظلات صدرت اليها الاوامر بايقاف عمليات الانزال .. بل لقد حدث أن احدى الطائرات كانت قد أنزلت بالفعل نصف جنودها ثم وصلتها الاوامر فاقفلت بابها واستدارت عائدة بالنصف الباقى من هؤلاء الجنود .

٢ ـ عادت احدى الطائرات الى فوق منطقة الانزال تتصل بالقوة التى كانت قد هبطت بالفعل ، وتكرر اصدار الاوامر اليها ، بأن لا قتال ، وبأن لا معركة ، وبأن على قائدها ان يتقدم بأفرادها الى أقرب موقع سورى وأن يقدم نفسه .

٣ ـ تلقت قوات الاسطول وكانت قد وصلت الى قبرص أمرا بأن تدور فى البحر وتعود الى الاسكندرية والى بور سعيد .

ولما قيل لجمال عبد الناصر فى تلك اللحظة :

ـ ولكن هناك قوات من الجيش الاول تطلب النجدة وترفض اطاعة أوامر التمرد الصادرة لها فى دمشق !

ولما قيل له :

ـ ولكن هناك مظاهرات شعبية جارفة فى كل مكان من سوريا ، وأن عناصر التمرد قد تتحرك لضرب هذه الارادة الشعبية ، ثم يبدو وكأننا تخلينا عن الذين وقفوا لحظة المحنة !

لما قيل ذلك كله ... كان رد جمال عبد الناصر :

ـ تلك كلها تفاصيل .

لتكن هذه المحنة كلها استفتاء جديدا لارادة الشعب العربى فى سوريا .

ليسقط ثلاثة أو أربعة فى المظاهرات الشعبية أمام قوى التمرد بدل أن يسقط آلاف فى الصدام العسكرى ثم تكون فرقة الدم ، ثم يستتب الامر كله لعدو الامة العربية .

لقد قامت الوحدة بارادة شعبية ، واذا كان تيار الوحدة يقمع الآن بقوة الدبابات ، فان ذلك ـ بصرف النظر عن مرارة الدقيقة ـ خير لمستقبل النضال العربى ، لكى تتثبت الامة العربية من ايمانها ، ولكى تشعر أنها دفعت ثمن هذا الايمان ، ولكى تبقى لها دائما حوافز الحركة والتقدم » .

هذا كله من ناحية ...

ومن ناحية أخرى فقد كان المضى فى أى عمليات عسكرية ـ بصرف

النظر عن تأثيره فى اخراج الوحدة عن طابعها كارادة شعبية ــ فرصة يمكن أن يستغلها أعداء العرب .

كان الاسطول الامريكى السادس .. نفس الاسطول الذى تظاهر فى البحر الابيض عندما رتب الملك حسين انقلابه على الحكم الوطنى فى الاردن سنة ١٩٥٧ ..نفس الاسطول السادس الذى أنزل جنوده سنة ١٩٥٨ على شواطىء لبنان ... نفس هذا الاسطول السادس كان يتحرك الى البحر الابيض .

كذلك كانت تركيا ــ واعترافها بحركة التمرد فى لحظة قيامها ــ ومطامعها فى الشمال السورى كله معروفة ــ قادرة على التدخل العسكرى فى الموقف .

كذلك كان بوسع اسرائيل أن تنتهز الفرصة لضربة تنهش فيها أى قطعة من الوطن العربى .

وخلال هذا كله ، لم تكن الرجعية العربية ، سواء فى قصر رغدان بعمان ، أو فى مقر الشركة الخماسية فى دمشق ، أو فى غير ذلك كله من المعاقل التى يكمن فيها أعوان الاستعمار وأعداء التقدم ... لم يكن هؤلاء جميعا سوف يتورعون عن الاستعانة حتى بالعدو نفسه ضد حركة القومية العربية التى تمثل عليهم خطرا سياسيا واجتماعيا واقتصاديا يهددهم أينما كانوا .. فى الشركات الكبرى أو فى القصور .

هل أكتب عن ذلك كله الآن وأقول :

ــ الحمد لله .

الحمد لله أن العقل كانت له الغلبة على الكبرياء ... وان المستقبل العربى الطويل استطاع أن ينتصر على انفعال اللحظة .

***

ذلك كله أريد أن أكتب فيه .

أريد أن أكتب فيه كثيرا .. بأعصابى ، وبدم قلبى .

ولسوف أفعل .. فأمامنا طريق طويل طويل .. وأمامنا أيام من النضال وليال ..

وانما المهم فى هذه اللحظات ، على حد ما قال جمال عبد الناصر :

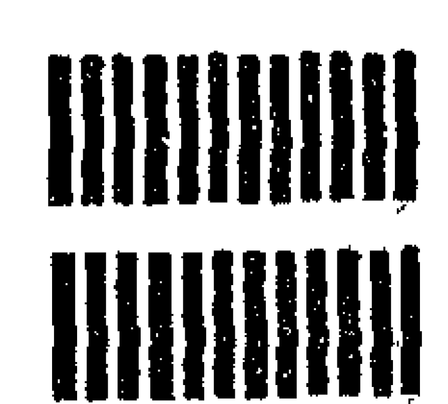
«أن تكون لنا قدرة الرجال .. على مواجهة العدو .. وعلى مواجهة أنفسنا» ...

٢

ما الذى جرى فى سوريا؟

حديث صريح عن التجربة
الأولى للوحدة العربية
و ٣ حقائق أساسية
فى مقدمة الحديث

شكرى القوتلى



مهما كان من أمر ماحدث فى سوريا

ومهما كان من أمر ما سوف يحدث فى سوريا

فهناك فى هذه اللحظات الجياشة بالعواطف والمشاعر المتضاربة ، والافكار والآراء المتصارعة ـ حقائق أساسية لا ينبغى لها ان تتوه فى الفوران وتغيب فى تقلباته ، او تتوارى فى اكوام التحليل والتنقيب والتفتيش من الاسباب والمسببات .

أولى هذه الحقائق ان الشعب العربى فى مصر والشعب العربى فى سوريا يجب ان تبقى لهما دائما هذه العلاقات التى ربطت بينهما منذ الابد والى الازل

ثانية هذه الحقائق أن عروبة مصر ليست عاملا تهزه نكسة عاطفية، وليست مرحلة عابرة يمكن أن ينتهى توقيتها ، بل ان عروبة مصرحقيقة من حقائق الطبيعة ذاتها .

ثالثة هذه الحقائق ان وحدة شعوب الامة العربية حتمية كالقدر ، وان كان التمهيد اليها والسعى من أجلها وتحقيقها املا وشعارا وفعلا ، يقتضى ـ كما يتضح من التجربة ـ عملا وطنيا فى كل بلد عربى ، يطور الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فيه الى مستوى تحقيق الوحدة .

***

بعد هذه الحقائق الاساسية الثلاث ، يتحتم علينا هنا ، فى هذه الجمهورية العربية المتحدة ، أن نفتح باب المناقشة الحرة على مصراعيه فى التجربة الاولى للوحدة العربية ، فانه عن هذا الطريق وحده تتحول المأساة التى وقعت فى سوريا ، الى تجربة حية تفيد الامة العربية فى مستقبل نضالها ، الذى يتوقف عليه مصيرها الواحد ، وعن هذا الطريق

وحده ، يمكن أن تحصل الامة العربية على فائدة ، أو على شبه فائدة ، لكل الجهد الذى بذل ، ولكل الدم الذى أريق ، ولكل الاعصاب التى التهبت ، بسبب سوريا ، سواء داخل سوريا أو خارج سوريا !

وأريد هنا أن أضيف ، دون ما محاولة لخديعة النفس أو تعليلها بالامانى لقبول الامر الواقع ، ان الوحدة بين مصر وسوريا ـ خلال العمر القصير الذي عاشته ـ حققت أعمالا باهرة ـ تساوى كل ما نحس به الآن من وخزات المرارة والالم

حققت تجربة الوحدة الاولى فى عمرها القصير عدة أهداف :

● حين قامت الوحدة ـ أولا ـ كان حلف بغداد قويا فى المنطقة ، قادرا على الضغط على شعوبها لتحطيم مقاومتها الوطنية ، واخضاعها لنفوذ الاستعمار

كانت للقوى الاستعمارية ، الطامعة فى المنطقة ، قوة رئيسية ـ هى حلف بغداد ـ قادرة على الحركة المنظمة الواسعة النطاق .

ولكن قيام الوحدة ضرب القوة الرئيسية للاستعمار فى ذلك الوقت باسقاط حلف بغداد وبعدها تحولت هذه القوة الرئيسية المركزة الى فلول متناثرة ، لم تفقد «قوتها» ولكن فقدت «تجمعها» الرسمى الذى كان واضحا فى بداية سنة ١٩٥٨ .

وصحيح أن الاستعمار الآن غير أسلوبه ، سواء بسبب المقاومة الوطنية لاحلافه العسكرية ، أو بسبب التغيير الكبير الذى أحدثه التطور الذرى والصواريخ البعيدة المدى والعابرة للقارات التى قللت كثيراً من قيمة الاحتفاظ بقواعد عسكرية على أراضى الشعوب رغم ارادتها ـ الا أن هذا لايؤثر على الاطلاق فى قيمة النصر الشعبى الذى أحرزته الوطنية العربية ضد الاستعمار فى تلك المعركة من حربها الممتدة معه ، هذا النصر الشعبى الذى كانت الوحدة بين مصر وسوريا عاملا حاسما فى تحقيقه وابرازه

● حين قامت الوحدة ـ ثانيا ـ كانت الحدود ضائعة ما بين الوطنية العربية وما بين الشيوعية ، وكان سبب ذلك أن الشيوعيين حاولوا الوقوف فى الجبهة الوطنية أثناء الحرب مع الاستعمار فى المعركة الكبرى ضد الاحلاف

ولقد بدأت المعركة الكبرى ضد الاحلاف برفض مصر ـ سنة ١٩٥٥ ـ أن تنضوى تحت لواء أى حلف استعمارى ، ثم امتدت الى تأكيد الشخصية العربية المتحررة ـ أثناء مؤتمر باندونج ـ ثم واصلت اندفاعها الى معركة كسر احتكار السلاح ، ثم مضت الى حد الاشتباك عسكريا مع الاستعمار فى معركة السويس ، ثم واجهت محاولة العزل بالحرب

النفسية وبأساليب الدس والمؤامرات طوال سنة ١٩٥٧ ــ وفى ذلك كله كان الشيوعيون يقفون فى الخط الوطنى ، ويساعدون فى المعركة بكل قوتهم من اجل اهدافهم بالطبع .. وكانت اهدافهم فى ذلك الوقت متشابكه مع اهداف القومية العربية ، مختلطة بها

ومع ان ذلك كان وضعا تحتمه الضرورة ، الا أن وقف هذا التسلل، وفرز العناصر الشيوعية عن الجبهة الوطنية العربية الاصيلة ــ كان أمرا لابد من مواجهته

وكانت الوحدة بين مصر وسوريا هى النقطة التى تحددت عندها الخطوط ، واتضحت فيها المعالم ، وافترقت عليها الاهداف ، يدلل على ذلك ويحدده ، أن يوم اعلان الوحدة بالذات كان هو اليوم الذى فر فيه خالد بكداش رئيس الحزب الشيوعى السورى .. من سوريا

● حين قامت الوحدة ــ ثالثا ــ كانت الاشتراكية العربية ، مجرد حلم قائم على مكارم الاخلاق يراود بعض الحالمين ، وكانت الرجعية العربية متداخلة فى الصف الوطنى ، وكان هذا التداخل عاملا يعوق التوضيح الثورى لاهداف الانسان العربى وحقوقه ، ولمطالبه الحيوية فى الكفاية والعدل

ولكن اقتراب الوحدة ، جعل العناصر الرجعية تكشف عن نفسها بسرعة ، فلقد كان تلاقى آمال الشعوب المناضلة ، قادرا على تفجير الشرارة الثورية ، التى كان يمكن على ضوئها أن يرى الانسان العربى حقيقة الاستغلال الاجتماعى الذى يرسف فى اغلاله

ومن هنا فليس من الصدفة ــ مثلا ــ ان صاحب الجلالة الملك سعود دفع للعقيد عبد الحميد السراج، مليونى جنيه استرلينى ، لكى يقوم بانقلاب يحول دون اتمام الوحدة

واؤكد هنا ــ انه ليس من هدفى أن أهاجم جلالة الملك سعود ــ ولكن من هدفى أن أحاول استعراض الصورة شاملة لكى تبين كاملة أمام شعوبنا التى مازالت المعركة أمامها طويلة ، والتى تملك حقا لا نزاع عليه فى الاستفادة من تجاربها

***

واذن ألخص الانتصارات الثلاثة التى حققتها تجربة الوحدة العربية الاولى فى عمرها القصير ، ألخصها فى ما يلى :

١ ــ وجهت تجربة الوحدة ضربة كبيرة الى القوة الاستعمارية الرئيسية التى كانت تهاجم شعوبنا سنة ١٩٥٨ ــ وهى حلف بغداد

٢ ـ استطاعت تجربة الوحدة أن تقوم بعملية فرز كانت ضرورية ، وأخرجت من الصف الوطني العربي ، ما كان قد تسرب اليه من العناصر الشيوعية

٣ ـ أرغمت الوحدة ، قوى الرجعية أن تكشف عن وجهها ، وفي نفس الوقت حققت الوحدة نقطة انطلاق عملية نحو الاشتراكية بقصد تحرير الانسان العربي من كل الاستغلال والرق الاجتماعي وبالتالي ساعدت على بلورة حركة الجماهير العربية نحو أهدافها الاجتماعية

***

وهذه الانتصارات الثلاثة كلها ليست بالامر الهين .. وحدوثها في ثلاث سنوات أقرب الى المعجزات ، وأؤكد مرة أخرى انني لا اقول ذلك لخديعة النفس اوتعليلها بالاماني ـ وانما أحاول طاقتي أن أكون موضوعيا بقدر ما أستطيع في تعرضي لدراسة كل ما حدث .

وأضيف الى ذلك انني لا أريد التقليل من خطورة ماحدث واثره على الكفاح العربي

بل لعلني وأنا اقوله ، أقوم بعملية تجسيد للخسارة العربية الكبرى التي وقعت بسبب ما حدث في سوريا .

***

وأعود بعد هذه المقدمة الى دراسة ماحدث في سوريا

الى دراسة التجربة الاولى للوحدة العربية ذاتها ، لتكون الدراسة لأسباب الفشل ، بعد أن استعرضت آثار النصر ـ قوة حافزة جديدة، على أسس صحيحة ومتينة سعيا وراء نفس الاهداف

وحتى وان قدر لجيلنا أن لايعيش يوم النصر الاعظم للقومية العربية، فذلك حق لابد لجيلنا الذى عاش التجربة أن يؤديه للاجيال التي سوف تحمل الاعلام المنتصرة لتضعها فوق الساريات العالية

***

والآن : الى السؤال الكبير

ـ ماذا جرى في سوريا ؟

ردى ولعلي لا أكون قد شردت بعيدا عن الصواب ، أن ما حدث في سوريا ، في سبتمبر سنة ١٩٦١ ، هو ماكان يمكن أن يجرى في سوريا في فبراير سنة ١٩٥٨ ـ لو لم تحدث الوحدة ، وتؤجل وقوعه ثلاث سنوات ونصف سنة .

من هنا فان عودة الى الظروف السائدة فى سوريا ، قبل الوحدة مباشرة فى فبراير سنة ١٩٥٨ - أمر ضرورى لفهم هـذا الاستمرار الطبيعى للظروف ، هذا الاستمرار الذى استؤنف مرة أخرى فى سبتمبر ١٩٦١ - ثم لفهم العوامل الجديدة التى طرأت على الموقف خلال سنوات الوحدة ، والتى لا بد أن يكون لها تأثيرها فى اتجاه الحوادث المقبل .

***

ماذا كانت الظروف السائدة فى سوريا ، قبل الوحدة مباشرة ؟

اذا لم أكن قد نسيت بعد أيامى فى سوريا ، ولقد كنت زائرا دائما لها أثناء خمس سنوات من عمرى قضيتها كمراسل سياسى متجول فى الشرق الاوسط ، من سنة ١٩٤٦ الى سنة ١٩٥١ - وبعدها حاولت جاهداً أن احتفظ بعلاقاتى بالمنطقة ومتابعتى لاحداثها - فلقد كانت معالم الصورة كما يلى :

***

١ - كانت سوريا تحت حكم الجيش ، بوصفه جيشا ، منذ اليوم الذى وقع فيه انقلاب حسنى الزعيم فى فبراير سنة ١٩٤٩

ولم تكن هناك قوى اجتماعية وراء انقلاب حسنى الزعيم ، وانما كانت هناك مصالح مالية ، فى مقدمتها شركات البترول الامريكية التى كانت تريد فى ذلك الوقت أن تمد أنابيب البترول - التابلاين - عبر سوريا ، وكانت حكومة شكرى القوتلى لم تصل بعد الى قرار فى ذلك الشأن ، وكانت صلة رجال المخابرات الامريكية بحسنى الزعيم معروفة ، وكان بين بريطانيا وأمريكا فى ذلك الوقت نزاع على مغانم البترول فى الشرق الاوسط - بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية - لم يصل بعد الى تفاهم ودى .

ولم تكن تلك - للانصاف - هى كل محركات انقلاب حسنى الزعيم ، وانما كان هناك أيضا رد الفعل العاطفى لهزيمة فلسطين قبلها بشهور قليلة

وتخبط حسنى الزعيم ، ثم جعل من نفسه صورة مهزوزة لموسولينى وارتدى بذلة الماريشالية وغطى صدره بالاوسمة ودار رأسه بجنون العظمة .. كل ذلك دون فكر اجتماعى أو مثل أعلى

ولم تكد تمضى أربعة شهور ، حتى كان انقلاب جديد على هذا الانقلاب

وكان قائد الانقلاب فى هذه المرة هو سامى الحناوى .

وكان حلف ، الملك فاروق ، والملك عبد العزيز آل سعود ، هو الذى يحتضن حسنى الزعيم

وكان انقلاب سامى الحناوى رد فعل بالتآمر البحت لهذا الوضع ، فقد كانت القوة المحركة له هى الاسرة الهاشمية فى بغداد

ومضت شهور ثم انقلاب ثالث ، على الانقلاب الثانى ، يقوده هذه المرة اديب الشيشكلى

ثم تعددت الانقلابات فى سوريا ... بعضها كانت انقلابات ناطقةملونة

اقصــــد أن بعضها كانت له فرقعة وبعضها صبغه الدم .

وبعضها الآخر كان انقلابات صامتة ، تمزق الوطن السورى فىسكون، وتذبح فيه احيانا من غير دم

وفى ذلك كله كان الجيش هو الذى يحكم

أحيانا كان يظهر من فوق المسرح ، كما حــــدث أيام حسنى الزعيم وأديب الشيشكلى

وفى أحيان أخرى كان يحرك المسرح كله من داخل الثكنات ــ كمـا تجلى بوضوح فى الفترة التى انقضت منذ الانقلاب على أديبالشيشكلى الى يوم الوحدة

فى ذلك الوقت كانت مجموعة الضباط التى قادت الانقلاب على أديب الشيشكلى قابعة فى قيادات الجيش وكانت الحكومة المدنية التى تتولى الامر فى قصر المهاجرين فى دمشق العوبة فى يد هــــذه المجمـوعة من الضباط القابعين فى الثكنات

كان الرأى فى سوريا رأيهم .. والامر أمرهم .. والقدر فى أيديهم يجرونه كما يشاءون ، ولم يكن على الواجهات المدنية التى تتولى الحكم بالاسم الا أن تخضع للرأى والامر .. والقدر !

ووصلت الامور الى حد انه لم يكن يجوز فى سوريا أن يرسب ابن أو ابنة لأحد الضباط فى الامتحان فى أى مدرسة والا فان الاب الضابط سوف يذهب الى ناظر المدرسة أو ناظرتها ويقرر تحويل الرســوب الى نجاح ومسدسه معلق من حزام وسطه ! .
الى هذا الحد .

***

وفى ذلك الوقت كانت فى سوريا مجموعة من الاحزاب

١ ــ حزب البعث العربى الاشتراكى : وكان هذا الحــزب خليطا مشوشا من شخصيات قادته ، خليطا مشوشا من افكار تقدمية على أساس نظرى لميشيل عفلق ، ومن غرام بالمناورات السياسية والالاعيب

الحزبية لاكرم الحورانى ، ومن حيرة تائهة شاردة لا تستقر على شىء لصلاح البيطار

ولكن الحزب برغم ذلك كله كان قوة متحركة فى اتجاه تقدمى غير واضح المعالم .

٢ ــ حزب الشعب : الذى يراسه رشدى الكيخيا ، وكان هذا الحزب يضم معظم أسر سوريا الكبيرة من ملاك الارض ، وكان قوة فعلية ولكنه كان بعيدا عن اى تأثير جماهيرى ، بل كان فى طبيعته لايؤمن بالجماهير

٣ ــ الحزب الشيوعى : وكان هذا الحزب تحت رياسة خالد بكداش اقوى المنظمات الشيوعية فى الشرق العربى ، وكان حزبا نشيطا يستمد التزايد فى قوته من ضعف الاخرين وتفككهم

٤ ــ الشركة الخماسية : ولم تكن الشركة الخماسية حزبا ، ولكن الشركة الخماسية كانت قمة الاحتكار فى سوريا ، وكرأس المال بطبيعته، كان همها أن تكون هناك حكومة قوية تصد الشيوعيين فقط ، وتحفظ النظام ولو بالقمع ، ليستطيع رأس المال آمنا أن يحصل على مايريد بغير حساب ، ولهذا لم تكن الشركة الخماسية فى سوريا بعيدة عن السياسة ، وان لم تكن تنظيما حزبيا بطبيعة الحال !

***

وكان هناك قوى من خارج سوريا ، تلعب فى سوريا وفق هواها او وفق مصالحها

١ ــ بغداد كانت لها مصالح فى دمشق وكانت لها أحلام

كانت بغداد تريد دمشق داخل حلف بغداد تأمينا لجناحها الغربى، وفتحا للطريق أمام هذا الحلف الاستعمارى أن يبسط نفوذه على الاردن وعلى لبنان بعد سوريا ! .

ثم كان لبغداد فى دمشق حلم قديم هو أن يعود عرشها الى الاسرة الهاشمية الحاكمة فى بغداد ، والتى كان لها الحكم يوما فى سوريا وان يجلس عليه الامير عبد الاله بالذات .

٢ ــ وفى وجه مصالح بغداد وأحلامها كانت الرياض ــ عاصمة الحكم السعودى ، تقف بحوافز المنطق القبلى الاقطاعى ضد بغداد

وكانت الرياض تدفع فى دمشق من غير حساب .

ووصل الامر ــ ومازلت أذكر الواقعة وقد نشرتها فى ذلك الحين ــ

الى حد أن أى ضابط جيش فى سوريا كان يستطيع لو أراد أن يحصل على سيـــارة من آخر طراز اذا ما غمز بنصف عين الى سفارة المملكة السعودية فى دمشق !

٣ ــ وكانت مصر بعد ثورة سنة ١٩٥٢ ، وبعد أن اكتشفت شخصيتهـا العربية ، وانحازت بكل قواها الى جانب النضال الشعبى العربى، تهتم بأمور سوريا ، وفى الدرجة الاولى من اهتمـامها أن لاتسقط تحت سيطرة حلف بغداد وبذلك يتحول مجرى النضال العربى كله، من محاولة الحصول على القوة الذاتية العـربية المستقلة ، ومن محاولة صد الخطر الاسرائيلى من المنطقة تمهيدا لاستئصاله ! .

٤ ــ ولم تكن الدول الكبرى كلها بمعزل عن هذا الصراع الذى يشـــمل الشرق الاوسط كله ، والذى كانت سوريا قد تحولت الى مركز له وميدان

كانت بريطانيا وراء بغداد .. أو وراء حلف بغداد

وكانت أمريكا موزعة المشاعر بين مصالحها فى الرياض وبين احساسها ــ من وجهة نظرها ــ بضرورة حلف بغداد استمرارا فى تطويق الاتحاد السوفيتى بالقواعد

وكان الاتحاد السوفيتى ، يؤيد مصر فى معركة مقاومة حلف بغداد، وفى نفس الوقت كان يساند الحزب الشيوعى السورى باعتبـــاره نواة لتقدم الشيوعية فى الشرق العربى

***

وبما أن الجيش كان هو القوة المسيطرة والحاكمة ، فان كل الاحزاب العاملة فى سوريا ، وكل القوى العربية والدولية المهتمة بالمعركة الدائرة فيها ، اتجهت جميعها الى العمل فى الجيش والى محاولة التأثير فيه

وأصبح الجيش السورى انعكاسا طبيعيا للصراع الحزبى ، والعربى، والدولى الجارى من حول سوريا وفى داخلها .

أصبح هناك ضباط فى الجيش يتجهون بمشـــاعرهم لحزب البعث وآخرون يتجهون لحزب الشعب وآخرون للحــزب الشيوعى وآخرون للشركة الخماسية وآخرون يقلقهم هذا الصراع داخل وطنهم وعليـــه ويبحثون عن طريق فيه السلامة الوطنية والامان

وأصبح هناك ضباط على اتصال ببغداد ، وبالرياض ، وبالقاهرة.

ووصلت الفرقة الى حد بعيد .. والى حد عميق

ومن نتائج هذه الفرقة :

١ ـ ان التوجس بين جماعات ضباط الجيش السورى المتنافرة أصبح عاملا بالغ الخطر على مستقبل الوطن السورى كله ، ووصل الامر الى أن الضباط الذين كانوا يتصدرون الجيش ، كانوا يقضون الليل فى وحداتهم ليكونوا على أهبة التحرك بها فى مواجهة أى مباغتة من جماعة اخرى .

٢ ـ ان بعد الفرقة وعمقها ادى الى شبه شلل بين القوى المتنافرة فان واحدة منها لم تستطع ان تحقق السيطرة التى تملك بهـا أن تفرض ارادتها النهائية على الاخرين ، وبذلك أصبحت سـوريا تمشى على سلك مشدود على حافتى هاوية وكان عليها ان تحافظ على توازنها فوقه لكى لاتضيع . . وكانت نسمة هواء قوية من أى اتجاه كفيلة بأن تحدث الخلل فى التوازن . . ومن ثم يكون الضياع وفى ذلك الوقت العصيب فى سوريا برز اسمان :

● اللواء عفيف البزرى ، قائد الجيش السورى ، ولم يكن هنـاك مجال للشك فى أنه بماضيه ، وبفكره ، يتصل على نحو أو آخر بالشيوعية .

● العقيد عبد الحميد السراج ، مدير المكتب الثانى السورى ، أى مدير المخابرات ، ومع أن عبد الحميد السراج فى تقديرى شـاب وطنى عربى متحمس ، الا أنه سواء بحكم طبيعة عمله ، أو بحكم الميزان الدقيق للقـوى فى سوريا ، بحكم المشى على السـلك المشـدود بين حافتى هاوية ، وجد نفسه فى وضع يجعله يراقب كل شىء فى سوريا . . لم يكن ينام ، ولم يكن يغفل ، وكان يقال انه يسمع دبيب النملة اذا دبت فى سوريا .

***

وأين كان الشعب السورى وسط ذلك كله ؟

الفئات الطافية على السطح منه ، قنعت بالسلبية طريقا لراحـة البال

وراحت تجلس فى نادى الشرق فى دمشق ، تتهامس ، بأخبـار آخر المناورات وأحدث الاشاعات

وراحت تتردد كل مساء على مقاهى « دمر » تشد دخان «الأرجيلة»، وتتندر بحكايات اقرب ماتكون الى التعبير السورى المشهور «طق الحنك» أى الكلام الطائر فى الهواء ، لايقدم ولا يؤخر !

أو راحت تجرى كل عصر عبر الحدود الى لبنان ، بعضها يتوقف فى « شتوره » قرب الحدود ، ليأكل الفراريج ـ الدجاج ـ المشوية ومعها

تحتسى العرق ، وبعده « الارجيلة » وخلال ذلك كله يجرى الحديث مع الهوى .. وبعضها يكمل الطريق الى بيروت يسهر الليالى بعيــــدا عن تزمت دمشق ، ويناقش السياسة فى علب الليل الصاخبة !

هذا حال الفئات الطافية على السطح فى المجتمع السورى

***

والقاعدة ، القاعدة الشعبية الواسعة .. الجماهير السورية العربية المؤمنــة

كانت هذه الجماهير دائما طليعة وحدة عربية .

كانت هذه الجماهير دائما سليمة فى اخلاصها لشعاراتها

وكان ظهور شخصية جمال عبد الناصر فى مصر تجسيــــدا للامل العربى ، فى أحلام هذه الجماهير ، بأن يخرج يوما من بين صفوفها واحد يرفع العلم العربى ، ويتصدى لكل أعداء العــــرب ، ويقف فى وجههم صامدا قويا لايقهر ولا ينال

فى ذلك الوقت كان جمال عبد الناصر قد بدأ يبرز على المسرح العربى مستكملا كل يوم مقومات شخصية البطل

وقف ضد حلف بغداد .. ضد كل قوى الاستعمار فى المنطقة

كسر احتكار السلاح لتستطيع الامة العربية أن تملك فى يدها ماتدافع به ضد عدوها .

اعترف بالصين الشعبية لم يرهبه تهديد دالاس ولا وعيده

أمم قناة السويس وصفع رئيس وزراء بريطـانيا انتونى ايدن على الخدين ، أمام الشعوب العربية المبهورة ، وأمام شعوب آسيا وافريقيا التى حبست أنفاسها من الروع

انتصر فى معركة السويس وحقق ملكية مصر للقناة نهائيا والى الابد

اسقط انتونى ايدن ، ولاول مرة وقع رئيس وزراء دولة كبرى، هى بريطانيا بالذات ، صريعا فى معركة أمام مواطن عربى .

أسقط جى موليه رئيس وزراء فرنسا

رفض مشروع ايزنهاور الذى كان هدفه عزل مصر عن العالم العربى كله

ثم بدأ يتحدث عن اعادة بناء الوطن .

بدأ يتحدث عن التصنيع .. عن التطوير .. عن الاشتراكية .

هنا أحست الامة العربية كلها ، والشعب السورى فيها بالذات ،

لانه فى قلبها ، ان العرب لم يعودوا أمة لا هم لها غير أن تجتر أمجاد الماضى ، وانما هى قادرة على تشكيل التاريخ .

لم تعد تبكى على اطلال سد مأرب فى اليمن وتتحسر على حضارة قديمة ، وانما هى تحلم بمشروعات كبرى كالسد العالى وتتطلع الى مستقبل عظيم

لم تعد الامة المقهورة .. وانما أصبحت الامة القاهرة

لم تعد الشعوب المغلوبة على أمرها .. وانما أصبحت الشعوب الغالبة

لقد ظهرت شخصية البطل ، التى كانت الجماهير العربية تنتظر ظهورها لتمشى وراءها

وبدأ اتجاه الوحدة ـ من هذا كله ـ يتبلور فى سوريا .. ويتطلع الى مصر

ومع هذا كله كانت العوامل التى شرحتها جميعا تساهم فى بلورة هذا الاتجاه وفى تحديد معالمه .

● الفرقة فى الداخل ، فى وسط الاحزاب وفى وسط الجيش .. والتوجس والخوف

● ضغط الاستعمار من الخارج ممثلا فى حلف بغداد وفى مؤامراته المسلحة وغير المسلحة .

● تسلل الشيوعيين الى الداخل لتحويل مجرى النضال العربى ومحاولتهم أن يسلبوا الجماهير عزتها وشعورها الوليد بالحرية الحقيقية

***

وفى مطلع سنة ١٩٥٨ ، كانت الجماهير السورية كلها تردد بصوت واحد كالرعد هتافها التاريخى ، الذى يحمل كل المشاعر الفوارة التى فجرها ظهور شخصية البطل :

ـ عبد الناصر ياجبار .. يامحطم الاستعمار

وبدأت أصداء هذا الهدير الشعبى الجماهيرى تصل الى كل مكان داخل سوريا .. الى دور الاحزاب المتصارعة .. الى تكتلات الجيش الخائفة المتربصة .. الى الجالسين منهمكين فى «طق الحنك» فى نادى الشرق ، وفى مقاهى دمر ، والى المتحدثين بالسياسة فى علب الليل فى بيروت .

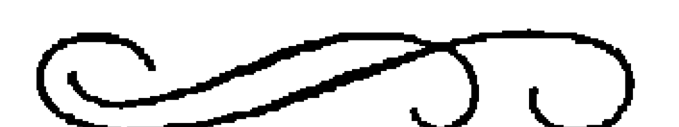
وبدأت الاصداء تسمع فى العواصم العربية المشـــتركة فى الصراع داخل سوريا وعلى سوريا .. فى بغداد وعمان وفى الرياض ثم وصلت الاصداء الى لندن .. الى باريس .. الى واشنطن .. الى تل أبيب .

***

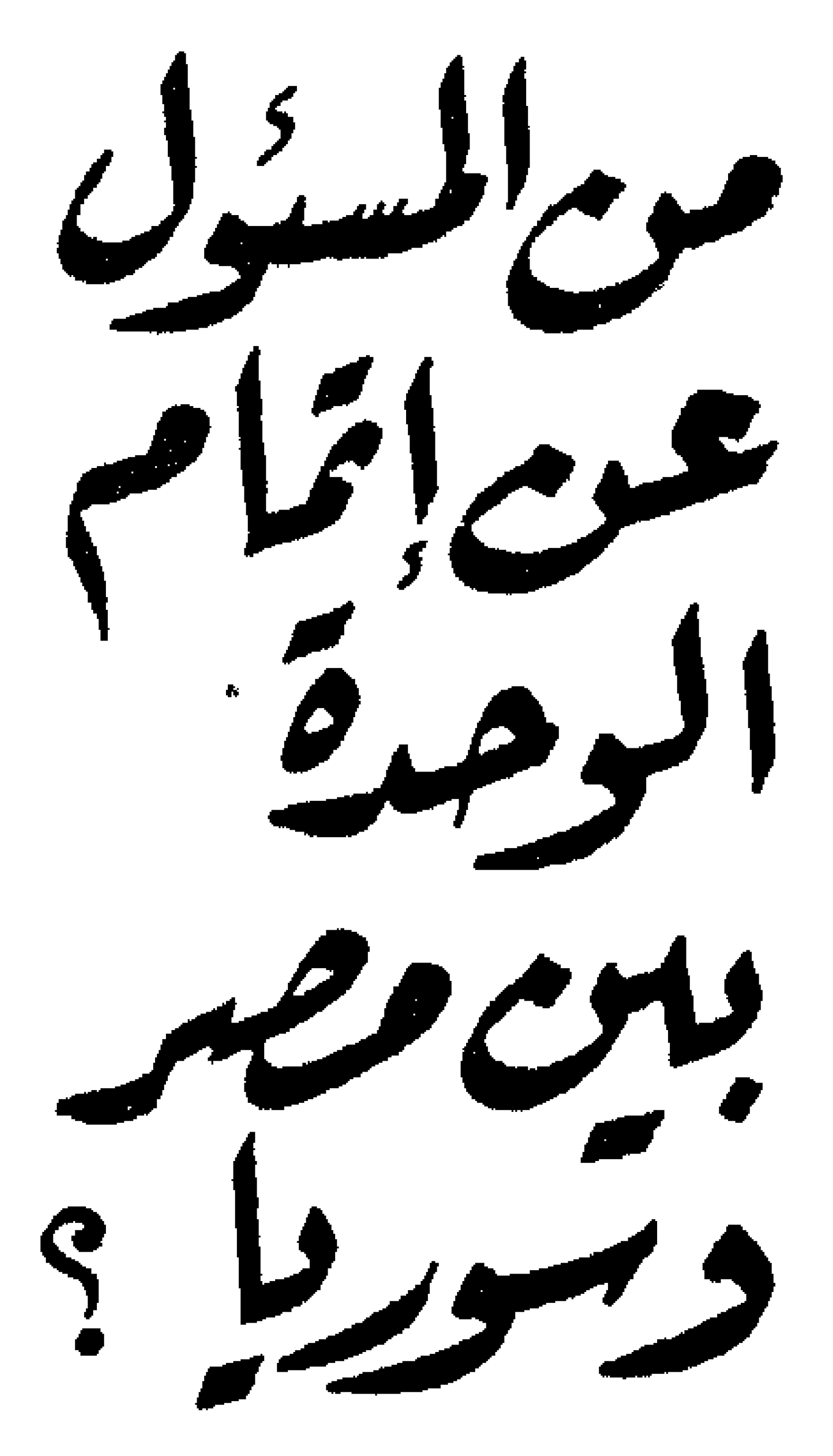
واتوقف هنـــا قليـــلا ..

استريح لحظة قبل أن أستانف الحديث ..

حديث التجربة .. وحديث المستقبل !

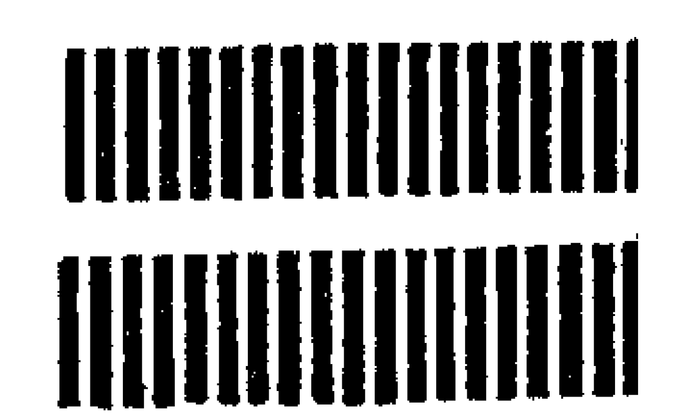


٣



القصة كلها كاملة
من أجل الحقيقة والتاريخ!

عفيف البزرى



من حيث تركنـــا الحديث فى موضوع «الذى جرى فى سوريا» نعود اليـــه .

ولكن قبل استئناف الحديث ، لا بد من ملاحظة سريعة وعابرة ، أو هى تعليق للحقيقة والتاريخ ، على ما اعلنته سلطات دمشق الحاكمة الآن من انها سوف تحاكم كل السياسيين الذين شاركوا فى صنع الوحـدة بين مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ .

والملاحظة الصادقة للحقيقة والتاريخ ، هى أن كـــل السياسيين السوريين الذين تضدروا عملية اتمام الوحدة بين مصر وسوريا ، أبرياء من المسئولية ، لا ذنب لهم فيها ، ولا مؤاخذة عليهم فى كل ما حدث .

انهم لم يقودوا الوحدة .. وانما الحقيقة والتاريخ انهم انقادوا لها .

انهم لم يصنعوا ذلك التيار الشعبى السورى الذى حقق تجـربة الوحدة الاولى ، وانما هذا التيار الشعبى السورى ، هو الذى صنعهم .

انهم لم يحركوا التاريخ .. وانما التاريخ حركهم .

انهم لم يقرروا الشكل النهائى لما وقع فى فبراير سنة ١٩٥٨ ..ولكن هذا الشكل النهائى فرض عليهم فرضا .

انما المسئولية كلها تتحملها الجماهير السورية ، فهى وحدها التى قادت ، وهى وحدها التى صنعت ، وهى وحدها التى حركت ، وهى وحدها التى قررت ، وهى وحدها التى فرضت .

ومن ثم فان السياسيين السوريين جميعا ، أو المشتغلين بالسياسة فى ذلك الوقت من ســـنة ١٩٥٨ ، كلهم أبرياء ، وكلهم لا ذنب لهم ، ولا مؤاخذة عليهم .

الجماهير السورية وحدها هى المسئولة .

والجماهير السورية وحدها هى التى تدفع الحساب .

وانى لاعلم ، مما يصل الى ــ مما يجرى الآن ــ فى سوريا انهـــا تدفعه ... وتدفعه غاليا .

تدفعه بدم مئات القتلى ــ ولست أقول عدد المئات جزافا ــ وانما اقوله ويعلم الله أننى أتعمد التهوين والتباعد عن المبالغة .

وتدفعه بالمكاسب الشعبية الضائعة ، أرضا ينقض عليها الاقطاع ، واحتكارات يستردها أصحاب الملايين ، وامتيازات تستعيدها الطبقـــة المسيطرة ، والقلة الحاكمة ، أما الجماهير فلا يترك لها غير العرق والدم والدموع على حد تعبير تشرشل المشهور .

واذن فالسياسيون ، او المشتغلون بالسياسة ــ بحق الله ــ أبرياء وحرام أن يدخل واحد منهم الى السجن .

أما الجماهير السورية ، صاحبة المسئولية الاولى والاخيرة فى كل ما حدث ، فلقد دخلت السجن على أى حال ووقعت عليها أقصى العقوبات والعزاء ــ فى كل النكسة الاخيرة ــ أن الشعوب لا تبقى فى السجون طويلا .

وانما الشعوب ، جماهير الشعوب ، سوف تكون لها دائمـا ... الكلمة الاخـيرة .

ولكن ذلك حديث آخر ..

وأعود الى ما كنت فيه ...

***

لماذا حاولت ان ادلي بشهادتي ، تبرئة لكل السياسيين الســوريين الذين كانوا فى سوريا فى مطلع عام ١٩٥٨ ؟

والرد ...

ــ لان تلك هى أمانة الحقيقة والتاريخ ، ما دمت قد عرضت نفسى لدراسة التجربة وألزمت نفسى بمواجهة كل ما حدث . كما حدث فعلا .

ولقد رويت فى الحديث السابق كيف كان الجو فى سوريا فى مطلع سنة ١٩٥٨ .

رويت حكاية الجيش السورى وانقلاباته المتوالية ، ثم الفرقة التى أصبحت تمزقه .

رويت حكاية الاحزاب السورية وما كان بينها جميعا من تنـــافر وصراع ...

رويت حكاية ضغط حلف بغداد الاستعمارى على حدود سوريا ، وتسلل الحزب الشيوعى فى أعماق سوريا .

ثم انتهيت الى حكاية الجماهير السورية التى ضاقت بذلك كله ، وفى نفس الوقت شدتها الى القاهرة ، أحلامها القديمة بالوحدة ، وأحلامها الجديدة المتطلعة الى «شخصية البطل» ، التى كانت فى ذلك الوقت قد استكملت ملامحها ، بكل ما أحرزه جمال عبد الناصر للنضال العربى من انتصارات .

ولقد كانت آخر جملة قلتها فى الحديث السابق هى :

«وفى مطلع سنة ١٩٥٨ ، كانت الجماهير السورية كلها تردد بصوت واحد كالرعد ، هتافها التاريخى ، الذى يحمل كل المشاعر الفوارة التى فجرها ظهور شخصية البطل .

ـ عبد الناصر يا جبار .. يا محطم الاستعمار ..

وبدأت أصداء هذا الهدير الشعبى الجماهيرى ، تصل الى كل مكان داخل سوريا .. الى دور الاحزاب المتصارعة .. الى ثكنات الجيش الخائفة المتربصة ، الى الجالسين منهمكين فى «طق الحنك» فى نادى الشرق وفى مقاهى دمر ، والى المتحدثين بالسياسة فى علب الليل فى بيروت .

وبدأت الاصداء تسمع فى العواصم العربية ، المشتركة فى الصراع داخل سوريا وعلى سوريا ، فى بغداد وعمان وفى الرياض ، ثم وصلت الاصداء الى لندن ، الى باريس ، الى واشنطن ، الى تل أبيب .

كان هذا آخر ما توقفت عنده فى الحديث السابق .. فكيف تطورت الحوادث بعدها ؟

***

أخذ الجيش زمام المبادرة ، وكان ذلك هو الطبيعى ، فان ضباط الجيش بكتله المتصارعه كانوا فى ذلك الوقت هم القوة الحقيقية وراء الواجهة المدنية ، الهزيلة الضعيفة ، فى سوريا تلك الايام .. ويكاد القلم يسبقنى هذه الثانية ويضيف : وهذه الايام أيضا .

ولكنى أرد القلم عن جموحه لاعود به الى تسلسل القصة ، فان الماضى وتفاصيله مفتاح أساسى للحاضر وتفاصيله .

فى ذلك الوقت ، اجتمع قادة الكتل المتصارعة فى الجيش ، فى شبه هدنة مؤقتة بينهم ، ثم تناقشوا فى أوضاع سوريا ، ثم استقر قرارهم :

«على أن لا حل ولا أمل فى سوريا ، الا بوحدة مع مصر» .

● تستجيب أولا لنداء الجماهير .

● ثم تنهى ثانيا لعبة الحبل المشدود على حافتى الهاوية الذى كانت تسير عليه سوريا بحكم الحالة التى ترددت اليها أمورها .

وكانوا فى ذلك الوقت ٢٢ ضابطا يمثلون ٢٢ كتلة فى الجيش السورى ووافقوا جميعا على ذلك الحل برغم ما كان فى خواطر كل منهم .

كان أحدهم ــ مثلا ــ وهو أمين النفورى يحلم بانقـــلاب تقوم به مجموعة الضباط «الشوام» كما يسمونهم .. اى ضباط دمشق ، وكانت هناك عناصر فى بغداد تحمسه وتدفعه ، ولكنه لم يكن واثقا من النجاح .

وكان أحدهم ــ مثلا ــ وهو عفيف البزرى ، يعيش بكل احلامه مع الشيوعية ، ولكن الطريق أمامه لم يكن واضحا لعمل محدد يستطيع بعده أن يرفع الراية الحمراء فوق دمشق ، هو أيضا لم يكن واثقا من النجاح .

وكان احدهم ــ مثلا ــ وهو عبد الحميد السراج ، لغزا غريبا،يكتم فى داخل نفسه أكثر مما يظهر للناس ، ويريد أن يعرف كل شىء ويمسك بأصابعه كل خيط ، وكان فى قلبه صراع عنيف بين المثل الوطنى الاعـلى وبين الرغبة فى السلطة والسلطان والرهبة ، وكان من غير شك ــ يريد الوحدة .. وكان فى نفس الوقت ــ ومن غير شك ايضا ــ يريد سوريا ولكن كيف السبيل ؟

هذه مجرد نماذج .. لمسات خفيفة من ضوء على جوانب الصورة .

***

هكذا ، بالخوف ، وبالحيرة ، وبالشك ، وبالامل ، وبالطموح ، اتفقت كلمتهم جميعا ــ ٢٢ ضابطا يمثلون ٢٢ كتلة فى الجيش السورى ــ عـلى أن الوحدة هى الحل وهى المخرج .

وركبوا جميعا طائرة جاءوا بها الى القاهرة ، الا واحدا منهم ــ هو عبد الحميد السراج ــ تركوه وراءهم فى دمشق ليمسك بزمام الامـور فى غيبتهم ويحفظ الميزان الدقيق المشدود على سلك بين حافتى هاوية ــ ريثما يعودون اليه .

وصلوا الى القاهرة يوم ١٤ يناير ١٩٥٨ على وجه التحديد .

وطلبوا ان يقابلوا الرئيس جمال عبد الناصر ، ولكنه يومها لم يكن فى القاهرة ، بل كان فى الاقصر مع ضيفه فى ذلك الوقت الدكتور احمـد سوكارنو رئيس جمهورية اندونيسيا .

ولست الآن اكتب اعتمادا على الذاكرة وحدها .. وانما أمـامى من أوراقى القديمة صفحات من مذكرات أحتفظ فيها أحيانا ببعض الـذى أراه واســـمعه ...

***

فى يوم ١٤ يناير قابلهم المشير عبد الحكيم عامر القائد العام للقوات المسلحة ، والقائد العام للقيادة المشتركة التى كانت تضم الجيش المصرى والجيش السورى فى ذلك الوقت .

وكان يعرفهم جميعا .. وكانوا يعرفونه جميعا ..

وتكلموا معه بما جاءوا من أجله .

وليلتها اتصل المشير عبد الحكيم عامر بالرئيس جمال عبد الناصر فى الاقصر ، وكان رأى جمال عبد الناصر : انه على أى حال سوف يعـود فى الغد الى القاهرة وسوف يجتمع بهم ليسمع ما عندهم .

وباتوا ليلتهم فى قصر الضيافة ، فى قصر الطاهرة .. اقول باتوا ولا أقول ناموا ، لانه فى تلك الليلة لم ينم منهم أحد وانمـا ظلوا هناك الى الصباح ساهرين يتحدثون ، ويتناقشون ، وينتظرون الطائرة العائدة من الاقصر ليجتمعوا بعبد الناصر فى المساء ، فى بيته .

وفى الساعة الثامنة مساء خرجت بهم قافلة سيارات حملتهم من قصر الطاهرة الى بيت الرئيس جمال عبد الناصر فى منشية البكرى .

ثم كان اجتماع ، سيظل ـ مهما كان ومهما سوف يكون ـ من أهم صفحات التاريخ العربى المعاصر .

***

وتحدثوا جميعا فيما جاءوا من أجله ، وساقوا له المبررات .

وصفوا حالة الفرقة بينهم ، وصفوا حالة «الاستنفار» الطوارىء الدائمة فى الثكنات لان كل منهم يتوجس من الآخر .

وصفوا حالة سوريا الضائعة بين أحزابهـا .. وبين ضغط حلف بغداد عليها فى الداخل والخارج وبين تسلل الشيوعيين الى الاعصـاب الحساسة للوطن السورى .

تحدثوا عن أسلحة حلف بغداد التى يجرى تهريبها عبر الحدود وعن مخططاته للسيطرة على سوريا .

تحدثوا عن نشاط خالد بكداش وعن حى الاكراد الذى حـوله فى دمشق الى قلعة مسلحة لا يجسر على الاقتراب منها غريب .

تحدثوا عن الشخصيات السورية السياسية المتهالكة ، بعضهم يمد يده للرياض استجداء لمالها الذى لا ضابط له ولا حساب ، وبعضهم يترك جيوبه لبغداد تحشوها له بما تقدر عليه بغداد من فيض الخير والرزق .

وقال جمال عبد الناصر :

ــ هذا كله لا يبرر قيام وحدة ، تلك كلها أسباب سلبية ، سوف تكون عبئا على الوحدة اكثر ما تكون قوة دافعة لها .

قالوا :

ــ لكن الشعب فى سوريا كله يطلب الوحدة .. ان الوحدة مطلبه الدائم .. والوحدة مع مصر بالذات هى التيار الكاسح فى سوريا كلها الآن ...

والناس فى سوريا يحسون انهم «يقبلون» وان مصر «تصدهم» .

ومجلس النواب السورى اتخذ قرارا بالوحدة مع مصر ، ولكن مجلس الامة المصرى لم يستجب .. وظل اسابيع طويلة بين التردد والاحجام ، ولا يجيب على الاشارة الموجهة اليه من المجلس النيابى السورى .. وان هذا وضع يجرح الشعور الشعبى فى سوريا .

وقال عبد الناصر :

ــ ان الوحدة ليست بالعمل السهل .. لقد بدأنا الآن ــ بالكاد ــ بعد معارك عنيفة مع الاستعمار نوجه كل طاقتنا لبناء مصر ، وأملى فى بناء مصر هو أن تكون قاعدة قوية ، من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لنضال باقى الشعوب العربية .

ان أملى ان نجعل مصر نموذجا للعمل الوطنى .. وبرغم ما فى ذلك من مشقة فان هذا هو طريقنا الوحيد ، ليس للتطوير فقط ، ولكن للوحدة أيضا .

انى أريد أن نجعل مصر البلد «النواة» للتطوير العربى ، ولسوف يكون لذلك كله اثره فى تدعيم الدعوة الى الوحدة عمليا وواقعيا وايجابيا .

وقالوا له :

ــ تريد أن تعمل ذلك لمصر .. وتترك سوريا التى علقت آمالها على مصر وعليك .. أنت بذلك تتخلى عن دعوة القومية العربية كلها من أجل مصر وحدها ...

وابتسم جمال عبد الناصر ..
وتطلعوا اليه جميعا ..

وقال لهم على الفور :

ـ اننى أريد ان اتكلم معكم بوضوح ... وأنا أعرفكم جميعا واعرف حسن مقاصدكم ولكنى أريد أن أسألكم سؤالا واحدا :

«ما هى صفتكم فى الحديث معى عن هذا الامر ، وانتم غير مسئولين؟»

***

واستطرد جمال عبد الناصر :

ـ هل يعرف شكرى القوتلى انكم هنا تتحدثون معى فى ذلك كله ؟

قال أحدهم :

ـ شكرى القوتلى سوف نبعث له بأمين النفورى يحمل اليه رأى الجيش ، وليس أمامه الا ان يقبل ، انه لا يقدر أن يعارض على الاطلاق اى شىء نطلبه .

وقال جمال عبد الناصر ، وأكاد أضيف ، قال بالحرف الواحد ، فالكلمة عندى مكتوبة كما سمعتها فى اليوم التالى من أحد الضباط السوريين الذين حضروا الاجتماع .

قال جمال عبد الناصر :

ـ متأسف ... لا استطيع ان اقبل هذه الاوضاع .

انا أعرف انكم تمسكون فى أيديكم بزمام القوة الحقيقية فى سوريا .

ولكنى من ناحيتى لا أقبل فى مثل هذه الامور ان اتحدث وان أبحث الا مع حكومة مسئولة .

وساد الصمت لحظة ..

وقال أحدهم :

ـ هل تعطينا وقتا نتصل بالحكومة .. سوف نبعث ـ اذا وافقت برسول منا بالطائرة غدا الى الحكومة يعرض عليها الموقف ويستطلع رأيها ، وسنبقى نحن هنا حتى يعود الرسول برأى الحكومة الرسمى .. ولا نريد ان نمشى من هنا الا ونحن نعرف الى اين قرارك بالتحديد .

***

وفى اليوم التالى ، فى الفجر ، قامت طائرة تحمل أحدهم الى دمشق وفى العصر عادت الطائرة الى القاهرة ، فيها راكب الفجر ، ورفيق آخر معه هو صلاح البيطار وزير الخارجية السورية فى ذلك الوقت ممثلا رسميا للحكومة .

ليلتها – ١٦ يناير ١٩٥٨ – كان السيد عبد اللطيف البغدادى رئيس مجلس الامة فى ذلك الوقت ، يحتفل بذكرى اصدار دستور ١٦ يناير ، وكانت مأدبة عشاء فى مبنى مجلس الامة .

وذهب الضباط الاثنان والعشرون .. ومعهم وزير الخارجيةصلاح البيطار الى مأدبة العشاء فى مجلس الامة .

وكان وجودهم هناك جميعا ، ومعهم بعض أعضاء مجلس النواب السورى .. وصلاح البيطار .. مظاهرة فى طلب الوحدة .

واقترب صلاح البيطار من الرئيس جمال عبد الناصر الذى كان يحضر العشاء وقال له :

– لقد جئت ممثلا للحكومة السورية ..

وانتهى العشاء .. وعاد الرئيس جمال عبد الناصر الى بيته .

وذهبوا جميعا وراءه ، ٢٢ ضابطا يمثلون كتل الجيش السورى المختلفة .. الحاكمة ، وصلاح البيطار يمثل الحكومة السورية الرسمية التى لم تكن تحكم .

***

وعند منتصف الليل .. فى الدقيقة الاولى من يوم ١٧ يناير ١٩٥٨ كانوا جميعا فى بيت الرئيس جمال عبد الناصر الذى جلس امامهم وبجواره المشير عبد الحكيم عامر .

وتكلم صلاح البيطار .. وزير الخارجية ..

قال :

– ان الحكومة السورية موافقة على اتمام الوحدة بين مصر وسوريا .

بل ان الحكومة ترحب بذلك ، كمطلب شعبى ، وكطريق لاستقرار سوريا ...

وقفز الباقون جميعا وراء كلمات صلاح البيطار ، يطلبون الوحدة ويلحون فى طلبها .

ومضت محاولة الاقناع ساعات .

وقال جمال عبد الناصر :

– اننى مستعد لقبول المبدأ ولكن على أساس ثلاثة شروط :

اننى أقبل المبدأ تحقيقا لمطلب الشعب السورى ، ولكى لا تضيع سوريا ...

ولكن شروطى الثلاثة هى :

أولا ـ أن يتم استفتاء شعبى على الوحدة ، ليقول الشعب فى سوريا وليقول الشعب فى مصر رأيه الحر فى التجربة ويعبر عن ارادته .

ثانيا ـ ان يتوقف النشاط الحزبى فى سوريا توقفا كاملا ، وأن تقوم الاحزاب السورية بحل نفسها .

ثالثا ـ أن يتوقف تدخل الجيش فى السياسة تدخلا تاما ، وأن ينصرف ضباطه الى أعمالهم العسكرية ، ليصبح الجيش اداة دفاع وقتال ، وليس اداة سلطة فى الداخل وسيطرة .

وسكتوا جميعا ...

***

واستطرد جمال عبد الناصر :

ـ اننى أعلم أنكم جميعا سوف توافقون على شرط الاستفتاء الشعبى ولكن باقى الشروط لها أهميتها فى تقديرى .

ان صلاح البيطار هنا ، وصلاح البيطار ممثل لحزب البعث وهو من أكبر الاحزاب السورية ، فهل حزب البعث على استعداد لان يحل نفسه ويوقف نشاطه الحزبى ؟

ثم ، من ناحية أخرى ، أنتم هنا جميعا ٢٢ ضابطا تمثلون كتلا مختلفة فى الجيش أقرب الى الاحزاب السياسية منها الى الوحدات العسكرية فهل تقبلون الابتعاد عن السياسة ؟

ان هذا الذى أقوله لكم فعلته فى مصر .. حتى مع الذين خرجوا معى ليلة ٢٣ يوليو ليقوموا بالثورة ..

لقد قلت لهم جميعا يومها ، انهم باشتراكهم فى الثورة قاموا بعمل سياسى ، وهو عمل سياسى وطنى فى تقديرى ، ولكنهم بعده لم يعودوا صالحين لنظم الجيش وتقاليده ولضرورة تسلسل القيادة فيه لتبقى له كفايته المقاتلة .

ان الذين كانوا معى فى اللجنة التأسيسية لحركة الضباط الاحرار خرجوا معى من الجيش وأصبحوا وزراء سياسيين .

والذين شاركوا فى عملية الثورة طلبت منهم ـ اعتمادا على وطنيتهم ـ أن يبتعدوا عن الجيش وأن يبدأوا وجودا جديدا فى الحياة المدنية ...

فهل أنتم على استعداد لذلك ؟

وقال صلاح البيطار :

ـ انه لا بد أن يعود فى هذا الشأن الى قيادة حزب البعث .

وقال الضباط الاثنان والعشرون :

ـ نحن نفعل ما تأمرنا به .. ان أردتنا فى الجيش بقينا ، وان اردت أحدا منا فى أى منصب مدنى سياسى فلسوف يطيع الامر .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ لقد أوشك الصبح أن يطلع ، فاذهبوا الآن وفكروا .

فكروا بين أنفسكم .. ابحثوا الامر كما يحلو لكم .. وخذوا وقتكم فى بحثـه ...

***

وخرجوا من بيته الى قصر الطاهرة ومعهم صلاح البيطار ..

لم يناموا دقيقة واحدة فى ليلتهم الثالثة فى القاهرة وانما جلسوا يتحدثون .. ويتناقشون وأكثر من ذلك يتصايحون بالحدة والعصبية .

وكان واضحا أن الشرطين الاخيرين لجمال عبد الناصر لمسا الاوتار الحساسة فى الحياة السياسية فى سوريا بالطريقة التى كانت تجرى عليها .

لم يكن الاستفتاء الشعبى موضوع سؤال فقد كان التيار الشعبى واضحا كاسحا ..

ولكن الاحزاب السورية ؟

هل تقبل أن تحل نفسها ؟

وضباط الكتل فى الجيش السورى ؟

هل يتنازلون طواعية عن سلطانهم القوى ؟

كانت هناك آراء متضاربة ، متصارعة .

كان لعفيف البزرى رأى فى شرط الاحزاب خصوصا بالنسبة للحزب الشيوعى السورى .

وكان لبعض الضباط من ذوى الآراء الموالية لحزب البعث رأى فى نفس الشرط .

وآخرون كانت لهم آراء فى عملية ابتعاد الجيش عن السياسة .

وارسلوا يجيئون بعبد الحميد السراج من سوريا يسألونه :

ــ كيف الناس ؟

وقال عبد الحميد السراج :

ــ ان تيار الوحدة متدفق ولا يمكن ايقافه .

واجتمعوا ليلتها جميعا ، مرة اخرى ثالثة ، وعبد الحميد السراج معهم ، بالرئيس جمال عبد الناصر ، وكان لا يزال عند شروطه كلها ، لم يتنازل عن واحد منها ، وخرجوا من عنده قرب الفجر يركبون طائرة تعود بهم الى دمشق .

وكانت الحقيقة الكبرى فى الطائرة معهم وهم عائدون :

ــ ان التيار الشعبى وأوضاع سوريا الخارجية والداخلية ، وما بينهم هم انفسهم ، تجعل الوحدة أمرا محتما مهما كانت شروط الرئيس جمال عبد الناصر .

***

وجاء كل الساسة من سوريا .. وفى طليعتهم شكرى القوتلى .

وبين الظروف الواقعة ، وبين شروط جمال عبد الناصر ، لم يكن هناك مخرج ثالث سهل .

وكان الالحاح الشعبى السورى يكاد يقتحم كل غرفة من غرف الاجتماعات .

كانت ارادة الجماهير السورية هى العامل الضاغط والموجه .

وقبل الوحدة من السياسيين السوريين من قبلها فى ذلك الوقت وفى ذهن كل منهم :

أولا ــ أن يفلت من الضغط الشعبى الذى يحاصره .

ثانيا ــ أن يجد لنفسه فى الاوضاع الجديدة ــ بعد الوحدة ــ مكانا يستطيع منه أن يباشر العمل لنفسه ولاهدافه التى لم يجد لها مخرجا فى الدقيقة الستين من الساعة الرابعة والعشرين .

وكان فيهم من أسعده الخلاص من المسئولية ، وإذكر وأنا اكتب هذه السطور كلمة شكرى القوتلى عندما وقع بامضائه الاتفاق الاول على الوحدة ، وأذكر الكلمة بحروفها ــ للحقيقة والتاريخ برغم ضعفى

الشديد ــ الذى أعترف به ــ أمام الرجل العجوز الطيب الذى عـاش فى ظروف أقوى من طيبته .

قال شكرى القوتلى بعد أن وقع بامضائه على اتفاق الوحدة ، قال بلهجته العالية وبطريقته المشهورة :

ــ ها ... أنت لا تعرف ماذا أخذت يا سيادة الرئيس !!

إنت إخذت شعبا يعتقد كل من فيه أنه سياسى .

ويعتقد خمسون فى المائة من ناسه أنهم زعماء .

ويعتقد ٢٥ فى المائة منهم أنهم أنبياء .

وهناك عشرة فى المائة على الاقل يعتقدون انهم آلهة .

واستطرد شكرى القوتلى :

ــ إخذت ناسا فيهم من يعبد الله ، وفيهم من يعبد النار ، وفيهم من يعبد الشيطان ، وفيهم من يعبد «...» !

وذكر شكرى القوتلى كلمة لا أستطيع أن أضعها على الورق .

ونظر جمال عبد الناصر الى شكرى القوتلى وقال ضاحكا :

ــ لماذا لم تقل لى ذلك قبل ان أوقع على الاتفاق بامضائى ؟

***

ولم تكن تلك نهاية أحداث ذلك اليوم العجيب .. الخالد برغم ذلك فى تاريخ الامة العربية وفى نضالها من أجل الوحدة .

فى نفس اليوم .. تلقى الرئيس جمال عبد الناصر من دمشق تقريرا خاصا حمله رسول بالطائرة عن اتصـال قام به الملك سعود مـع عبد الحميد السراج ، يغريه على أساسه بأن يقوم بانقلاب يمنع اجـراء الاستفتاء على الوحدة ، مقابل أى مبلغ يريده عبد الحميد السراج .

ولم يجد جمال عبد الناصر فى نفسه القدرة على أن يصدق .

بل حتى عندما أرسل عبد الحميد السراج من دمشق ، الشـيك الاول الذى قدمه له الملك سعود ، الشيك رقم ٨٥٩٠٢ المسحوب عـلى البنك العربى بالرياض ، بتاريخ ٢٠ فبراير ١٩٥٨ ــ بمبلغ مليون جنيه استرلينى .. حتى ذلك الوقت كان جمال عبد الناصر يهز رأسه فى شك ولا يتصور أن تصل الامور الى هذا الحد .

وبعث جمال عبد الناصر ــ يريد أن يقطع الشك باليقين ــ رسالة

الى عبد الحميد السراج يطلب منه أن يحاول صرف المبلغ .. وصرف المبلغ فعلا وحول الى حساب عبد الحميد السراج فى البنك العربى فى دمشق ، وفوقه شيكان آخران احدهما بمبلغ ٧٠٠ الف جنيه استرلينى رقمه ٨٥٩٠٣ مسحوب من البنك العربى بالرياض ، والثانى بمبلغ ٢٠٠ الف جنيه استرلينى رقمه ٨٥٩٠٤ مسحوب من البنك العربى فى الرياض كذلك .

هنا لم يبق مجال لشك ، ولا لهزة راس حائرة .

ومن اعجب العجب انه فى نفس الوقت الذى كان ذهب الملك سعود يتسلل داخلا الى دمشق كان خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعى السورى ، يتسلل من دمشق خارجا .

***

وكانت الجماهير فى شوارع كل مدينة سورية وكل قرية تهتف وتغنى ...

كانت تعيش يوم انتصارها

ولكن كثيرين فى المنطقة وخارجها كانوا يعتبرون يوم الوحدة هزيمة لهم ...

ولم يستسلموا للهزيمة بالطبع فقد كان فى ايديهم سلاح كثير يحاربون به ..

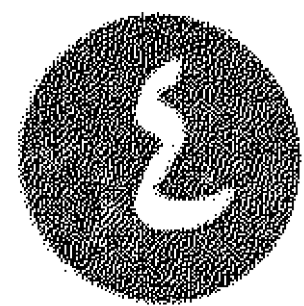
ان مخازن الاسلحة فيها كثير مما يمكن استعماله .. الذهب .. والرصاص .. والقنابل .. والاذاعات .. والمؤامرات .. وسموم الشكوك .

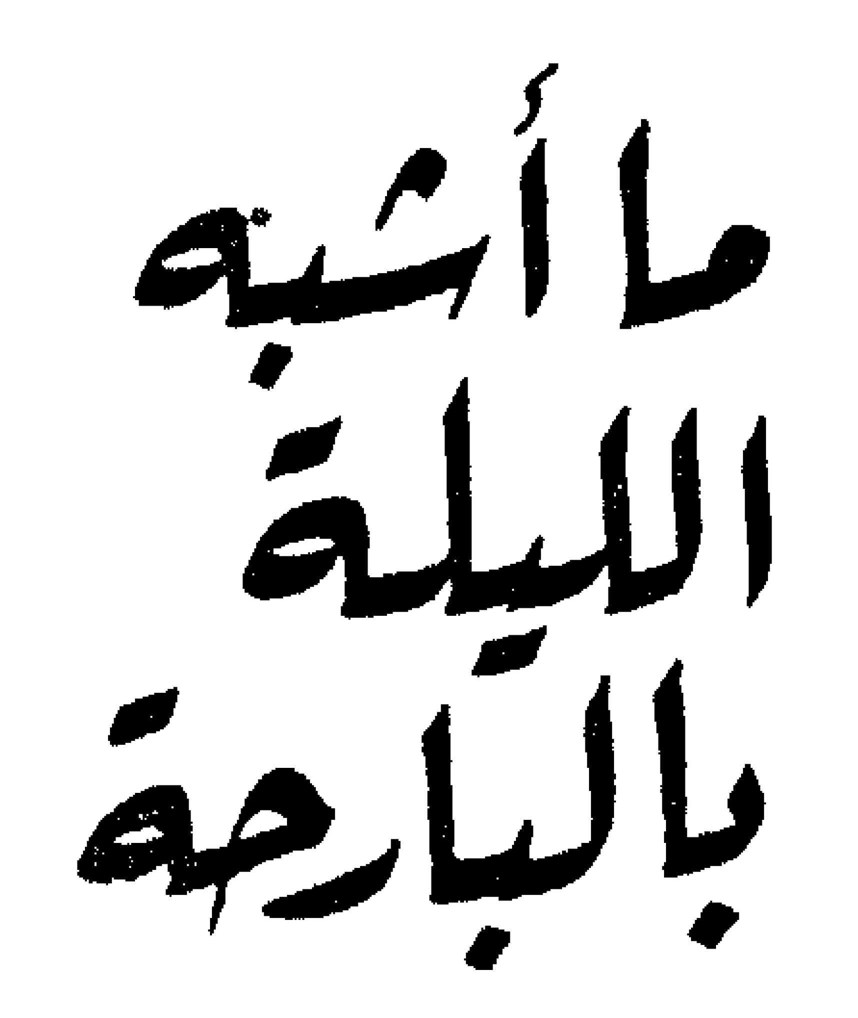
ترسانة مليئة بالاسلحة التى يمكن أن تتحرك لضرب فرحة الجماهير بيوم انتصارها .. وتحركت أسلحة .. وتحفزت أسلحة اخرى .

ومضت المعركة ضد الوحدة قاسية ، رهيبة ، دامية ، مدمرة ، حاقدة ...

***

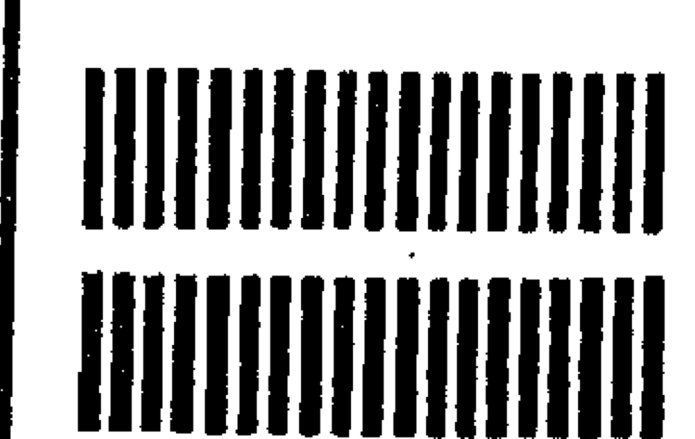
ولقد لهثت حتى وصلت الى هنا .. وانتظر قليلا .. ولسوف أعود الى الكلام ...





من هو الصامت الذى
كتم أنفاسه وانتظر
وعليه عباءة من ظلام
وفوق رأسه عقال
من ذهب
لا أريد أن أتهم..
ولكنى أسأل..
مجرد سؤال!

نورى السعيد



ما الذى حدث بعد أن أصبحت الوحدة أمرا واقعا فرضته ارادة الجماهير فى سوريا . ثم هرول ساسة سوريا وحكامها فى ذلك الوقت من بداية سنة ١٩٥٨ ، ليحلقوا بإرادة الجماهير ويتعلقوا بذيلها ، حتى يحتفظوا لانفسهم ببقايا نفوذ ؟

كانت الصورة النهائية التى رسمت بها فى الاسبوع الماضى شكل الموقف فى سوريا بعد اتمام الوحدة كما يلى :

« كانت الجماهير فى شوارع كل مدينة سورية وكل قرية تهتف وتغنى

كانت تعيش يوم انتصارها

ولكن كثيرين فى المنطقة وخارجها ، كانوا يعتبرون يوم الوحدة هزيمة لهم ولم يستسلموا بالطبع فقد كان فى أيديهم سلاح كثير يحاربون به

ان مخازن الاسلحة فيها كثير مما يمكن استعماله ... الذهب ، والرصاص ، والقنابل ، والاذاعات ، والمؤامرات ، وسموم الشكوك

ترسانة مليئة بالاسلحة ، التى يمكن أن تتحرك لضرب فرحة الجماهير يوم انتصارها وتحركت اسلحة ، وتحفزت أسلحة أخرى

ومضت المعركة ضد الوحدة قاسية ، رهيبة ، دامية مدمرة ، حاقدة » !

كانت هذه هي الصورة يومها .. فما الذى حدث بعد ذلك ... وكيف تطورت الحرب ضد الوحدة

***

لقد قضيت ساعات طويلة من هذا الاسبوع فى تجربة مثيرة .

حين أردت أن أستعيد فى ذاكرتى صورة المعركة التى وجهت الى الوحدة فى يومها الاول ، وجدت نفسى أعود الى أحداث بداية سنة ١٩٥٨ ، والى صحفها ، والى أوراقها ، والى اذاعاتها

ولاول وهلة أحسست بشىء غريب !

ان الذى حدث ، وقيل ، وكتب ، وأذيع ، ضد الوحدة فى يومها الاول ، هو نفس الذى حدث ، وقيل ، وكتب ، وأذيع ، فى يومها الاخير !

نفس الاحداث ... نفس الاقوال ... نفس الكتابات ... ونفس الاذاعات لم يتغير شىء منذ اللحظه الاولى ... حتى اللحظة الاخيرة

***

الملك سعود ، **حضرة صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز ،** الذى دفع لعبد الحميد السراج مليونى جنيه استرلينى فعلا ، وعرض عليه ٢٠ مليون جنيه استرلينى وعدا ، اذا ماقام بانقلاب يمنع قيام الوحدة ... هو نفسه حضره صاحب الجلالة الملك سعود بن عبد العزيز الذى كانت أمواله هى القوة المحركة للانقلاب الذى تم ضد الوحده فعلا بعد ثلاث سنوات ونصف سنة من اتمامها ... بعد ثلاث سنوات ونصف سنة من محاولته الاولى ضدها

لقد رفض عبد الحميد السراج ذهب الملك سعود سنة ١٩٥٨

ولكن غير عبد الحميد السراج لم يجد فى نفسه القدرة الكافية على الرفض سنة ١٩٦١

***

وفى سنة ١٩٥٨ ، كان صهر الملك سعود هو رسوله الى الضابط الذى رفض العرض بمليونى جنيه استرلينى ، وكشف المؤامرة كلها

وفى سنة ١٩٦١ ، كان صديق الملك سعود ، ملك آخر ، ما زال الان على عرش الاردن ، هو رسوله الى الضباط الذين لم يرفضوا ، والذين اشتركوا فى المؤامرة .

وفى سنة ١٩٥٨ ، حاول الملك سعود مع كل ساسة سوريا القدامى، ليوقف التيار المتدفق نحو الوحدة ، وجرب معهم كل وسائل الضغط ، وفى مقدمتهم السيد شكرى القوتلى ، وكان السيد شكرى القوتلى يشعر دائما بجمائل الرياض تطوق عنقه ، وبينها انه لما حدث ضده انقلاب حسنى الزعيم سنة ١٩٤٩ ، لم يجد بابا مفتوحا يومها غير باب الرياض، وكان الملك عبد العزيز آل سعود يعطيه فى ذلك الوقت عشرة الاف جنيه فى الشهر مرتبا ثابتا له باعتباره لاجئا سياسيا لاذ برحابه .

ولكن الرجل العجوز الطيب ، شـــكرى القوتلي ، اعتذر للملك سعود وقتها بأنه لا يملك من الامر شيئا

ولمـا ظهرت تفاصيل محاولة الملك سعود مع عبد الحميد السراج فى ذلك الوقت كان شكرى القوتلى فى حالة ذهول ، ولكنه فى ذلك الوقت حاول جهده أن تبقى التفاصيل طي الكتمان ولا تذاع

وكان شكرى القوتلي ــ والشهادة الآن للحقيقة والتاريخ ــ منطقيا فى محاولته بل ويومها سمعته باذنى يقول :

ــ ان والده ، يقصد الملك عبد العزيز والد الملك سعود ، صاحب فضل على لا أنساه .. لقد فتح لى بابه يوم محنتي ، وأفاض علي من عطائه يوم خرجت من سوريا لا أملك شيئا

وفى سنة ١٩٦١ ، كان الملك سعود ، هو نفسه الذى ضغط بكل قوته على شكرى القوتلي لكي يؤيد الانقلاب ضد الوحدة ، وهو نفسه الذى بعث اليه بالرسل فى زيوريخ يقنعونه ويؤثرون عليه ، لان انقلاب دمشق ضد الوحدة ، كان يحتاج الى وجه شعبي يؤيده ويسنده

وبعد ثلاثة عشر يوما من الصمت الكامل ... خرج شكرى القوتلى عن صمته

ولست أريد أن أتعرض بعد ذلك لشكرى القوتلى ، **فان بى نحوه ضعفا لا أقدر أن أغالبه**

ولسوف يكون التاريخ على أى حال ، أقوى منى ، فان التاريخ فى حكمه على الاحداث ، يجردها من كل عاطفة فردية

***

وفى سنة ١٩٥٨ ، **وفرح الوحدة** يملأ أعطاف الامة العربية كلها ، ظل الملك سعود وحده مكتوم النفس ، متواريا عن الانظار فى ظلام المؤامرة التى حرض عليها ولم تنجح

وفى سنة ١٩٦١ ، ومأساة الوحدة تهز ضمير الامة العربية كلها ، ظل الملك سعود وحده مكتوم النفس ، متواريا عن الانظار فى ظلام المؤامرة التى حرض عليها ونجحت

وعندما وقع التمرد فى دمشق ، أبدى معظم رؤساء الدول العربية اهتمامهم بما يجرى وقلقهم من تطوراته ، ملك المغرب ... الحبيـب بورقيبة رئيس جمهورية تونس ... الرئيس ابراهيم عبـــود رئيس حكومة السودان ... امام اليمن ... كلهم تقريبا ، وغيرهم فى العالم المتحرر أو أغلبهم ، تكلموا ... **ما عداه**

كل الذى فعله لحظة جاءه النبأ بأن المؤامرة ضد الوحدة نجحت .. أنه قام ورقص رقصة السيف السعودية المشهورة ، ثم عين الذى جاءه « بالبشرى » وهو سكرتيره السيد عبد الله أبو الخـــير وزيرا فى الوزارة السعودية ، ثم كتم أنفاسه وقبع ... ساكتا عليه عباءة من ظلام وفوق رأسه عقال من ذهب !

ما أشبه الليلة بالبارحة !

***

وفى يوم ٢٨ فبراير بالذات سنة ١٩٥٨ ، أى بعد أيام من اتمـام الوحدة ، اذاع راديو بغداد ، الذى كان يعبر فى ذلك الوقت عن وجهة نظر الاسرة الهاشمية الحاكمة من فوق عرش العراق الذى تنهار بعد ذلك بستة شهور قوله :

« أن الوحدة بين مصر وسوريا لا تعدو أن تكون « تسلطا » مصريا على سوريا »

واذاع راديو عمان ، الذى ما زال حتى الان يعبر عن بقايا الاسرة الهاشمية ، قوله :

«ان هذا الذى تم بين مصر وسوريا ، ليس وحدة وانما هو«ابتلاع» قامت به مصر لسوريا» .

وأذاع راديو اسرائيل ، الذى هو صوت عدو العرب بلا جدال ، فى نشرة أقوال الصحف فى الساعة الواحدة الا ربعا بعد الظهر قوله :

«ان الوحدة بين مصر وسوريا هى خطوة فى أحــلام عبد الناصر باقامة امبراطورية عربية من المحيط الى الخليج» .

وفى نفس اليوم ، روى السيد عبد الحميد السراج ، فى حديــث نقلته وكالات الانباء من دمشق ، أن وسـيط الملك ســعود قال له فى محاولة اقناعه بالقيام بانقلاب ضد الوحدة ما نصه بالحرف :

« ما الذى سوف تجنونه من الوحدة مع مصر .. ان المصريـين سوف يحكمونكم ... »

وفى يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ ... يوم الانقلاب ضد الوحدة ، لم تكن هناك غير هذه المعانى المسمومة التى رددها كل أعداء الوحـــدة فى لحظة ميلادها

فى هذا اليوم ترددت نفس المعانى القديمة بألفاظها ، بحروفها .. ترددت من نفس الاذاعات :

لقد كانت الوحدة « تسلطا » مصريا على سوريا

لقد كانت الوحدة « ابتلاعا » مصريا لسوريا

لقد كانت الوحدة « امبراطورية » أرادها عبد الناصر لتحقيق احلامه

لقد كانت الوحدة « حكما » مصريا لسوريا

ما أشبه الليله بالبارحة !

***

بل وفى التفاصيل يظهر التطابق بين الامس واليوم

فى يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٥٨ ، فى الساعة الحادية عشرة من المساء قال « راديو مصر الحرة » الاذاعة السرية الموجهة الينا من فرنسا ما نصه بالحرف الواحد :

« لقد سافر السيد الشرباصى وزير الاشغال فى حكومة عبد الناصر الى سوريا للبحث فى امكانية استيعاب ارض سوريا لمليون من الفلاحين المصريين ، وكذلك لاتخاذ الترتيبات المعيشية لمليون مهاجر مصرى .. ان الاستفتاء على الوحدة لم يتم حتى الان ، وما زالت الوحدة حبرا على ورق ومع ذلك بدات عملية الاستغلال »

بالحرف الواحد قيل ذلك كله من الاذاعة التى توجهها الينا فرنسا يوم ١٠ فبراير ١٩٥٨ ، والقصد منه تصوير الوحدة باعتبارها طمعا مصريا فى أراضى سوريا

وبعد ثلاث سنوات ونصف سنة ، وبالتحديد فى يوم ١٧ اكتوبر ١٩٦١ ، قالت اذاعة دمشق ، التى تنطق بلسان السلطات الحاكمة أو المتحكمة فى سوريا الان ، ما نصه بالحرف الواحد ، فى برنامج أطلقت عليه عنوان « هل تعلم » أذيع فى الساعة الثانية عشرة ظهرا ما يلى :

« ان تهجير الفلاحين المصريين الى الجزيرة فى سوريا كان أملا من الامال الكبار التى كان يتطلع اليها الحكام فى العهد السابق ـ وقد ظل الحكام السابقون يعملون لتنفيذ هذه الخطة باحكام وتؤدة وبخطوة وراء خطوة وبصورة غير مباشرة حتى لا يثيرون يقظة العرب السوريين

وقد زار سورية فى منتصف العام الماضى الدكتور مصطفى الجبل رئيس قسم الامراض فى جامعة الاسكندرية والدكتور على الحسنى استاذ المحاصيل ورئيس قسم النبات فى الجامعة نفسها ؛ على رأس بعثة من خبراء التربة واستصلاح الاراضى ، وقامت البعثة بزيارة محافظتى الجزيرة .. ودرست امكانية استيعابهما والمشاريع الزراعية التى يمكن أن تنفذ فى هاتين المحافظتين ، وعندما عادت البعثة

الى مصر قام الاستاذان المصريان برفع تقرير الى الرئيس عبد الناصر من جولة البعثة وضمناه دراستهما حول المهمة التى أوكلت اليهما وقد أكد الخبيران المصريان فى تقريرهما امكانية تهجير الفلاحين المصريين الى المنطقــة ، ولم تمض فترة وجيزة على عودة البعثة حتى تدفق عشرات الخبراء المصريين من مهندسين زراعيين وخبراء فنيين فى بحوث التربة والمشاريع لزراعية والتهجير والاسكان واستصلاح الاراضى ».

هكذا تقول اذاعة دمشق فى اكتوبر ١٩٦١ ، نفس ما قالته اذاعة فرنسا السرية فى فبراير سنة ١٩٥٨

تقول نفس الكلام .. بالفاظ مختلفة ، وبمعنى واحد هو تصــوير طمع مصر فى تهجير فلاحين من أبنائها الى سوريا .

والذى يدمى القلب ويجرحه ، ان اذعة دمشق سنة ١٩٦١ كانت تعرف أسباب الدراسة التى قام بها الاساتذة المصريون والخبــــراء فى منطقة الجزيرة . كانت تعرف أن الجمهورية العربية المتحـــــدة وقت الوحدة ـ بعد هذه الدراسة ـ وقعت فى يوم ٦ يوليـــو ١٩٦١ اتفاقا مع المانيا الغربية بقرض قيمته ٥٠٠ مليون مارك لبناء ســـد عال على الفرات

وكان سد الفرات كله سيبنى للفلاحين السوريين .

وكان الشرباصى وزير الاشغال حين زار سوريا فى فبراير ســنة ١٩٥٨ يفكر فى مشاكل الفلاح السورى

وكان الخبراء المصريون والاساتذة الذين طافوا بحوض الفــرات على حدرواية اذاعة دمشق ـ يفكرون فى مشاكل الفلاح السورى

ولكنها أكاذيب العدو من أول يوم الى آخر يوم ، أكاذيب العـــدو وخطتـــــــه

وما أشبه الليلة بالبارحة !

***

وفى سنة ١٩٥٨ ، تحرك ملوك وامراء الاسرة الهاشمية الـــذين ذهب معظمهم تحت التراب ، وما زال واحد منهم باقيا يتمرغ فــوقه ـ تحركوا جميعا ليواجهوا تيار الوحدة الشعبى الكاسح

وكانت حركتهم هى « الاتحاد الهاشمى » الذى ضم العــراق والاردن فى ذلك الوقت ، ثم هدمته ارادة شعب العراق بعد ســـتة شهور من اقامته

فى ذلك الوقت حاولت الرجعية فى المنطقة ان تزيف شعار الوحـدة وترفع علما ملونا جديدا .. اى علم !

***

وفى سنة ١٩٦١ ، بعد الضربة التى وجهتها الرجعيـــة الى أول تجربة شعبية فى الوحدة العربية ، لم يجد حكام دمشق الا ان يعلنوا مشروعا جديدا للوحدة كما يتصورونها أو كما تتصـورها مصـالحهم الرامية الى المضى فى استغلال الجماهير

فى سنة ١٩٥٨ زيفت الرجعية شعار الوحدة خوفا من اندفاع التيار الشعبى نحوها

وفى سنة ١٩٦١ زيفت الرجعية شعار الوحدة خوفا من رد الفعل الشعبى بعد النكسة التى واجهتها التجربة بالمؤامرة على سوريا

***

وأكثر من ذلك فيما يتعلق بالاتحاد الهاشمى ، بعمليـــة تزييف الوحدة التى جرت به استذكر موقف اسرائيل ..

استذكر موقف اسرائيل وامامى أوراق ووثائق وصحف تلك الايام

فى ذلك الوقت ــ وليس ما أقوله الآن سرا يذاع لاول مرة ــ اتصل السيد نورى السعيد رئيس وزراء العراق وقتها ، بالسير ميكل رايت السفير البريطانى فى بغداد ، وطلب اليه أن تتصل الحكومة البريطانيـة من ناحيتها بحكومة اسرائيل وان تخطرها بالاتحاد المزمع عقده بين العراق والاردن تحت اسم الاتحاد الهاشمى ، وذلك حتى لا تكون الخطـــوة مفاجأة لاسرائيل ومن ثم يكون الخطأ فى تقديرها ، ثم يضايقها بعده ان تدخل وحدات من الجيش العراقى الى الاردن

ولم يعلن من أمر الاتحاد الهاشمى يومها شىء الا بعد أن عـــاد السير ميكل رايت سفير بريطانيا فى بغداد يومها الى مقـابلة الســيد نورى السعيد ، وليعطيه على ما قالت الصحف البريطانية : الضـــوء الاخضر من اسرائيل ، علامة معناها : تقدم ، ونحن نفهم موقفك

وتقدم نورى السعيد بعدها ... وبعدها فقط ... ثم اعلن قيـام الاتحاد الهاشمى !

ذلك كله مما حدث سنة ١٩٥٨ معروف مشهور ... ليس فيـه سر ولم يبق فى تفاصيله خفاء .

***

ولكنى أريد أن أسأل : ما الذى حـدث فى سبتمبر ١٩٦١ ؟

لا داعى أن لدى سرا اذيعه او وثيقة انشرها ... ولكنى اسأل وانتظر الحوادث والايام لتجيب ؟

ما الذى حدث ؟

ان ثمة حقائق لا تقبل النقاش أو الشك :

١ ــ لقد أعلن الملك حسين بنفسه أن جيش الاردن كان محتشدا على الحدود السورية كلها من قبل الانقلاب السورى الاخير لكى يشد أزره ويناصره

واسأل هنا :

● كيف استطاع الملك حسين أن يسحب جيشه كله من أمام اسرائيل وأن يضعه على الحدود السورية .. ومن الذى ضمن له أن لا تتحرك اسرائيل ؟

● لا يمكن لاسرائيل الا أن تلاحظ أن جيش الملك حسين قد سحب من امامها ،ولا يمكن لها الا ان تلاحظ إنه قد حشد بأكمله عند خط الحدود مع سوريا ... فكيف فهمت اسرائيل هذه الحركة وسكتت ... ومن الذى أفهمها ومن الذى ضمن سكوتها ؟

٢ ــ أن معسكر قطنة الذى تحركت منه الدبابات التى قامت بالانقلاب السورى الاخير يبعد عن حدود اسرائيل بثلاثين كيلو مترا فقط .....

واسأل هنا :

● كيف اطمأن الذين قاموا بالانقلاب الى أن اسرائيل لن تشعر بهذه الحركة أو تستغلها بعد وقوعها لصالحها ولصالح مطامعها فى سوريا وهى معروفة ظاهرة ؟

واضيف هنا أننى لا أتهم .. وانما أنا أسأل فقط ؟

٣ ــ إن دمشق على بعد ٦٠ كيلو مترا من اسرائيل ، والخطر الاسرائيلى على سوريا لا يحتاج الى دليل جديد ، ولقد أفهم ــ بصرف النظر عن مبادئى الخاصة وعن رأيى ــ أن يقوم فى دمشق من يقول : اننا نريد الوحدة مع مصر !

ولكن هذا شىء واعتقال ٧٠٠ ضابط مصرى فى سوريا ، واساءة معاملتهم ، الى درجة تمزق كل صبر ، مسألة أخرى !

لقد اخرجتهم حكومة الانفصال من مواقعهم المواجهة للعدو .. ليكن ..

وقالت لهم أن لا مكان لهم فى سوريا .. ليكن

ولكن يبقى بعد ذلك ـ وهذه حقيقة بدهية ـ ان الجيش المصرى ، وهؤلاء الضباط بين افراده ، هو القوة الوحيدة القادرة على مساندة الجيش السورى يوما فى معركة ضد اسرائيل !

● واسأل ... اسأل مجرد سؤال ... على من تعتمد اذن حكومة دمشق اذا ما واجهتها يوما اخطار معركة مع اسرائيل ؟

واجد فى ملفاتى القديمة صورة كاريكاتورية نشرتها جريدة نيويورك تيمس الامريكية ، المتشيعة لاسرائيل كما يعرف كل عربى ؛ والصورة منشورة فى اليوم السادس من فبراير ١٩٥٨ .

« الصورة كماشة لها فكان تمثل الوحدة بين مصر وسوريا

واسرائيل فى وسط الكماشة

وجمال عبد الناصر يدير مفتاح الكماشة لتضيق رويدا رويدا

وتحت الصورة عبارة تقول « الضغط الذى تتعرض له اسرائيل »

ثم أجد فى أوراقى الجديدة ، عددا من مجلة « الجويش أوبزرفر » الصادرة فى السادس ـ السادس أيضا ـ من أكتوبر ١٩٦١ ، وفى الصفحة الثالثة عشرة من هذا العدد ، عبارة وردت ضمن تقرير صحفى عن الانقلاب فى سوريا تقول بالحرف الواحد :

« ان الحكومة ووزارة الخارجية ـ فى اسرائيل ـ كانتا دقيقتين فى الابتعاد عن أى تعليق على التمرد الذى حدث عبر الحدود

لقد كان واضحا الى أى الجانبين تتجه مشاعرهما الطيبة ، ولكن لم يكن هناك أضر بحركة المتمردين من أى مظهر صغير من العطف عليهم من جانب اسرائيل ، وحتى اذاعة صوت اسرائيل طلب اليها ان تصوغ اخبارها بكلمات دقيقة »

ومرة أخرى لست هنا لاتهم ... وانما أريد أن اسأل فقط ؟

واذا كانت فى أحداث الامس التى تكشفت قدرة القاء ضوء على أحداث اليوم التى لم تتكشف بعد ، فانى اقول :

ـ ما أشبه الليلة بالبارحة .

***

وانما ، هنا يقفز ـ للحقيقة والتاريخ ـ سؤال

ـ لكن ... لماذا اذن استطاع اعداء الوحدة ، على اختلاف

اسمائهم . على اختلاف ازيائهم ، على اختلاف اهدافهم أن يوجهـوا هذه الضربة للوحـدة ؟

***

ان الذى قالوه فى اليوم الاول من التجربة فى فبراير سنـة ١٩٥٨ وبعده

هو نفس الذى قالوه فى اليوم الاخير للتجربة فى سبتمبر سـنة ١٩٦١ وبعـده

هو نفس الذى قالوه بين اليومين طوال ثلاث سنوات ونصف سنة

***

ان المؤامرة ضد الوحدة ظاهرة فى الاحـداث ، وفى الاوراق وفى الأصوات ، التى نستطيع أن نعود اليها من ذكريات سنة ١٩٥٨

والمؤامرة ضد الوحدة ظاهرة فى الاحـداث ، وفى الاوراق ، وفى الاصوات التى نستطيع أن نصل اليها ممـا هو واقع الآن فى اكتوبر ١٩٦١ .

***

واطراف المؤامرة بالامس نعرفهم جميعا ... لقد اعترف كل واحد بنصيبه فيها ولم يقدر على المضى فى الانكار

واطراف المؤامرة اليوم لا نحتاج فى كشفهم الا أن نحرك الابرة فى جهاز راديو ، ما بين اذاعتى عمان وتل أبيب ... وغيرهما ويصعب على هنا أن أضيف اسم اذاعة اخرى !

***

ذلك كله مفهـوم

مفهوم أن يتجمع أعداء الوحدة العربية كلهم ،من أول يوم فى التجربة الى آخر يوم ، وأن يقولوا نفس الكلام ، وأن يتخـذوا نفس الموقف وأن يتحركوا الى نفس الهدف .

ولـكن أين كنا نحن ؟

وكيف لم نستطع اتقاء الضربة ؟

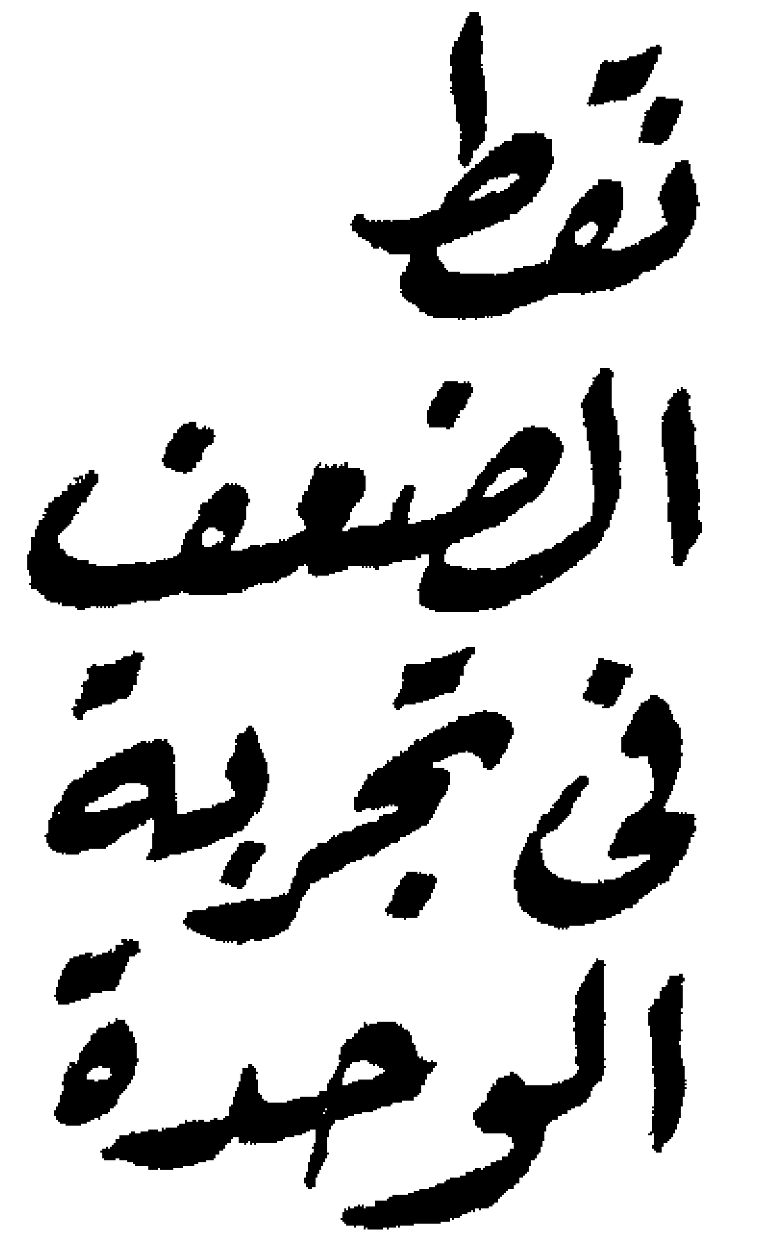
ولقد كان عدونا قويا .... هذا صحيح

ولكن الصحيح أيضا اننا لم نحسن حماية نقاط الضعف فى خط دفاعنا ـ برغم قوتنا المتفوقة على قوة العـدو باعتبارات الطبيعة وباتجاه التاريخ .

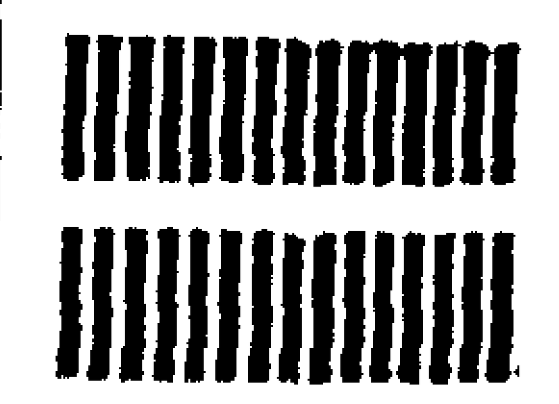
***

ولكن هذا الكلام يحتاج الى مزيد من تفاصيل

٥



عملية النقد ،
والنقد الذاتي ،
حيوية لهذه المرحلة
من النضال العربي
أخطاء القاهرة في المعركة
الكبرى في دمشق



أجل .. كيف لم نستطع اتقاء الضربة التى وجهت الى الوحدة فى دمشـــق ؟ .

عند هذا السؤال الكبير وقفت فى الاسـبوع الماضى وكانت آخـــر عبارة قلتهـــا قبله هى :

« ذلك كلـــه مفهـــوم ..

مفهوم أن يتجمع أعداء الوحدة العربية كلهم ، من أول يـــوم فى التجربة الى آخر يوم وأن يقولوا نفس الكلام ، وأن يتخـــذوا نفس الموقف ، وان يتحركوا الى نفس الهدف .

ولكن اين كنـــا نحـــن ؟

وكيف لم نستطع اتقاء الضربة ؟

ولقد كان عدونا قويا .. هذا صحيح ..

ولكن الصحيح أيضا أننا لم نحسن حماية نقاط الضعف فى خط دفاعنا ــ برغم قوتنا المتفوقة على قوة العدو ، باعتبارات الطبيعـــة وباتجاه التاريخ »

عنـــد هذا الحد انتهيت من الـــكلام فى الاســـبوع الماضى ..

فاذا جاز لى اليوم أن التقط الخيط من حيث تركته بالضـبط ، وأن أبادر اليوم مبتدئا ، بالاجابة على السؤال الذى وقفت عنده منتهيا فى الحديث الماضى لقلت على الفور :

« ان القوة الجديدة التى جاءت بهـا الوحدة الى ســوريا ، لم تستطع أن تباشر ماكان يمكن أن يكون لها من تاثير .. ان قوة الوحدة ظلت معزولة عن الفعل الايجابى ... بل وأكاد أقول انها فى بعض الاحيان من تأثير عقد وظروف ، ساهمت فى عزل نفسها عن الفعل الايجـابى ..

أخيرا تنبهت . ولكنها حين تنبهت كان وقت طويل ، غال وثمين ، قد تسرب وضاع . فلما جاءت الضربة ضد الوحدة ، لم تكن قواها الدفاعية فى خير حال تستطيع معه رد الخطر » ..

كيف . .. ؟

***

كيف .. ومن المسئول ؟

كلنا شركاء فى المسئولية ، وعلى كل من يتحمل فى المسئولية نصيبا ، أن يرفع يده اليوم فى شجاعة وشرف ، ويقول :

ـ ها هنا كان خطئى .. وانى أعترف به ..

ان عملية النقد ، والنقد الذاتى ، لم تكن فى يوم من الايام حيوية فى نضال الامة العربية بمثل ماهى اليوم ..

ولا ينبغى لاحد منا أن يتردد فى النقد ، وفى النقد الذاتى مخافة ان يستغل ما يقوله فى المعركة النفسية الهائلة التى تدور ضد الامة العربية الان ..

لاينبغى لاحد منا أن يكتم شهادته ، لان اذاعة دمشق وحكامها اليوم سوف يستغلون كل كلمة ، أو لان اذاعة الملك حسين سوف تستعملها غدا ضدنا ، أو لان اذاعة اسرائيل سوف تنتهزها فرصة تنال بها كل ماتستطيع ان تناله من قيم فى حياتنا .

تلك كلها مسالة وقت .

أن صوت دمشق لن يظل أبدا هذا الصوت الذى نسمعه الان ..

وعمر الملك حسين ، أقصد عمر نظامه كله ، أن يزيد على طول قامته ..

وأسرائيل جسم غريب على الارض العربية وستلفظ الارض العربية هذا الجسم الغريب ، وتنفضه بعيدا ، مهما بدا الامر شاقا ومهما بدا صعبا ..

انما الشيء الوحيد الباقى ، بالطبيعة وبالتاريخ ، هو وجود الامة العربية ذاتها ، والحركة الحرة لهذا الوجود ، تأكيدا له ، وتحقيقا لاماله العريضة فى الحياة وفى السلام .

من هنا لاينبغى ان تكون هناك حدود لعملية النقد ، والنقد الذاتى ، لتجربة الوحدة الاولى ، فى هذه المرحلة الخطيرة من حياة الامة العربية ..

***

واسأل الان :

« لماذا لم تستطع القوة الجديدة التى جاءت بها الوحدة الى سوريا ، أن تباشر ما كان يمكن ان يكون لها من تأثير ، ولماذا ظلت معزولة ، ولماذا عزلت نفسها فى بعض الاحيان عن الفعل الايجابى ؟»

أو بمعنى آخر ..

« لماذا تحولت الوحدة الى عملية سلبية ؟ »

والرد هو :

بعض الاسباب شرحته من قبل فيما كان قائما فى دمشق من قبل الوحدة !! ..

شرحته حين رويت قصة الذين انساقوا فى تيار الوحدة من الحاكمين فى دمشق قبل فبرايرسنة ١٩٥٨ ، وحين رويت قصةالظروف المحيطة بسوريا فى ذلك الوقت .

الاحزاب المتصارعة ، كتل الجيش المتربصة ببعضها بعضا فى المعسكرات ، لدرجة أن قادتها كانوا يقضون الليالى فى الثكنات حتى يكونوا على اهبة الاستعداد لاى حركة يقوم بهاأحدهم ضد الاخرين، ثم الواجهات السياسية المدنية المتهالكة التى كانت تتولى امور الحكم بالاسم ، ولا تملك من أموره بالفعل شيئا .

هذا من ناحية ..

ومن ناحية أخرى ، ضغط حلف بغداد على سوريا ، وتسلل الشيوعيين الى مراكزها الحساسة الامر الذى خلق ـ بالاضافة الى الصراع الداخلى ـ ميزانا دقيقا للسلامة السورية كان عبد الحميد السراج يحاول الامساك به بقدر مايرى من وسائل العمل البوليسى حتى لاتسقط سوريا فى ظلام لايبدو مداه ..

ومن ناحية ثالثة ، اتجاه الجماهير السورية الى الوحدة مع مصر ، خلاصا من أحتمالات الظلام ، وتحقيقا للحلم القديم فى الوحدة وانجذابا الى شخصية البطل التى ظهرت فى مصر والتى أستطاع صاحبها فى فترة قصيرة من الزمان أن يطرد الاستعمار من مصر ، وأن

يرغم مشروعاته الرامية الى السيطرة على المنطقة عن طريق الاحلاف العسكرية على التقهقر ، وان يكسر احتكار السلاح ، وان يخلق كيانا دوليا مستقلا للعرب ، وان يؤمم قناة السويس ، وان ينتزع النصر تحت ظروف العدوان المسلح ،وان يحطم الحصار الاقتصادى والسياسى على وطنه ، ثم يبدأ فى التمهيد للثورة الاجتماعية ، بعد نجاح الثورة السياسية ، ويروح يتحدث عن الكفاية والعدل ، وعن التصنيع والاشتراكية .

وكان التيار الشعبى السورى ، الذى فرض الوحدة مع مصر ، وساق امامه كل الاحزاب السياسية فى سوريا ، وكل الكتل المتصارعة فى الجيش ، وكل الواجهات المدنية المتهالكة التى تجلس فى وقار على كراسى السلطة ، وهى مسلوبة من كل سلطة .

● وبعض الاسباب شرحته من قبل ، فيما كان قائما من حول دمشق ، من قبل الوحدة ، وحين اتمامها .

شرحته حين رويت موقف العواصم العربية القريبة التى تحكمها الرجعية ، المتعاونة مع الاستعمار بحكم ترابط المصالح بينهما على الاقل ..

شرحته حين تعرضت لشيكات الملك سعود التى دفعها لعبد الحميد السراج ليقوم بانقلاب ضد الوحدة ، ولكن السراج رفض .

وشرحته حين تعرضت لعملية تزييف الوحدة ، باقامة الاتحاد الهاشمى بين بغداد وعمان ، ببركات دول الاستعمار الغربى المؤيدة له والتى تولت نيابة عنه استئذان اسرائيل فى اقامته .

وشرحته حين تعرضت لنظرة اسرائيل الى قيام الوحدة ، التى اتخذت صورة كماشة ذات فكين تطبق على اسرائيل من شمال ومن جنوب .

وشرحته حين تعرضت للخطر الذى احست به دول الاستعمار الغربى صاحبة المصالح الحساسة فى المنطقة العربية وخوفها من ان يزيد المد العربى ثم يجرف امامه المصالح والاعوان الذين يقومون على صيانة هذه المصالح .

شرحت هذا كله ، شرحته بل عددت الشعارات التى انطلقت فى الهواء تصف الوحدة بانها « تسلط مصرى على سوريا » وبانها « ابتلاع مصرى لسوريا » وبانها « امبراطورية مصرية يحلم بها عبد الناصر » وبانها «حكم مصرى سوف يفرض على سوريا » .

ولكن يبقى ـ بعد هـــذا كله ـ الطــرف الثـالث فى معــركة الوحـــدة ..

يبقى ان أشرح دور القاهــرة !

***

ولقد كانت القاهرة هى الطاقة الثورية التى انطلق منها شــعاع الامل فى المنطقة فكيف تحولت هذه الطاقة الثورية هى الاخرى الى عامل سلبى فى تجربة الوحدة . ؟

ساحاول الان ان أعد الاســباب .

واقول قبل ان ابدا العد اننى لاادعى ان هــذه هى الاســباب كلها ، ولكنى أقــول :

ذلك ما رأيته منها ، فان كان بعضـــها قد غاب عنى ، فليس عن عمد او قصد غاب ، وانما قصور الرؤية وحده عـذرى ، قصــور الرؤية وسط الضــباب !

اولا ..

كانت الظروف نفسها غير مهيأة لتجربة الوحدة الاولى .

لم تكن هناك قواعد اقتصادية واجتماعية يمكن أن تقوم عليهـا التجربة ، وتستند فى صلابة الى أسسها المتينة .

هناك وحدة اللغة التى تخلق وحدة الفكر .

وهناك وحدة التاريخ التى تخلق وحدة الضمير .

ولكن وحدة العقل ووحدة الضمير مقدمات لعمليات اقتصــادية واجتماعية لابد منها قبل الاقدام على خلق الدولة الواحدة .

ولقد عبر جمال عبد الناصر بنفسه عن ذلك فى حديثه لقيــادة الجيش السورى ، حين جاءوه بالطلب الاول للوحدة حين قال لهم فى بيته ليلة ١٥ يناير ١٩٥٨ ، ان الوحدة تحتاج الى خمس سنوات عــلى الاقــل من التمهيد الاقتصادى والاجتماعى ليــكون لها الاســاس المتــين .

ثم أضطر عبد الناصر الى تغيير رأيه أمام احتمالات الخطر الــتى تهــدد سوريا من الداخل والخارج ، وأمام الضغط الشعبى السورى

وللتاريخ بعد ذلك ان يوازن ، والمستقبل وحده سـوف يحمل حكم التاريخ على ســؤال هام :

ــ هل الاهداف التى حققتها الوحدة فى عمرها القصير كانت تساوى الاقدام عليها قبل التمهيد الاساسى لهـا .. أم انه كان من الخير الانتظار .. مهما كان الخطر المرحلى .. ومهما كان ضغط الظروف .

● ولقــــد حققت الوحدة اسقاط حلف بغداد الاستعمارى .

● كذلك حققت الوحدة ضرب التسلل الشيوعى فى المنطقة .

● كذلك حققت الوحدة كشف العناصر الرجعية العربية ، واظهرت أمام العناصر التقدمية فيها أحتمالات العمل الواســـعة اذا مـــلكت القدرة الايجابية على تحمل مسئوليته .

ولكن تلك كلهـــا قضـــايا المستقبل ، وكلها لاتمنع من القـــول ، بأنه حين قامت الوحدة سنة ١٩٥٨ لم تكن الظروف مهيأة لمنحهـــا الايجابيـــة الكافيـــة .

ثانيـــا ..

لن القومية العربية سنة ١٩٥٨ ، فى بداية هذه السنة ، كـــانت تخوض حربا اشبه ماتكون بحرب العصابات ضد الخطوط الاستعمارية فى المنطقة وضد القواعد الاستعمارية على شكل معسكرات حربية ، او على شـــكل قصور رجعية .

كانت القومية العربية فى كل مكان كخيوط الضوء لايمكن الامساك بهـــا او تقطيعها وتمزيقها .

كانت القومية العربية كالشبح ، يظهر فى كل مكان ، ويختفى فى كل مكان ، وكانت ضرباته تبدد أمن القابعين فى المعســـكرات الحـــربية وتؤرق احلام الجالسين فى القصور اللاهية الغارقة الى ذقونهـــا فى الذهب واللــــذة !

وكان اتمام الوحـــدة يحمل عاملا جـــديدا طارئا عـــلى الموقف لاول مـــــرة ..

بقيام الوحدة اصبحت القومية العـــربية تحارب من خنــــادق ثابتة ، دفاعا عن خطوط محـــددة .

بقيام الوحدة تحولت خيوط الضوء الى منـــار قائم على قاعـــدة لا تتحرك ومن ثم أمكن ان يصبح المنار نفسه هدفا مكشوفا يســـهل توجيه الضرب اليـــه واطفاء النور المشع منه .

بقيام الوحدة أصبح الشبح الذى لايطال جسدا يمكن التصويب عليـــه ، والتركيز ، والمطاردة .

والسؤال بعـــد ذلك :

ـــ هل كان الوقت قد حان سنة ١٩٥٨ ، لكى تتخلى القومية العربية

عن مرونة حرب العصابات ، وحركتها السريعة ، وتربط نفسها فى الخنادق الثابتة ، ولتحدد خيوط ضوئها من منار ، ولتجسد وجودها المعنوى فى شكل كيان قائم من دم ولحم ؟

ثالثا ..

ان الشعب العربى فى مصر ، لم يكن بعد قد وصل الى مرحلة الاستعداد الكامل للوحدة العربية ..

كانت قرون الطغيان العثمانى قد باعدت مابين شعب مصر العربى غرب سيناء ، وما بين باقى الشعوب العربية شرقها .

ثم جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون ، والحسنة الوحيدة لها أن كسرت السور الحديدى العثمانى من حول مصر فعاد لها اتصالها بتيار الحضارة العالمى الذى كان يتمركز ذلك الوقت فى اوربا وحدها .

وتفتحت زهور كثيرة تحت اشعة الشمس الجديدة على السهول والروابى الخضر من وادى النيل .

بدأ الشعب ، صانع الحضارة القديمة ، وأستاذها الاول ، يفتح عيونه على فكر جديد ـ بعد النوم الطويل وبعد الظلام الكئيب .

وفى تلك الفترة الحرجة من اليقظة ، افشت الاثار المصرية اسرارها كلها ، وكشفت كنوز تاريخ عريق .

ولكن المجد الذى ظهر كانت له ضريبته على شعب مصر .

وكانت الضريبة ان مصر فى هذا الوقت الحافل بروعة اليقظة ، لم تستطع انتحول انظارها عما هو تحتاقدامها ، لتمد البصر عبر سيناء ، وتكتشف مكانها العربى .

وبذل المفكرون العرب الذين لجأوا الى مصر فى أواخر القرن الماضى هربا من الطغيان التركى ، جهودا كبيرة لبناء جسر عبر سيناء ..

واضافت تجارب السنين معانى صالحة للتامل وللتفكير .

ثم كان انشاء أسرائيل ، بواسطة قوى الاستعمار الغربى بقصد عزل مصر عن العالم العربى ، هو الدليل الحاسم على الحقيقة التى كان يراد لها أن لا تظهر ولا تبين !! .

ومن سوء الحظ خيانات الاسرة الهاشمية ، من بغداد وعمان

وطعناتها فى الظهر للجيش المصرى المقاتل فى فلسطين احدثت هــزة فى ايمان مصر العربى الجديد .

ولكن المعارك الناجحة التى خاضتها مصر والشعوب العربية كلها بعد ثورة ١٩٥٢ استطاعت ان تعيد للايمان العــربى فى مصر ثباته واستقراره الوطيد .

المعارك ضد الاحلاف ، والمعارك ضد احتكار السلاح ، والمعــارك ضد التبعية الدولية ، والمعارك ضد العدوان المسلح على مصر ، والمعارك ضد الحصــار الاقتصادى والسياسى ، والمعارك ضد الوان الحــرب النفسية ، وترساناتها المكدسة بالاكاذيب والمفتريات . !!

ولكن هل كان ايمان مصر العربى ، قد وصل سنة ١٩٥٨ الى حد الاستعداد للوحــدة الشــاملة .

كانت فورة العاطفة واضحة سنة ١٩٥٨ ، ولقد أظهرت نفســها فى نتيجة الاستفتاء الشعبى على الوحدة ، ولكن فورة العاطفة لم تستطع حتى وقتها أن تمنع مئات فى تلك الفتــرة أن يكتبــوا الى يسألون :

ـ هل حقا ستصبح « مصر » بكل مجدها هى الاقليم الجنــوبى من الجمهورية العربية المتحــدة .

ـ هل يمكن ان نتخلى عن العلم الاخضر والهلال والنجوم الثلاث فى وسطه وقد خضنا تحت هذا العلم كل معركتنا من اجل الاستقلال ؟

واسئلة اخرى كثيرة ، قريبة من هذا الاتجاه ، والذين لم يكتبــوا الى بالطبع كانوا أكثر عددا من الذين كتبوا !

رابعــــا ..

كان هناك اختلاف واضح فى مراحل التطور الاجتماعى فى كل مــن مصر وســوريا فى ذلك الوقت من سنة ١٩٥٨ .

كانت مصر قد انتهت من مرحلة الثورة السياسية ضد الاستعمار الاجنبى ، ووصلت الى اعتاب الثورة الاجتماعية ووقفت بعــد المعــركة السياسية الضارية تتحسس طريقها الى التغيير الثورى فى العــلاقات الاقتصادية السائدة فى الوطن .

وكانت أبعاد الثورة الاجتماعية واضحة فى مصر ، فان الطبقــة الراسمالية العليا كانت قد كشفت نفسها بالتعاون الظاهر مع الاستعمار ضد محاولات الشعب ان يحرر لقمة العيش فى بلده .

وكان تحرير الوطن من الاستعمار مقدمة لتحريره من الاســتغلال الذى عزز مواقعه فى حماية الاستعمار .

وكانت قوة الاندفاع الثورى بعد معارك التحرير المتوالية ضد الاستعمار ، معبأة متحفزة .

وكان الموقف فى سوريا يختلف ..

لم تكن سوريا فى حالة تعبئة ثورية ، وانما كانت بعد الاستقلال قد دخلت فى تيه المناورات الحزبية والانقلابات العسكرية .

ولم تكن حدود تعاون الراسمالية السورية مع قوى الاستعمار فى المنطقة واضحة كل الوضوح ، وفى الغالب كان تعاون الراسمالية السورية مع الاستعمار يجرى بالوساطة ، كان يمر بقصور الملوك فى بغداد وعمان والرياض ، وكانت هذه القصور هى همزة الوصل ، وهى الصلة بين اصحاب المصالح فى سوريا وبين أصحاب المصالح الاستعمارية فى المنطقة كلها .

ولقد كشفت وثائق حلف بغداد السرية بعض ساسة سورية فى تعاملهم مع الاستعمار عن طريق قصر الزهور ..

وكشفت ظروف سقوط كميل شمعون فى لبنان بعضا آخر من ساسة سورية فى علاقتهم ببريطانيا .

وكشفت شيكات الملك سعود لعبد الحميد السراج يوم الوحدة الاول ، وكشفت ملايينه التى لم تدفع بشيكات هذه المرة ، وانما وصلت الى سوريا عن طريق الملك حسين نقدا سائلا جاهزا للبيع والشراء — ان هناك خطة واسعة تستهدف ضرب قوى التحرر الوطنى العربى ، ولا يمكن ان يكون هذا الضرب لمصلحة غير مصلحة الاستعمار ..

المهم أنه فى سنة ١٩٥٨ .

كانت مصر قد وصلت الى مرحلة التاهب للثورة الاجتماعية .

اما فى سوريا فقد كانت هناك ظلال تنزل على الحقيقة .

ولم يكن معقولا ان تكون هناك جمهورية واحدة ، تتحرك الثورة الاجتماعية فى أحد اقليميها ، ويسود الجمود الاجتماعى فى اقليمها الثانى ..

وكانت هناك تهدئة متعمدة للانطلاق الثورى الاجتماعى فى مصر .. انتظارا لدراسة واضحة لاحوال الاقليم السورى وأوضاعه

وكان هذا التفاوت بين الاقليمين يخلق شدا وجذبا فى تيارات التطوير الاجتماعى داخل الجمهورية الواحدة .

ومن هنا ، فلقد حدث من أول يوم للوحدة ، أن الراسمالية السورية — التى رحبت بالوحدة ، وفى تصورها أن الوحدة سوف

تجيئها على أى حال بحكومة قوية ، تصد خطر الشيوعيين الزاحف على دمشق ـ بدات على الفور ترفع الشعارات القائلة بان اوضاع سوريا تختلف .. وان سوريا بلد يعيش على التجارة .. وان مايصلح لمصر لايصلح لسوريا !

كانت الرأسمالية السورية فى ذلك الوقت يتجاذبها عاملان ..

أولهما ما توفره الوحدة من قيام حكومة قوية قد تكون قادرة على حماية المصالح القائمة .

وثانيهما تخوفها من التيارات الثورية البادية فى القاهرة .. مهما لاح من هدوئها الظاهرى بعد الوحدة . !

خامسا ..

لم تكن القاهرة ـ عاصمة الجمهورية التى جمعت مصر وسوريا ـ تعرف من حقائق الامور فى سوريا مايكفل لها حكما حاسما على الموقف ..

بل ان دمشق نفسها لم تكن فيها صورة حقيقية لاحوال الوطن السورى وأوضاعه بالارقام .

وفى غيبة الصورة الحقيقية ، فان القوة الجديدة التى جاءت بها الوحدة الى سوريا ، وجدت نفسها فى موقف المتفرج فى دمشق .. او على الاصح فى موقف المنتظر .

وكانت القوة الجديدة تنتظر الارقام . ولم تكن الارقام جاهزة ، بل وكانت المصالح المتحكمة تحبس على الارقام لكى لا تظهر ، ولكى لا تفرض هذه الارقام ـ بعد ظهورها ـ نفسها ومنطقها على اتجاهات الحوادث .

وضاع فى الانتظار وقت طويل .

سادسا ..

كان الفاصل الجغرافى بين الاقليمين عقبة حقيقية .

طريق البر عليه اسرائيل ..

وطريق الجو ـ مهما كان ـ محدود

والبحر هو الصلة الوحيدة .

سابعا ..

تأثرت القاهرة الى حد كبير ـ وهذا من اخطائها الكبرى ـ بدعاية الاستعمار واعوانه ، أو بمعنى ادق أصبحت حساسة من ناحية رغبتها فى الا تفتح طريقا للدعاية الاستعمارية .

وكان هنــاك عامل طبيعى يضاف الى هذه الحساسية

ان ســـكان مصر ٢٦ مليونا من البشر .

وسكان ســوريا ٤ ملايين من البشر .

ومعنى ذلك أن الترجيح دائما ســوف يكون فى يد مصر باعتبار الاغلبية المطلقة ، ولم يكن تيار الوحدة قد استطاع بعد أن يتغلب عـلى النعرات الوطنية الاقليمية ، بعضها سوء النية كامن فيه ، وبعضهاالاخر نابع عن طيبة وعن عاطفة خالصة وانما ساذجة ..

وبتأثير العاملين .. الدعاية والعامل الطبيعى .. اصبحت القوة الجـديدة التى جاءت بها الوحــدة الى دمشــق لاتمارس ســلطة حقيقيــة .

اذا حكمت .. فان الخيــط رفيع بين الحـكم وبين تصويره على انه « تحــكم » .

اذا قررت .. فان الخيط رفيع بين القرار وبين « التســلط »

اذا تحركت . .. فان الخيط رفيع بين الحــركة وبين « الابتلاع»

ثامنــا ..

بتأثير عدد من هذه العوامل التى شرحتها تاخرت عملية الوحـــدة الحقيقية ولم يبق هناك الا شكل الوحدة الخارجى ...

رئيس واحد ، وعلم واحد ، ونشيد واحد .

ولكن فيما عدا ذلك كل شىء يختلف بين الاقليمين .

وساعد على بقاء هذا الوضع طويلا ، معظم الساسة السوريين ، ممن انساقوا مع تيار الوحدة الذى الحت الجماهير فى طلبه .

كانوا جميعا يريدون .. ان تبقى مصر فى مصر ، وأن تبقى ســوريا فى ســوريا ..

وكان ظهور قوى جديدة نتيجة للوحدة ، يتعارض مع نظـــرتهم للامور من أول يوم فى التجربة ، فان اى قوة جــديدة كانت « اخــذا » منهم « واضعافا » لهم .

هكذا تحت علم الوحدة مضت نفس الاوضاع القديمة التى كانت فى سوريا من قبلها .

بل أكثر من ذلك استغل معنى الوحدة ذاته فى الصراع العنيـــف داخـــل ســوريا ..

كان كل واحد من ساسة سوريا يريد انتهاز الوحدة فرصة يتخلص بها من خصومه ، ويضرب بها اعداءه .

كان حزب البعث يريد أن يجهز على حزب الشعب . . ويذبح ذبحا كل اقطابه وكل انصاره ويعتبرهم على حد تعبير رئيسه أكرم الحوراني « جواسيس وخونة »

وكان السيد شكرى القوتلي يكره خالد العظم كراهية التحريم، ويتمنى لو انشقت الارض فابتلعت اكرم الحوراني ، ويحلم برصاصة من اى اتجاه تصيب عبد الحميد السراج ، فان العظم نافسه على رياسة الجمهورية ، والحوراني تآمر عليه – كذلك يقول – والسراج لم يترك له من السلطة الا مقعدا من الحرير مطرزا بالقصب فى قصر المهاجرين !!

وكان حزب الشعب يعتبر حزب البعث مسئولا عن كل خطأ ، وشريكا فى كل انقلاب ، ومدبرا لكل جريمة .

وكان حزب البعث فى نفس الوقت يكره عبد الحميد السراج ويركز عليه حملة من الكراهية المريرة .

وتلك نماذج .. مجرد نماذج .. والصورة بالتفصيل حكايتها طويلة ..

ولكن المهم ان قوى الوحدة وجدت نفسها فى سوريا بعد اتمام الوحدة ، وسط معركة واسعة المدى ، ضاربة الجذور فى تاريخ سوريا الحديث ، بعيدة الاثر على مستقبلها الذى كان لابد له ان يتشكل على اساس جديد ، معركة لا يظهر أولها ولا يظهر آخرها .

وكان الفارق مخيفا بين الاثر الذى احدثته الوحدة كتيار شعبى عربى فى الاحداث الكبيرة كابراز قوة اندفاع القومية العربية ،واسقاط حلف بغداد وضرب التسلل الشيوعى فى المنطقة – وبين المشاكل الصغيرة التى واجهتها الوحدة داخل سوريا .. مشاكل صغيرة ولكنها عرقلت حركة الشعب العملاق ، لولا ان استطاع فى الدقائق الاخيرة أن يخلص نفسه ، وأن يفجر قوانين يوليو الاشتراكية ، ايذانا بأن عهد الثورة الاجتماعية قد بدا .. فى مصر وفى سوريا معا وفى الامة العربية بأسرها ..

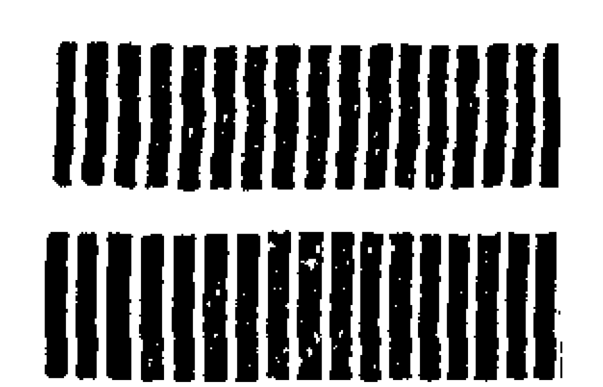
ولكن تجربة المشاكل الصغيرة فى سوريا فى عهد الوحدة تقتضى وقفة اطول قبل أن نمضى الى المرحلة التى نعيشها الان والتى تبدو من خلالها ملامح المستقبل .

٦

المشاكل الصغيرة فى تجربة الوحدة وكيف عطلت زحف الشعب العملاق ؟

الحملة النفسية العنيفة التى قصدت إلى تحطيم قوائم تجربة الوحدة

صبرى العسلى



واليوم وقفة سريعة ، أمام تجربة المشاكل الصغيرة فى بسوريا بعد الوحدة ..

كانت مشاكل صغيرة ، ولكن الشرارة قادرة على اشعال حريق .

ولقد قلت فى ختام حديثى السابق :

«ان قوى الوحدة وجدت نفسها فى سوريا بعد اتمام الوحدة ، وسط معركة واسعة المدى ، ضاربة الجذور فى تاريخ سوريا الحديث بعيدة الاثر على مستقبلها ، الذى كان لا بد له أن يتشكل على أساس جديد .. معركة لا يظهر أولها ولا يظهر آخرها .

وكان الفارق مخيفا بين الاثر الذى أحدثته الوحدة كتيار شعبى عربى ، فى الاحداث الكبيرة ، كابراز قوة اندفاع القومية العربية ، واسقاط حلف بغداد ، وضرب التسلل الشيوعى فى المنطقة — وبين المشاكل الصغيرة التى واجهتها الوحدة داخل سوريا ..مشاكل صغيرة ولكنها عرقلت حركة الشعب العملاق ، لولا أن استطاع فى الدقائق الاخيرة ، أن يفجر قوانين يوليو الاشتراكية ، ايذانا بأن عهد الثورة الاجتماعية قد بدأ فى مصر وفى سوريا معا ، وفى الامة العربية بأسرها»

وقبل أن أدخل فى تجربة المشاكل الصغيرة التى سببتها الاحقاد بين ساسة سوريا القدامى قبل الوحدة ، ثم أثر هذه المشاكل على سير الحوادث خلال سنوات الوحدة ذاتها ، فانى أريد أن أستأذن فى ملاحظة عابرة ، يقتضينى واجب الانصاف ان أقولها .

***

لقد تعرض الذين تصدروا تيار الوحدة تحت ضغط الجماهير السورية المؤمنة عند القاعدة لحملة عنيفة مركزة ومدروسة على أحدث نظريات الحرب النفسية .

كان هدف الحملة هو تدميرهم ..

وكان فى منطق الاستعمار والقوى الرجعية التى تسنده ليسندها فى البلاد العربية ، انه اذا تم تدميرهم فان ذلك يعنى تدمير القوائم التى تقف عليها تجربة الوحدة ، واذا ما تحطمت القوائم سقطت التجربة .

واستغلت الحملة العنيفة المركزة المدروسة على أحدث نظريات الحرب النفسية كل الظروف المعقدة داخل سوريا ، وكل الظروف المعقدة من حول سوريا .

كانت الحملة تختار هدفها ..

تختار واحدا من ساسة سوريا .. وتركز على نقطة ضعف فيه ثم يشتد تركيزها ويتحول الى اصرار عنيد .

ثم تستطيع أن تجذب معها كثيرين يشتركون معها فى الحملة ربما فيهم من ينجذب عن غير وعى وعن غير قصد ... أو عن غير نظرة بعيدة لعواقب الامور ، وربما فيهم من كان ينجذب لشهوة التدمير فيه أو ليخلص من خصم قديم .

مثل هذا تعرض له صبرى العسلى ، وعفيف البزرى ، ووزراء حزب البعث ، ثم أخيرا عبد الحميد السراج .

كانت الحملة تمسك بتلابيب أحدهم ..

تمسك به من نقطة ضعف فيه ..

وتدق وتدق ، وتظل تدق ، وتجر كثيرين الى مشاركتها فى الدق، حتى يتحقق هدف الحملة .

ولم يتردد واحد من ساسة سوريا وقت الوحدة عن الاشتراك فى كل حملة وجهت الى غيره بقصد هدمه وتدميره .

واقول انصافا للتاريخ وللحقيقة ــ ان القاهرة هى الاخرى لم تستطع أن ترى صورة العملية بوضوح ، وفى بعض الاحيان مشت الى الفخ المنصوب وكأن على عينيها حجابا ، يجعلها لا ترى موقع خطاها وسط الزحام والظلام .

وهكذا بدأ الذين تصدروا موكب الوحدة ، يختفون من صدر الموكب واحدا بعد واحد .

وبصرف النظر عن الظروف الموضوعية التى أحاطت بهم ، فلقدكان اختفاؤهم يساعد خطة الاستعمار وحملاته العنيفة المركزة المدروسة على أحدث نظريات الحرب النفسية .

هذه هى الملاحظة العابرة .

وبعدها ، أستطيع أن انتقل الى تجربة المشـــاكل الصغيرة وقت الوحدة ..

***

وكانت المشاكل الصغيرة ، نوعين :

نوعا يتعلق بالسياسة العامة ..

ونوعا يتعلق بالبشر وبالناس .

ولست أريد أن أتلكأ طويلا عند المشاكل الصغيرة المتعلقة بالسياسة العامة ، فان الكثير منها تعرضت له فيما سبق من مقالات عن الـــذى جرى فى سوريا .

ولكنى أشير هنا اشارة سريعة الى بعضها .

● **مثلا مشكلة التصنيع وفقا لخطة محددة**

كانت مصر كما قلت فى بداية سنة ١٩٥٨ منهمكة فى تنفيذ مشروع السنوات الخمس الاول للصناعة .

وكانت سوريا غير مستعدة بعد لمرحلة التصنيع ، على الاقل بسبب نقص الدراسات العملية والعلمية .

وبدأت النغمة تتردد :

ــ ان القاهرة تريد أن تبقى سوريا بلدا زراعيـــا ليكون سوقا لمنتجاتها الصناعية لا أكثر ولا أقل .

وبدأت القاهرة الحساسة فى ذلك الوقت تتحرك فى اتجاه تصـنيع سوريا .

ولكن التصنيع كما يحدث فى كل بلد خصوصا عند بناء القـــاعدة الاولى فيه يحتاج الى قيود ويفرض شروطا تقسو فى بعض الاحيان ، ولكن النتائج تبرر فى النهاية قسوتها .

التصنيع فى حاجة الى استثمارات .

التصنيع فى حاجة الى توفير كل نقد أجنبى يصرف على الســـلع الاستهلاكية ويحتم تحويله الى شراء الآلات والمعدات .

والتصنيع خصوصا فى بدايته يحدث اختناقا ملحوظا فى السوق فان أموالا كثيرة تصب فى ميدانه ، ثم تمضى سنوات ثلاث أو أربع قبـــل أن يتم بناء المشروعات المختلفة وقبل أن يبدأ انتاجها .

وفى مصر مثلا فى وقت من الاوقات كانت هناك ثلاثة مشروعات فقط ، تجمد فيها لمدة معينة ما يقرب من مائة مليون جنيه .

وهى كهربة خزان أسوان ، ومشروع السماد فيها ، ومصنع الحديد والصلب .

ثلاثة مشروعات فقط تجمدت فيها مائة مليون جنيه وكان لا بد أن ننتظر سنوات طويلة قبل أن نحصل على عائد منها .

وكان لابد أن يحدث مثل ذلك فى سوريا .

ولكن عملية التصنيع ما كادت تبدأ حتى بدأت النغمة تتردد :

ـ ان سوريا تعيش على التجارة .. ولا تقبل هذه القيود المفروضة على الاستيراد وعلى النقد .

وتحولت المشكلة ... لم تعد تصنيع سوريا أو عدم تصنيعها ، وانما أصبحت مسألة حرية التجارة .. اطلاقها أو تقييدها .

• ومثلا مشكلة المصريين فى سوريا

وكان فى مصر بحكم الظروف أكبر عدد من الفنيين يمكن توافره فى أى بلد عربى .

وصناعة البترول مثلا ، فى كل مراحلها الآن فى مصر ، مصرية ،وكانت سوريا فى حاجة الى خبراء فى البترول ، وذهب عدد من المصريين كانت مصر فى حاجة اليهم ليعملوا طواعية فى حقول البترول فى كراتشوك .

وذهب عدد من المصريين ليعملوا فى التخطيط .

وذهب عدد من المصريين ليعملوا فى المستشفيات والعيادات النائية البعيدة فى القامشلى ودير الزور والحسكة .

وبدأت النغمة تتردد :

ـ آه .. تريد القاهرة تحويل سوريا الى مجال للعاطلين فيها ... للذين لا مجال لهم فى مصر .

ولم يكن ذلك صحيحا ولقد أثبتت الحوادث فيما بعد خصوصا بعد الانفصال أن المصريين الذين ذهبوا الى سوريا كانوا فى الغالب من ثلاث فئات :

مهندسين ، وأطباء ، ومعلمين

ولم يكن هؤلاء عاطلين فى بلدهم .. بل كانت معركة التطوير فى حاجة الى كل واحد منهم .

ولم يرض أحد فى القاهرة أن يفتح فمه ويتكلم ، حتى لا تكون المسألة معايرة بين أقليمى الجمهورية فى ذلك الوقت .

وما كان أسهل الكلام والرد وقتها .

كل مصرى ذهب الى سوريا كان يعمل فى مجال فنى .. وكانت مصر تدفع مرتبه ، وكانت سوريا لا تتحمل غير بدل السفر .

والى مصر جاء كثيرون من سوريا وامتلأ بهم قلب العاصمة وكانوا جميعا من التجار الذين جاءوا للربح وللكسب ، وكنا ما نزال نفتح لهم قلوبنا وجيوبنا .

• ومثلا مشكلة الضباط المصريين فى سوريا

كانت الصيحة وقتها ان اسرائيل تريد ان تحول مجرى نهرالاردن ، والمعركة الكبرى ستدور هناك فى المنطقة الحرام ما بين سوريا واسرائيل.

ثم كان يقال أن المعركة قد تصبح بالغة الخطورة خصوصا وأن دمشق على بعد ٦٠ كيلو مترا من الخطوط مع اسرائيل .

واذن لا بد من تعزيز القوة العسكرية للجيش الاول ... الجيش السورى .

وكان الجيش السورى ، بعد انقلابات تكررت ، وبعد اشتغال بالسياسة طال مداه ، قد فقد عددا من عناصره العسكرية ، وكان من الضرورى تعزيزه بعناصر من الجيش الثانى .. الجيش المصرى ، حتى يستطيع مواجهة مسئوليته .

وبدأت النغمة تتردد :

ــ ان سوريا تحت حكم العسكرية المصرية .

وفى ذلك الوقت ، وبرغم عدم الحاجة الى ذلك ، فلقد رؤى ان تجىء الى مصر عناصر من الجيش الاول لكى لا تكون هناك حساسية .

ولكن ذلك فتح المجال لنغمة جديدة .

ــ انهم يريدون ابعاد الضباط السوريين عن سوريا ليخلو المجال للضباط المصريين .

ومن حسن الحظ ــ برغم ما فى ذلك من مفارقة مؤلمة ــ ان وقوع الانقلاب العسكرى ضد الوحدة كان خير رد على هذه النغمة كلها .

لقد أثبت وقوع الانقلاب ان معظم عناصر الجيش السورى بقيت فى وطنها .

وان العناصر العسكرية المصرية التى ذهبت الى سوريا لتخدم ،لم تجلس فى المراكز الممتازة كما كانوا يدعون ؛ وانما على خط النار وقفوا وجههم للعدو وظهرهم لدمشق ، حتى فوجئوا بالطعنة من الخلف .

ثم بدات معاملتهم بعد ذلك فى سوريا بعد الانقلاب بطريقة يبدو وكان المقصود منهـا هو تحطيم ايمانهم بوحدة السلاح العربى فى وجـــه عدو العرب .

• ومثلا مشكلة المسئولين المصريين فى دمشق

وآخذ محمود رياض كنموذج ومثل :

كان محمود رياض سفيرا لمصر قبل الوحدة فى سوريا ، وبعـــد الوحدة بقى فترة فى دمشق بحكم متابعته للاوضاع واطلاعه القريب على تطوراتها .

وبدات النغمة تتردد :

ـ لقد اصبح محمود رياض هو المندوب السامى المصرى فى سوريا.

ولكى لا يبقى المجال مفتوحا لقيل وقال صدرت الاوامر الى محمود رياض كى يعود الى القاهرة .

بل ووصل الامر الى حد انه حين ذهب المشير عبد الحكيم عـامر مزودا بكل سلطات رئيس الجمهورية الى دمشق ليحل بعض المشاكل العاجلة فى سوريا بروح محايدة بعيدة عن الصراع الحزبى العنيف الذى كان يمزق الوطن السورى ، حين حدث هذا ، بدات النغمة تتردد :

ـ لقد جاء «نائب الملك» .

وكانت الاشارة واضحة والايحاء ظاهرا .. كانوا يريدون القـول بأن مهمة عبد الحكيم عامر فى دمشق مماثلة لمهمة نائب الملك فى الهنـد وقت الاحتلال البريطانى لها .

ولم تكن اذاعات الاستعمار ، وأعوانه من الرجعيين العرب، واذاعات اسرائيل والاذاعات السرية هى وحدها التى تردد هذه النغمات وانمـا كان يشترك فى ترديدها ـ مع الاسف وألاسى ـ عدد كبير من ســـاسة سوريا أبطال المشاكل الصغيرة .. التى عرقلت زحف الشعب العملاق الى غـايته .

***

ولقد وصلت الآن الى نوع المشاكل المتعلقة بالبشر وبالناس .

وكانت أول مشكلة ظاهرة فى هذا النوع هى مشكلة السيد صبرى

العسلى ، الذى كان رئيسا للوزارة قبل الوحدة ، وأصبح نائبا لرئيس الجمهورية بعدها .

بدأ التركيز ... على صبرى العسلى منذ الشهر الاول للوحدة .

بدات الاشاعات تجرى منذ اليوم الاول بأن السيد صبرى العسلى ما زال يملك النصف فى مكتب المحاماة الذى كان يعمل فيه قبل رياسته للوزارة وبعد رياسته للوزارة .

ان شريكه فى المكتب وهو السيد ظافر القاسمى ، يعمل باسمه وبنفوذه ..

يفتح الابواب المغلقة ، ويقضى الحاجات ، ويحقق عن هذا الطريق أكبر الارباح ثم يتقاسمها مع شريكه السابق صبرى العسلى .

ثم بدات الاشاعات تجرى بأن السيد صبرى العسلى يعبر الحدود كل ليلة الى شتورة أول المصايف اللبنانية بعد الحدود لسورية وهناك يسهر فى كازينو سعد المشهور ويقضى الليل كله مع بعض أصدقائه من اللبنانيين ، يحتسى العرقى ويلعب الورق ، ويتكلم ضد تجربة الوحدة التى فرضت فرضا عليه ، كذلك كان يقول ، أو للانصاف كذلك كان يقال أنه يقول !!

وكان هذا كله مما يمكن التجاوز عنه والسكوت .

حتى كانت محاكمات بغداد الشهيرة ، فى اعقاب ثورة ١٤ يوليو ، وتكشفت الوثائق السرية من ملفات حلف بغداد ، واذا بين ما يقال فى المحاكمات فى العراق ان السيد صبرى العسلى قبض من الحكومة العراقية ١٥ الف دينار سنة ١٩٥٤ .

ونشرت الصحف العربية كلها ، بين ما نشرته خلال متابعتها للمحاكمة هذه الحقيقة واصبح الوضع محرجا بالنسبة للسيد صبرى العسلى .

ويومها ذهب السيد صبرى العسلى فقابل الرئيس جمال عبد الناصر يرجوه فى اعفائه وفى تاليف لجنة تحقيق .

وفى الحديث بينهما قال السيد صبرى العسلى لرئيس الجمهورية

ــ هل تذكر سيادتك اننى كنت أشرت أمامك مرة الى اننى أخذت من العراق مثل هذا المبلغ أثناء المعركة ضد أديب الشيشكلى وضد حكمه !

وقال الرئيس جمال عبد الناصر :

ــ اذكر انك اشرت الى مثل هذا الامر مرة .

وقال السيد صبرى العسلى بعد تردد :

ـ سيادة الرئيس ، هل تسمحون لى أن أصدر بيانا أستشهد فيه بكم ، واقول انني أطلعتكم على هذا الامر من قبل اذاعته فى محاكمات بغداد ؟

وقال جمال عبد الناصر :

ـ تستطيع ان تفعل ذلك ، فاني لااقبل ان اكتم شهادتي .

وقال السيد صبرى العسلى والدموع تفر من عينيه :

ـ سيادة الرئيس ، لقد ذهبت الى شكرى القوتلى أرجوه أن يأذن لى أن أستشهد به فى بيان أوضح به موقفى ولكنه رفض وقال لى : أبعدنى عن هذا الامر .

ومع ذلك تقبل أنت ، وأنت رئيس الجمهورية ، وأنت الشاب الذى ما زال له المستقبل أن أستشهد بك ؟

وخرج صبرى العسلى من بيت جمال عبد الناصر وهو لا يرى الطريق أمامه من دموعه التى تملا عينيه ، ألما وتاثرا فى نفس الوقت !

ثم اذاع بيانا يوضح فيه موقفه ، ويومها ، يوم ١٧اكتوبر سنة ١٩٥٨، كتبت بنفسي فى الصفحة الاولى من الاهرام مقدمة خبر استقالة السيد صبرى العسلى كما يلى بالنص :

«تقدم السيد صبرى العسلى الى السيد رئيس الجمهورية يطلب اعفاءه من منصبه كأحد نواب رئيس الجمهورية حتى تنتهى اللجنة التى شكلت لدراسة وثائق محاكمات حلف بغداد من مهمتها .

وقد أذاع السيد صبرى العسلى ـ باذن رئيس الجمهورية ـ بيانا شرح فيه حقيقة موقفه مما تكشف اثناء محاكمات حلف بغداد .

وقال السيد صبرى العسلى ان بعض الصحف شوهت موقفه ،ثم شرح ظروف صلاته ببعض ساسة العراق .

واستشهد السيد صبرى العسلى فى بيانه بالرئيس جمال عبد الناصر وكان ذلك أيضا باذن خاص من الرئيس ، وفيما يلى بيان السيد صبرى العسلى» :

ثم نشر الاهرام يومها نص البيان الكامل وأول كلمة فيه : «ان الله يدافع عن الذين آمنوا .. ان الله لايحب كل خوان كفور »

ثم روى السيد صبرى العسلى ظروف الخمسة عشر الف دينار التى قبضها من حكومة العراق سنة ١٩٥٤ وشرح أنها كانت «من قبيل نجدة الشقيق للشقيق » فى ظروف مقاومة حكم اديب الشيشكلى وتدبير الثورة ضده .

ومضت الايام حتى كان يوم الانفصال ، ومن عجب ان السيد صبرى العسلى كان أحد الساسة الذين وقعوا على البيان المؤيد له ، وكان أسبق من غيره فى الهجوم على الوحدة وعلى عهدها وعلى حكمها .

ولا يهمنى هنا أن أذكر السيد صبرى العسلى بالآية الشريفة التى بدأ بها بيانه يوم ٧ أكتوبر ١٩٥٨ « ان الله لايحب كل خوان كفور » .

لا أريد أن أذكره لانى أعرف عذره .

فان صبرى العسلى كان محاميا لدى عدد كبير من المصارف فى سوريا ، فلما تم تأميم المصارف بمقتضى قوانين يوليو الاشتراكية واضيرت مصالحه تبعا لذلك ، تأثرت بالطبع ذاكرته فى حفظها لآيات القرآن الكريم

وهذه قصة من القصص الاولى للمشاكل الصغيرة التى واجهتها قوى الوحدة فى دمشق .

***

وقصة ثانية ، هى قصة عفيف البزرى .

وكان عفيف البزرى رئيس الاركان فى الجيش السورى قبل الوحدة ، وكان قائد الجيش الاول بعد الوحدة .

وكان عفيف البزرى فى شبابه شيوعيا ليس فى ذلك شك .

كان الحزب الشيوعى فى فرنسا قد اتصل به حين كان عفيف البزرى يدرس فى باريس قبل سنوات طويلة .

وكانت المشكلة فيما يتعلق به بعد الوحدة تتلخص فيما يلى :

أولا ــ لقد كان بين الذين تصدروا تيار الوحدة فى فبراير وصحيح أنه كان مدفوعا فى الحاحه بطلب الوحدة أول الامر ، بفكرة أن مصر لن تقبلها فورية ، ومن ثم فهى مناورة من جانبه ، تكشف تردد مصر من ناحية ، ومن ناحية أخرى قد ــ أقول قد واضع تحتها خطا ــ تدعم موقف الحزب الشيوعى بقيادة خالد بكداش فى تشديد قبضته على سوريا ، خصوصا اذا تعذر ايجاد طريق للخلاص من ضغط حلف بغداد الذى كان يوشك وقتها أن يحطم سوريا .

ثانيا ــ كان هناك تساؤل فيما يتعلق بعفيف البزرى .

هل بقى على ولائه القديم للحزب الشيوعى ؟

أم أن ظروف النضال الوطنى زادته قربا من وطنه ومن احتياجات هذا الوطن ؟

وفى ظروف الحساسية فى الفترة الاولى للوحدة ، وتحت دافع لرغبة فى ابقاء الواجهة سليمة دون تصدع ، أعطى عفيف البزرة فائدة الشك ، أى فسر الشك لصالحه الا اذا قام الدليل القاطع يدينه بالعكس ، ويؤكد الاتهام ضده .

وكان من أولى المهام التى بوشر العمل فيها بعد الوحدة ، ضرورة تصفية الكتل السياسية فى الجيش السورى ، لكى يستعيد هذا الجيش قدرته كوحدة محاربة قادرة على اداء مهمتها الاساسية وهى القتال .

وكانت هناك مجموعة من الضباط الشيوعيين ، يحيطون بعفيف البزرى .

يومها لم تكن المعركة مع الشيوعيين قد خرجت سافرة برغم موقف خالد بكداش المعادى للوحدة منذ لحظتها الاولى .

وفجأة اصدر عفيف البزرى حركة تنقلات فى الجيش السورى ، وضع بها مجموعة الضباط الشيوعيين من أصدقائه فى كل المراكز الحساسة فى الجيش الاول .

وكان هذا تصرف يثير الغرابة ويثير الريبة فى نفس الوقت .

وكان لابد من مواجهته صراحة فصدر قرار من القاهرة بوقف هذه التنقلات .

وركب عفيف البزرى طائرة الى القاهرة يعارض فى قرار وقف حركة التنقلات .

وقيل لعفيف البزرى :

— اسمع .. بصراحة .. هؤلاء الضباط على صلة بالحزب الشيوعى .

وقال عفيف :

— لا اسمح باى تغيير فيما قررته مهما كان السبب . !

وخبط عفيف البزرى بيده على مائدة فى غرفة الاجتماعات بالقيادة العامة للقوات المسلحة للجمهورية العربية المتحدة وقال :

— اذا لم تنفذ الحركة كما وضعتها فانى أستقيل .

وهب واقفا ، لم يترك لاحد فرصة مناقشته وغادر قاعة الاجتماع الى فندق شبرد .

وكانت تلك غلطة عفيف البزرى الكبرى

انه لم يستطع أن يتصور أن الظروف تغيرت .

انه لم يعد قائد جيش مع حكومة ضعيفة متهالكة كتلك الحكومات التى تعود أن يصدر اليها الاوامر مصحوبة بالانذارات فى دمشق قبل الوحدة – فتهرول الى الركوع ! .

لقد تغير الوضع بعد الوحدة .

أن الجيش فى المفهوم الجديد يجب أن يصبح أداة قتال لا أداة سياسة .

يجب أن يصبح درعا للنضال الوطنى وليس حزبا غارقا بسلاحه فى الصراع الحزبى .

وكان لا بد من درس واضح يضع الامور فى مكانها الصحيح مهما كانت قسوة الدرس وشدته .

وتقرر قبول استقالته وجرت المحاولة لابلاغه بالقرار ولكن احدا لم يستطع الوصول اليه قبل الصباح .

وهكذا قرأ عفيف البزرى فى الصباح ، مع غيره من الاف القراء خبرا يقول :

«صدر قرار بقبول استقالة الفريق عفيف البزرى قائد الجيش الاول» ..

وفوجىء عفيف البزرى .. وفوجىء الناس .

ولكن الحسم كان لازما .

***

ومع ذلك ، وبرغم كل ما حدث ، كانت هناك الرغبة فى الابقاء على عفيف البزرى .

هكذا فى اليوم التالى دعى الى مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر

وقال له جمال عبد الناصر :

«ان الجيش الوطنى فى مفهومى له مهمة معروفة .

ان الجيش لا يمكن أن يصبح أداة سياسية ، ولا حزبا بين الاحزاب .

ان الامة تدفع من تضحياتها لجيشها لكى يكون الجيش ملك الامة لا لتكون الامة ملك الجيش .

ولا بد أن تعرف أننى لا أستطيع قبول المنطق الذى كنتم تتعاملون به مع الحكومات فى دمشق قبل الوحدة .

لقد ثبت أن الضباط العشرين على صلة بالحزب الشيوعى .

ولاأستطيع أن اسمح بوجود خلية للحزب الشيوعى داخل الجيش الاول

كذلك لا استطيع ان اسمح لك بأستعمال سلطات منصبك كقائد للجيش الاول .. فى حماية هذه الخلية وفى تمكينها من العمل ، والا كنت بذلك اعرض الوطن السورى للخطر»

واستطرد الرئيس جمال عبد الناصر :

ـ اننى أعرف ان أهتمامك بالاقتصاد واسع ،ولقد سمعتك مرات تتحدث فيه ، وأنا أريدك أن تبقى فى خدمة الجمهورية ، لذلك فانى أقترح عليك ان تعمل فى التخطيط ، وخصوصا ونحن بصدد دراسة شاملة لاحتمالات التخطيط فى سوريا .

وقبل عفيف البزرى .

وخرج .. فهم الدرس الحاسم .. ثم فهم أيضا ان هناك فرصة جديدة له .

***

وعين عفيف البزرى بمرتب وزير فى التخطيط فى . وبدأ فى أيامه الاولى هنا أنه مقبل على العمل ، يريد أن يتعلم كل ما يقدر على هضمه من المشاكل الجديدة التى وضع أمامها ، ثم يريد أن يثبت استحقاقه للفرصة الثانية التى منحت له .

ولكن فورة الحماسة لم تعش طويلا .

أحس عفيف البزرى انه ابتعد عن مركز القوة فى قيادة الجيش الاول بل وأثبتت الحوادث فيها فيما بعد أن الامر كان أخطر من ذلك

كان النجم الاحمر ما زال يشد عفيف البزرى ويبهره .

وفى ذلك الوقت ، فى الشهور الاخيرة من سنة ١٩٥٨ ، بدا من تطورات الامور فى العراق ، بعد مباغتة اللواء عبد الكريم قاسم للقوى الوطنية العربية هناك ، أن الفرصة القادمة للشيوعيين ..

بدأت الشعارات الشيوعية تتردد فى العراق ويعلو صوتها على شعارات القومية العربية .

وبدأت الرايات الحمر تخفق مع الرياح فى العراق وامامها كانت الرايات العربية ترغم على النزول والانطوا.

وبدأ العمل الشيوعى سافرا .

ثم تبين بعد ذلك أن عفيف البزرى وجد فى العراق ما لم يستطع العثور عليه فى سوريا قبل الوحدة وبعدها .. فرصة مفتوحة لحكم شيوعى .

وتبين أكثر ..

تبين أن عفيف البزرى كان يكتب من القاهرة لقادة الحزب الشيوعى العراقى .

وتبين أن عفيف البزرى سمح لنفسه أن يكتب خطابا للواء عبد الكريم قاسم ينصحه فيه بأن لا يتعاون مع الجمهورية العربية المتحدة .

وأدهى من ذلك - على حد ما روى اللواء عبد الكريم قاسم نفسه بعد ذلك - قال عفيف البزرى لعبد الكريم قاسم فى أحد خطاباته اليه:

- لا تأت الى القاهرة ، ولا تدع جمال عبد الناصر يذهب الى بغداد ، ولا تجتمعا حتى على خط الحدود فلقد علمت أنهم يدبرون لك وضع السم فى الطعام ليخلصوا منك !

والعهدة فى الرواية على عبد الكريم قاسم ، وأنا بصراحة لا أفهمه، ولا أستطيع أن أحدد متى يصدق فى كلامه . ولا متى يكذب .

وكان هذا كله مذهلا .

ولكنه كان طبيعيا فى منطق كل الذين قاوموا تجربة الوحدة بين مصر وسوريا ، وحاولوا حصر نطاقها كخطوة أولى ، قبل الانقضاض عليها وضربها .

وكان هؤلاء معسكرا كبيرا .. جمع المتناقضات كلها .. جمع الملوك وجمع الشيوعيين ، وضع الملك سعود فى نفس الخط مع خالد بكداش ، فى فترة غريبة حافلة من تاريخ النضال العربى .

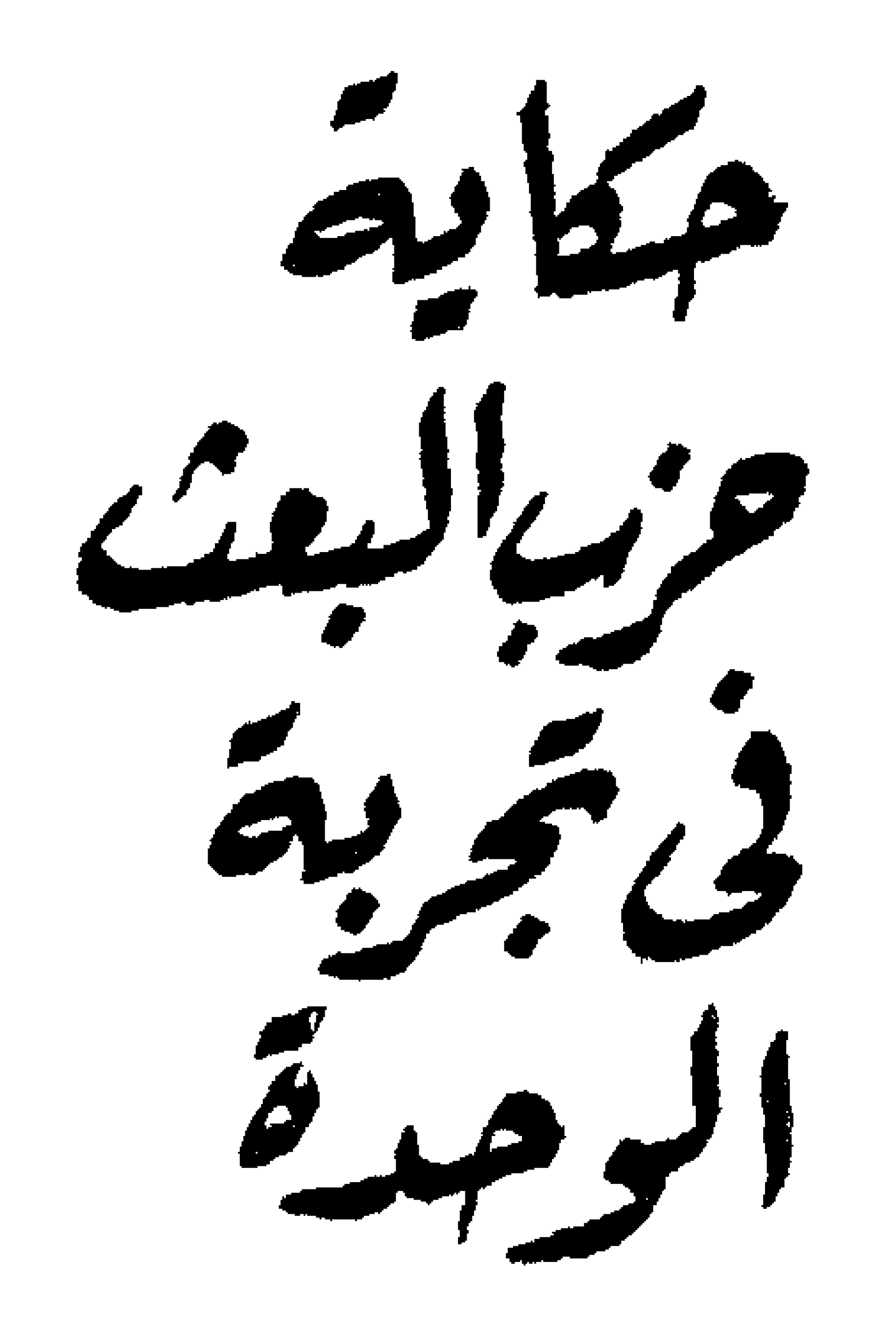
***

وذات صباح اختفى عفيف البزرى من القاهرة وظهر فى دمشق .
وذات صباح آخر اختفى من دمشق وظهر فى بغداد .
وذات صباح ثالث اختفى من بغداد وظهر فى صوفيا .
وهو الآن .. فى مكان ما لا أعلمه على وجه اليقين .

***

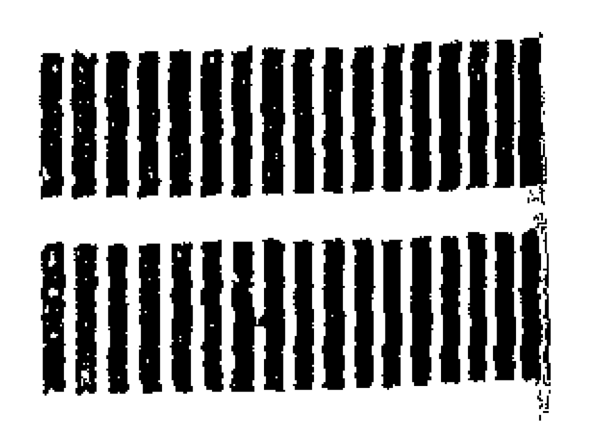
ولقد وصلت الى نهاية هذه الصفحة وحكايات المشاكل الصغيرة فى عهد الوحدة لم تنته بعد ...

٧



التناقض بين "فكر" البعث
و"سياسة" البعث
و"الآراء" التى لم تستطع أن
تتحول إلى "نظرية" عمل !

أكرم الحوراني



مازالت للحكايات الصغيرة بقية .

وما زالت للحكايات الصغيرة فى التجربة الكبيرة ، أذيال تجر نفسها، وتجر بعضها ، ولو افسحت المجال لتفاصيلها لما انتهيت !!

ولكنى أصل اليوم الى حكاية حزب البعث فى تجربة الوحدة .

ولقد رويت فى فيما سبق حكاية « صبرى العسلى » ، ورويت حكاية «عفيف البزرى» وفى التسلسل الزمنى للحوادث ، بترتيب نهاياتها وليس بترتيب البدايات ، فان حكاية حزب البعث قد جاء دورها .

وحكاية حزب البعث ليست حكاية سهلة ، وان دخلت هنا فى عداد الحكايات الصغيرة التى عرقلت زحف الشعب العملاق ، فىتجربته الاولى لتطبيق الوحدة العربية .

حكاية حزب البعث ليست سهلة لعدة أسباب تتعدد فى نظرى ، وتشتبك أحيانا وتفترق ، وتقوم – بالنسبة لى – على الوقائع التى شهدتها فى بعض الظروف ، وفى ظروف أخرى تقوم على الانطباعات وعلى مجرد الاحساس .

ليست سهلة حكاية حزب البعث فيما يتعلق بى على الاقل .

أولا – أنا واحد من الناس الذين أعجبتهم ، فى الماضى آراء حزب البعث ، وشعاراته ، خصوصا فى فترة الفراغ الفكرى ، التى امتدت بين نهاية الحرب العالمية الثانية حتى تجلت ايجابية العمل الثورى فى مصر مع مطلع عام ١٩٥٥ .

ولكنى حتى فى هذه الفترة ، كنت واحدا – من الناس – الذين روعتهم طريقة حزب البعث فى ممارسة نشاطه العملى فى السياسة

السورية خصوصا فى ظروف الانقلابات العسكرية المتكررة فى سوريا، ابتداء من انقلاب حسنى الزعيم على شكرى القوتلى حتى جاءت تجربة الوحدة سنة ١٩٥٨ ، بل وحتى انتهت تجربة الوحدة سنة ١٩٦١

كان التناقض بين «فكر» البعث و «سياسة» البعث يحيرنى .

كان « فكر » البعث « يضىء » أحيانا بومضات عن الوحدة وعن الاشتراكية وعن الحرية .

ولكن «سياسة» البعث كانت دائما غارقة فى الظلام ، فى المناورات وفى الدسائس ، وفى المؤامرات فى كثير من الاحيان .

ثانيا ـ انا واحد من الناس الذين كان يراودهم فى وقت من الاوقات امل ، بأن حزب البعث قد يقدر يوما أن يحول « أفكاره » الى « نظرية » عمل ، أو شبه نظرية .

ولكنى واحد من الناس الذين طال انتظارهم على غير فائدة .

لقد مضت السنون بعد السنين وافكار حزب البعث ، فى أحسن احوالها مجرد افكار حالمة معلقة فى الهواء ، لا تقترب من الواقع المعاصر، ولا تواجه مشاكله ، ولا تحاول ـ حتى بالتجربة والخطأ ـ أن تباشر تأثيرا على اتجاهات التطور العربى ، فى أى بلد عربى ، ولا حتى فى سوريا كان حزب البعث على الورق حركة تقدمية .

ولكنه على الطبيعة ، وخلال اشتراكه فى الحكم قبل الوحدة وبعدها لم يترك آثارا تقدمية تدل عليه !

ثالثا ـ انا واحد من الناس الذين قرأوا لميشيل عفلق ، فيلسوف البعث ، ووعوا عنه ما قرأوا له ، وأن اختلفوا معه فى كثير مما قال .

وكنت أرى فى صلاح البيطار من على البعد ، ملامح شاب ثائر .

وكان أكرم الحورانى ، لغزا محيرا لى ، لايستقر رايى فيه على قرار .

ولقد تصورت انه اذا ما أتيحت لى الفرصة أن اراهم عن قرب ، فلربما منحتنى الفرصة مزيدا من الفهم .

وحين التقيت بميشيل عفلق ، تبدد خيالى القديم عنه ، كانت أفكاره تضيع منه ومنى فى الالفاظ ، وكانت الالفاظ تضيع منه ومنى على لسانه ، فلقد كان يستريح نصف ساعة بين الكلمة والكلمة ، وكان الاستماع اليه فى المرات التى أتيح لى أن التقى فيها معه ، عذابا ليس فوقه عذاب ! ..

وأما صلاح البيطار فلقد كان وقتي يضيع معه ، وأنا أرقبه ساعة بعد ساعة ، وهو يقرض اضراسه ويمضغها .

وأكرم الحوراني ، زادت حيرتي فيه بعد لقائي معه ، عما كانت عليه قبل هذا اللقاء ، فلقد كان معظم ما سمعته منه لا يزيد على قوله أن فلانا «آدمي» وفلانا الآخر «رذيل» .

ثم كانت النتيجة التي خرجت بها في النهاية أن حزب البعث ضيع افكاره في المناورات الحزبية ، وأن « ثورية » البعث المحتملة تاهت في سراديب السياسة السورية وفقدت قدرتها على أن تتطور ، ومن ثم فقدت قدرتها على المساهمة في تطوير الواقع العربي .

رابعا — أنا واحد من الناس الذين اكتشفوا بالتجربة أن ثمة خطأ فاصلا ، حقيقيا وموجودا ، بين قيادات البعث ، وبين قواعد البعث.

ولقد ألمحت الى القيادات بما يتضمن رأيي .

ولكن رأيي — حتى هذه اللحظة — انه ما زالت لقواعد حزب البعث في كثير من البلاد العربية قيمة وطنية لا بد ان يحسب حسابها في الميزان ...

لقد رأيت في عدد من البلاد العربية شبابا كثيرا ما زال يؤمن بما وصل اليه من أفكار حزب البعث وآرائه .

وبقدر اعجابي بهذا الشباب .. كان اشفاقي عليه .

واني لاشفق على هذا الشباب اليوم ، أكثر من أي يوم مضى ، خصوصا بعد الموقف الذي وقفته قيادات البعث الرسمية من الانقلاب الاخير على الوحدة في دمشق .

ويوم وقف قادة حزب البعث في دمشق يؤيدون الانقلاب على الوحدة ، ويوقعون بامضاء أكرم الحوراني ، وصلاح البيطار ، على البيان الذي وقعه عدد من ساسة سوريا القدامى بمهاجمة الجمهورية العربية المتحدة ، هممت لوهلة بأن أمسك قادة حزب البعث وحدهم ، دون جميع الذين وقعوا . وأرد عليهم .

هممت أن أقول لهم أن جزءا كبيرا من أسباب فشل التجربة يقع عليهم ، فلم يخرج دورهم في تجربة الوحدة عن احد موقفين :

* موقف المناورة والاحراج الحزبي ، بغية أن يكون لهم وحدهم حق الحكم في سوريا وحدها !

* ثم موقف السلبية المطلقة ــ بعد المناورة والاحــراج ــ حتى تتأزم الامور قدر ما يمكن أن تتأزم ، ثم لا يكون هناك مخرج من الازمة غير الاستجابة لشروطهم وهى ان ينفردوا وحدهم بسوريا وحدها ! .

هممت بأن أفعل ذلك ، ثم تراجعت .

ومن أجل شباب البعث وحده ، وليس من أجل قادته ، تراجعت :

هذه صورة عامة فى التمهيد للحكايات الصغيرة من دور حــزب البعث فى تجربة الوحدة .

وبعدها ندخل فى التفاصيل ..

وأضيف ، اننى سأدخل قليلا فى التفاصيل ، وليس كثيراً ، ومن أجل شباب البعث التقدمى وحده هذا القيد الذى أفرضه على نفسى ، وليس من أجل الدهاة من صناع المناورات والدسائس ، ابطال الالعاب «المدهشة» على الحبال من زعماء البعث وساسته .

***

الحكاية الاولى من حكايات البعث ، بدأت مع اليــوم الاول ، فى حكومة الوحدة ..

بطلها صلاح البيطار .

وصلاح البيطار كان وزيرا لخارجية سوريا قبل الوحدة ، وكــان يريد أن يكون وزير الخارجية فى الجمهورية العربيــة المتحدة يوم أن قامت الوحــــدة .

وحين عرف صلاح البيطار أن الدكتور محمود فوزى سيبقىوزيرا للخارجية بعد قيام الجمهورية العربية المتحدة ، لم يعجبه الحال .

قال رأيه صراحة

وقيل له :

ــ أن الجمهورية العربية المتحدةبعد قيامها مقبلة على أدوار دولية هامة والدكتور محمود فوزى شخصية دولية لها قيمتها ، وفى طاقتــه جهد كبير يستطيع به أن يخدم القضية العربية دوليا كخير ما تــكون الخدمة ، خصوصا وأن الدكتور فوزى وراءه تجربة دولية بعيدة ، وله صداقات دولية واسعة .

وقيل لصلاح البيطار :

ـ انك ستكون وزيرا للدولة فى الوزارة ، وستكون الشئون العربية هى اختصاصك وفى هذا المجال تستطيع أن تقوم بالكثير .

وسكت صلاح البيطار ، ولكن عدم اقتناعه كان واضحا ، من الطريقة التى راح يعد بها حبات السبحة التى يمسك بها فى يده .

***

ثم جاءت الحكاية الثانية بعد بضعة أسابيع من تجربة الوحدة .

ذهب صلاح البيطار ومعه ميشيل عفلق الى مقابلة الرئيس جمال عبد الناصر وكانا يحملان وجهة نظر فى الحكم .

كانت وجهة نظرهما ان الوحدة لم تقع عملا ، وان كانت قد وقعت شكلا .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ انه يشعر أن ذلك صحيح ، فان فى دمشق حكومة وفى القاهرة حكومة ،وليس بين الحكومتين من رباط الاوجود رئيس واحد للجمهورية وهذا وضع لا تتحقق به الوحدة عمليا على النحو الذى يفى بآمال الشعب فى الوحدة .

وقال صلاح البيطار :

ـ هناك ، يا سيادة الرئيس ، مسألة «المشاركة» ، نحن نشعر أننا لا نشترك فى الحكم على مستواه الاعلى لهذا فان لدينا اقتراحا بتأليف مجلس منكم ومنا .

وقال جمال عبد الناصر أنه يريد مزيدا من الشرح .

واستطرد صلاح البيطار :

ـ اننا نرى أن يؤلف مجلس اعلى للدولة ، ولو حتى بصفة غير رسمية ، على أن يوكل اليه ـ تحت اشرافكم ـ أمر البت فى كل القضايا الرئيسية الهامة ، ويكون هذا المجلس من ستة ، ثلاثة منا وثلاثة منكم .

واستطرد صلاح البيطار :

ـ ثلاثة منا ، هم أكرم الحورانى وميشيل عفلق وأنا ، وثلاثة منكم وليكونوا المشير عبد الحكيم عامر والسيد عبد اللطيف البغدادى والسيد زكريا محيى الدين .

وقال جمال عبد الناصر !

ـ ان لى ملاحظات على هذا الرأى :

اولا ـ ان معنى كلمة «منا» و «منكم» انكم شيء واننا شيء آخر مختلف وهذه لاول وهلة فى احساسى انفصالية اكثر منها وحدة .

ثانيا ـ أن الثلاثة الذين اخترتموهم «منكم» كلهم من حزب البعث ومعنى ذلك اننى أفرق بين «بعثى» وبين «سورى» وحين صوت شعب سوريا على الوحدة ، وقرر انتخابى رئيسا للجمهورية ، كان الشعب السورى كله ، هو الذى صوت وهو الذى قرر ، فكيف أضع الآن فارقا اميزبه البعثيين على غيرهم من السوريين ، ثم ماذا أقول للذين يشتركون معنا فى الحكم الآن من الوزراء السوريين .

وقال ميشيل عفلق :

ـ الواقــع أن كثيرين من هؤلاء الوزراء يجب أن يخرجوا ... عبد الحميد السراج مثلا يجب أن يخرج .. وأمين النفورى كذلك .. لا نقول بخروجهم الآن ولكن نجعل ذلك فى حسابنا للمستقبل .

وقال جمال عبد الناصر :

ـ لا أتصور مثل هذا الرأى ، لا أتصـور ان يجلس معى الآن فى مجلس الوزراء وزير يشاركنى فى تحمل المسئولية ، وأنا اعلم فى ذهنى اننى سوف أخرجه من الوزارة بعد شهور ، كيف يمكن ان نعمل بهـذا الشكل ؟

واستطرد جمال عبد الناصر :

ومن ناحية اخرى ، من ناحية الاقتراح ذاته ، فلست اتصور انه من واجبنا ان نضع وصاية داخلية على الدولة .

وانما الذى اتصوره واجبنا هو أن تقوى الدولة ونحقق توحيدها، وأن تكون هناك للجمهورية الواحدة ، حكومة واحدة ، ولقد كان فكرى أن أبحث هذا الامر : نؤلف حكومة مركزية قوية للجمهورية العربية ، ثم تكون هناك المجالس التنفيذية للاقليمين وفى داخل الحكومة المركزية يجرى بحث السياسة العليا للجمهورية ويتم رسمها بطريقــة مفتوحة نشارك فيها جميعا .

وانتهت المناقشة ولكن وجهة نظر حزب البعث تجلت من خلالها .

وجهة نظره أن يكون هو ـ حزب البعث ـ مقابل مجلس الثـورة السابق فى مصر ـ ثم من ممثلى الاثنين معا يقوم مجلس أعلى للدولة .

***

ثم جاءت الحكاية الثالثة ، فى الايام التالية مباشرة لثورة العراق . . بعد أيام قليلة من ثورة العراق ، سافر السيد ميشيل عفلق الى بغداد وكانت فى بغداد حركة نشيطة للبعث العربى ، وبدأ ميشيل عفلق ينادى فى بغداد بانضمام العراق الى الجمهورية العربية المتحدة .

وفى الظروف العادية كان ذلك أمرا يمكن أن يمر بسهولة ويسر ، ولكنه فى الظروف غير العادية التى صاحبت ثورة العراق ، كان أمرا يقدر على خلق مشاكل لا أول ولا آخر لها .

فلقد استغل الحزب الشيوعى فى العراق نداء ميشيل عفلق بالوحدة ورفع فى مقابله شعار الاتحاد .

ثم بدأت الفرقة والصراع فى العراق بين الوحدة والاتحاد .

واستغل اللواء عبد الكريم قاسم هذا الصراع ليضرب الوحدة والاتحاد معا ، بعضهما ببعض .

فى ذلك الوقت كان الرئيس جمال عبد الناصر قد وصل الى دمشق عائدا من موسكو بعد لقائه الشهير مع خروشوف فى اعقاب ثورة العراق .

فى ذلك الوقت كان بين قادة البعث من يرى أن يطير عبد الناصر الى بغداد وأن يتم على الفور دخول العراق الى الجمهورية العربية المتحدة .

وكان جمال عبد الناصر يرى فى الامر رأيا آخر .

كان يرى أولا ان شعب العراق هو الذى صنع ثورة ١٤ يوليو ولا بد لهذا الشعب نفسه أن يمارس حريته قبل أن يقرر مصيره بالوحدة أو الاتحاد . . .

وكان يرى ثانيا أن الاندفاع العاطفى سوف يخلق حساسية شديدة لدى قادة الثورة فى العراق خصوصا وأن المعلومات بدأت تجىء مفصلة عن عقد اللواء عبد الكريم قاسم الذى صدره رفاقه فى الثورة لقيادتها الرسمية .

وكان يرى ثالثا أن من الضرورى أى شىء دعم التجربة الحالية للوحدة بين مصر وسوريا وانجاحها وجعلها نموذجا صحيحا لفاعلية الوحدة عمقا بدلا من مجرد الاندفاع سطحيا فى فورة العاطفة خصوصا فى الجو الدولى الملبد بالغيوم والعواصف وقتها ، وعلى ضوء ما كان عبد الناصر يعرفه وحده من أن الاتحاد السوفيتى ليس مستعدا

لمساندة القومية العربية فى صراعها مع الاستعمار اذا ما وصل هـذا الصراع الى نقطة الخطر .

وفى ذلك الوقت ، قال الرئيس جمال عبد الناصر ، للعقيد عبد السلام عارف الذى رأس وفدا يمثل ثورة العراق ليزور دمشق ، قال له أمام الوزراء العراقيين الذين رافقوه فى رحلته ، ما يلى :

ـ اننى أريدك أن تنقل الى اللواء عبد الكريم قاسم والى جميع رفاقك فى قيادة ثورة العراق ، أننا على استعداد لان نتعاون معكم الى غير ما حد ، ودون ما قيد أو شرط فى جميع النواحى السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية .

وفيما يتعلق بما يطرح الآن من مناقشات حول موضوع الوحدة ، فان رأيى هو :

* ان شعب العراق فى حاجة الى الشعور بحريته بعد الكبت الطويل قبل أن يمارس هذه الحرية فى تقرير مصيره ولا ينبغى أن يفرض عليه الآن شىء قبل ان تتاح له فرصة التثبت مما يريد .

* ان شعب العراق فى حاجة الى الوحدة الوطنية داخل العراق اكثر مما هو فى حاجة الى الوحدة أو الاتحاد معنا .

وبعدها عندما عاد ميشيل عفلق ، وكانت زيارته لبغداد قد انتهت بمشاكل وحساسيات لم يكن هناك مبرر لها ، لم يقل له أحد :

ـ ان الذى قلته هناك قد حسب على الجمهورية العربية المتحدة وهو الآن يستغل ضدها .

لم تكن هناك رغبة فى وضع قيد على رأيه .

لقد أكل هو الحصرم فى بغداد .. وضرست الجمهورية العربية المتحدة كلها .. فى دمشق وفى القاهرة .

***

ثم تعاقبت حكايات كثيرة .. رابعة وخامسة وسادسة ..

* تواترت الاخبار من دمشق ، بأن وزراء البعث لا يضعون غير البعثيين فى وزاراتهم .

ان بطاقة حزب البعث أصبحت جواز المرور الى التعيين فى وظائف الدولة ، كما أصبحت وسيلة الترقى الى المناصب الكبرى فيها .

وقيل لحزب البعث فى رقة ، فى منتهى الرقة !

ـ تذكروا أنكم لم تعودوا حزبيين بعد حل الاحزاب .

اننا نسلم أن جزءا من الحملة عليكم مفتعل لاحراجكم .

ولكن ثمة شيء من الصحة فيما يقال عن التحزب للبعثيين ، وكل الذي تفعله الحملة هو أنها تضع منظارا مكبرا تحاول به تجسيد الخطأ وتعطيه شكلا يزيد كثيرا عن حقيقته .

* ثم بدأ الكلام عن نشاط بعثى فى داخل الجيش الاول .

ثم وصل الامر الى حد أن السيد أكرم الحورانى حاول أن يتدخل صراحة فى تنقلات الجيش .

ثم أبدى رأيه مرة بضرورة عزل الفريق جمال فيصل قائدالجيش الاول واقترح تعيين السيد مصطفى حمدون وزير الاصلاح الزراعى فى ذلك الوقت قائدا للجيش الاول .

وكان الرأى الذى قيل له :

ـ لا ينبغى أن نجعل الحزبية تعود الى الجيش .

ان الجيش الاول فى حاجة الى جهد كبير فى التدريب ، وينبغى أن نوفر له الجو الملائم ، الذى يحقق له تكريس جهده كله الى مسئوليته ، والى احتمالاتها المقبلة .

* ثم كان فى أعقاب هذا كله أن بدأ البعث نفسه يشكو مما يلاقيه فى سوريا وركب صلاح البيطار طائرة ذات يوم الى القاهرة ليقول للرئيس جمال عبد الناصر :

ـ ان حزب البعث يلاقى عنتا واضطهادا فى سوريا من عبدالحميد السراج ...

وقال الرئيس جمال عبد الناصر :

ـ اننى لا أرضى بأن يتعرض حزب البعث لاى عنت واضطهاد .

وبدأ صلاح البيطار يتحدث عما سمعه فى سوريا مما يلاقيه أعضاء الحزب أو المنتمون اليه .

وخرج صلاح البيطار ، وبعث الرئيس عبد الناصر باشارة الى دمشق يطلب من عبد الحميد السراج ركوب أول طائرة الى القاهرة ..

وتحدث الرئيس مع عبد الحميد السراج فيما سمعه من صلاح البيطار . وقال عبد الحميد السراج انه يتمنى لو انه سمع وقائع محددة تثبت عليه مسئولية ما يوجه اليه .

وقال الرئيس :

انني أرى أن مواجهة الامور صراحة هي السبيل الوحيد .

ثم رفع سماعة تليفون من فوق مكتبه وطلب اخطار السيد صلاح البيطار أن يتوجه فورا من حيث يكون الى مكتب الرئيس .

وبعد ربع ساعة جاء صلاح البيطار ليجد عبد الحميد السراج جالسا ينتظره .

وقال الرئيس :

ـ صلاح .. لقد رأيت أن لاندور حول المسائل لكى لانتوه فيها، لقد قلت لى أمس ان عبد الحميد السراج يتبع سياسةالعنتوالاضطهاد ضد البعث وانا اريده أن يسمع منك كل ما سمعته انا بالامس حتى تظهر الحقيقة ، فانى أخشى أن يكون هناك من يسعى لتسوىء العلاقات بينكما .. لذلك أريدك أن تتكلم مع عبد الحميد بكل ما عندك .. بكل تفاصيله ..

وبدأ صلاح البيطار يرسم صورة جو عام .

وعبد الحميد السراج يلح فى طلب وقائع محددة .

وانتهت الجلسة دون نتيجة حاسمة وان بدأ واضحا أن عناصر كثيرة تحاول اثارة زوابع لا ضرورة لها داخل سوريا خصوصا بينالذين يتصدرون الحكم من السوريين .

***

ثم جاءت حكاية انتخابات الاتحاد القومى .. انتخابات القاعدة الشعبية فى ذلك الوقت ..

وقام خلاف فى وجهات النظر ..

كان حزب البعث يرى أن يمارس وزير الداخلية حق شطب أسماء من يجرى الاعتراض عليهم من المرشحين .

وكان الرأى الآخر هو أن الشطب لا ضرورة له فى انتخابات القاعدة الشعبية خصوصا وأن تطبيقه عمليا سوف يكون مسألة صعبة.

كان عدد المرشحين فى مصر ١٢٠ الفا .

وكان عددهم فى سوريا عشرة آلاف .

فكيف يمكن أن يجرى الشطب وعلى اى قاعدة وعلى اى اساس

فى ذلك الوقت قال الرئيس جمال عبد الناصر للسيد أكرم الحورانى :

ـ لقد جربنا الشطب فى انتخابات مجلس الامة سنة ١٩٥٧ ،ولقد احسست وقتها أن ثمة شعورا عاما بأن الشطب يؤثر ـ فى تصور الناس على سلامة عملية الانتخابات .

ومن ناحية أخرى فان ممارسة حق «الشطب» فى انتخابات القاعدة الشعبية من أجل خلق تنظيم سياسى معناه اننا نصنع المعارضة قبل أن نصنع التنظيم السياسى .

ثم كيف يمكن أن تجرى التحريات عن كل هذا العدد من المرشحين لكى يكون الشطب على أساس وقاعدة ؟

وزارة الداخلية مثلا ؟ كيف تستطيع ؟ .
أنت مثلا .. ؟ هل تعرف كل هؤلاء الناس المتقدمين للترشيح فى سوريا ؟
اذن ، ماذا سيكون الحل ؟

سوف تسمع كلام بعض الناس ممن تعرفهم فى الآخرين ممن لا تعرفهم وكل واحد سوف يصور لك غيره على هواه .

***

ثم كان موقف حزب البعث بعد ذلك من انتخابات القاعدة الشعبية غاية فى العجب ..

تجلى أن الحزب مختلف مع غيره ومختلف مع بعضه أيضا .

فريق قرر دخول الانتخابات على أساس عدم الشطب ، وفريق قرر أن لا يدخل من غير شطب لمنافسيه ، ثم بدأ قسم من الفريق الذى قرر الدخول ينسحب فى اللحظات الاخيرة للانتخابات بحجة أن عبد الحميد السراج وزير الداخلية وقتها يتدخل ضده .

***

ثم جاءت الحكاية الحاسمة التى خرج فيها وزراء البعث من الوزارة .

بدأت الحكاية مع الظروف التى كان السيد مصطفى حمدون وزير الاصلاح الزراعى ـ واحد وزراء حزب البعث وواحد من احسنهم للحقيقة والتاريخ ـ يمارس بها تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى .

فى بعض الظروف كان يبدو أن مصطفى حمدون ينفذ القانون بطريقة عنيفة ، تجعل من السهل تصوير تصرفه وكأنه من وحى شهوة للانتقام .

ثم جاءت واقعة محددة بالذات متعلقة بأرض واحد من كبـار الملاك من أسرة الجابرى فى حلب وهو رشاد الجابرى فيما أتذكر .

وكان قانون الاصلاح الزراعى يعطى مالك الارض حق اختيـار نصيبه الباقي له بعد تطبيق القانون ، ولكن مصطفى حمدون رفض أن يترك لرشاد الجابرى هذا الحق وصمم على أن يختار له هو قطعـة الارض التى يحتفظ بهـا .

ويومها سئل مصطفى حمدون :

ـ لماذا تقف هذا الموقف مع أن نص القانون صريح ؟

وقال مصطفى حمدون :

ـ ان رشاد الجابرى أحد عملاء حلف بغداد .

وقيل لمصطفى حمدون :

ـ ولكن تلك مسألة ، وهذه مسألة مختلفة .

اذا كان القانون يعطيه حقا فلا يجب أن نمنعه عنه ، واذا كان فى تصرفاته ما يمس وطنيته فليس هناك ما يمنع من محـاكمته ولـكن المسألتين يجب أن تظل كل منهما فى معزل عن الاخرى .

فى ذلك الوقت كان المشير عبد الحكيم عامر فى دمشق ..

وفى ذلك الوقت كان الحل الذى وجد ، لمواجهة الازمة هو تأليف لجنة خماسية تتولى تطبيق قانون الاصـلاح الزراعى تحت اشراف مصطفى حمـدون .

ولكن مصطفى حمدون قدم استقالته .

وبعث المشير عبد الحكيم عامر باستقالة حمدون الى القاهرة ومعها خطاب شخصى منه الى رئيس الجمهورية ، يرجوه فيه أن لا يقبـل استقالة حمدون باعتباره شابا وطنيا مخلصا .

وفجأة تقدم السيد عبد الغنى قنوت وزير الشئون البـلدية والقروية ـ وأحد وزراء حزب البعث ـ باستقالة ثانية .

وتلقى المشير عبد الحكيم عامر رسالة من القاهرة تطلب اليه اخطار الوزيرين المستقيلين ، مصطفى حمدون وعبد الغنى قنوت بالسفر الى القاهرة لمقابلة رئيس الجمهورية ظهر الغد .

وكان اليوم ، يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٥٩ .. ذكرى عيد النصر الثالث في بور سعيد .

وعاد جمال عبد الناصر من بور سعيد بالقطار ومعه على مائدة العشاء في القطار يومها السيد أكرم الحوراني والسيد صلاح البيطار .

وكان كل شيء يبدو هادئا وطبيعيا .

ووصل القطار الى القاهرة .. لم يبد أن أكرم الحوراني وصلاح البيطار سمعا بما حدث في دمشق ، أو كانا يعلمان به ويخفيان ما يعلمان واذا كل منهما في الصباح يكتب استقالته من الوزارة ويسارع بكل وسيلة على عجل ليصل بها الى رئيس الجمهورية قبل موعده عند الظهر مع مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت .

***

وكان وصول الاستقالتين مفاجأة غير متوقعة .

ولكن دلالتها كانت خطيرة بما تضعه من شوائب على روح الثقة وعلى توفر الاخلاص لدى الذين يواجهون المسئولية الواحدة .

وفي ذلك الوقت وصل الى دار الرئيس كل من السيدين مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت .

وقال لهما الرئيس جمال عبد الناصر :

لقد اردت ان اقابلكما وفي ذهني ان اقول لكما انني ارفض الاستقالة وان كلا منكما مجند في خدمة الجمهورية ، ولكن الموقف تغير الآن .

لقد تلقيت استقالتين من أكرم الحوراني وصلاح البيطار .

ولقد جعلني ذلك أحس أن الامور تجري بالمنطق الحزبي في وزارة ائتلافية ...

وأنا أعتبر هذا الوضع اخلالا بما اتفقنا عليه جميعا من مقتضيات المرحلة الحاضرة ، فلسنا هنا نمثل أحزابا .. ولسنا وزارة ائتلافية لمجموعة متضاربة المصالح من الاحزاب .

لهذا فلسوف أقابلكم مرة ثانية بعد أن أرى أكرم الحوراني وصلاح البيطار .

***

ودعي السيد أكرم الحوراني لمقابلة رئيس الجمهورية ، وقال له الرئيس :

ـ لقد كنت معي بالأمس وكنا نتناول العشاء معا ، وكان الحديث

بيننا متصلا ، ثم افاجأ اليوم باستقالة تقدمها لى .. كيف يمكن أن افسر هـذا ؟ ..

وظل أكرم الحورانى صامتا .

ثم جاء دور صلاح البيطار ، ولم يكن صامتا كأكرم الحورانى وانما ركز المشكلة كلها فى قوله :

ــ ان عبد الحميد السراج هناك وحده فى سوريا .. ونحن هنا بعيدون فى مصر ...

***

وعاد مصطفى حمدون وعبد الغنى قنوت الى مقابلة ثانية مع رئيس الجمهورية .

وروى لهما الرئيس تفاصيل مقابلته مع أكرم الحورانى وصلاح البيطار وكيف أنه قرر قبول استقالات وزراء حزب البعث ، ثم قال جمال عبد الناصر :

ــ لم أكن أريد أن تصل الامور الى هذا الحد ، ولكن ما حدث والطريقة التى حدث بها اقنعتنى أن أساس الثقة لم يعد قائما .

وانتقل الحديث بعد ذلك الى كلام عن الذكريات وعن الآمال وعن أيام مضت وأيام ستجىء .

وخرج مصطفى حمدون وعبد الغنى قنوت وفى عينى كل منهما دموع طيبة صادقة ومخلصة .

***

ولقد اختصرت الحكايات طويلا ــ كما قلت ــ ولم أدخل الى تفاصيل التفاصيل ..

من أجل قواعد حزب البعث أولا وليس من أجل زعاماته .

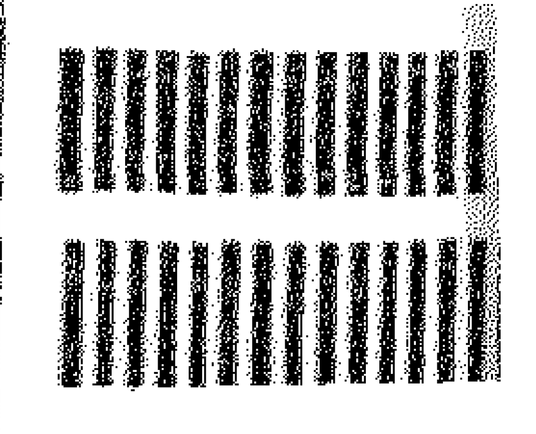
ثم لكى لا يطول الحديث الى غير ما نهاية .. وانسى فى الماضى القريب نفسى .. ولا أمد البصر الى المستقبل وهو أهم .

ومع ذلك فما زالت بين الحكايات ، واحدة باقية هى حكاية عبد الحميد السراج .

٨

حكاية عبدالحميد السرّاج

لمسات الضوء في صورته
ولمسات الظل



ولقد وصلت الآن الى حكاية عبد الحميد السراج فى تجربة الوحدة .

وصلت الى الحكاية على طريق الشوك .

والشوك على طريق هذه الحكاية بالذات أسبابه كثيرة .

* سبب منها ، شخصى بحت ، أعترف به فى مقدمة هذا الحديث مع تسليمى الكامل ، بأن مثل هذا السبب ليس عنصرا له اهميته حين التصدى لمحاولة تحليل الظروف فى حدث كبير من أحداث التاريخ .

هذا السبب هو أننى أحب عبد الحميد السراج — وما زلت — برغم اخطائه التى لا أغمض عينى عنها — أشعر انه شاب عربى قومى مخلص .

* وسبب منها ، ان حكاية عبد الحميد السراج نزل عليها ستار من الظلام الكثيف عقب الانقلاب على الوحدة فى سوريا ، ولست أعرف خلال هذا الظلام الكثيف ، أو بمعنى أدق لست أرى — أين يقف عبد الحميد السراج الآن ، وما هو رأيه فيما حدث ؟ كل ما اعرفه أن عبد الحميد السراج معتقل ، وأن صاحب الجلالة الملك سعود — بالذات — يطالب برأسه لكى يحمل اليه — حيث يكون — على طبق من ذهب !

* وسبب منها — ثالث وأخير — هو أن القراء الذين يتابعون هذه السلسلة من المقالات باهتمام — كرما منهم وحسن ظن — لم يتركونى حتى أنتهى من كتابة حكاية عبد الحميد السراج ، وانما سبقونى اليها بمجرد أن اشرت الى أن دور عبد الحميد السراج قد جاء فى تجربة الوحدة ...

ما كادت هذه الاشارة تظهر فى ختام الحديث الماضى ، حتى وجدت سيلا من الخطابات يقتحم مكتبى .

وكان واضحا من هذا السيل أن هناك تيارين يتنازعان الرأى العام فيما يتعلق بعبد الحميد السراج .

تيار عبر عن نفسه بعبارة فى أحد الخطابات التى تلقيتها تقول :

«لا تقل بالله كلمة تسىء الى عبد الحميد السراج ، لقد عمل من أجل الوحدة ما لم يعمله غيره ، بل لقد جرب الذين قاموا بالانقلاب على الوحدة فى دمشق أن يجروه الى التعاون معهم ، ولكنه رفض ، فى حين أن الذين كانوا يناصبونه العداء ، هرولوا الى الخضوع للانقلاب ووضع توقيعاتهم بالخط الكبير على بيانات رسمية بتأييده وبالسمع والطاعة له»

وتيار آخر عبر عن نفسه بعبارة مختلفة فى خطاب آخر مما تلقيته من خطابات .. جاء فيها :

«ربما دفعتك محنة عبد الحميد السراج الحالية ووجوده فى سجن المزة الى الدفاع عنه . ان الشعب العربى فى سوريا يمكن أن يغفر كل شىء الا الدفاع عن السراج فهو المسئول الاول عن هذه النكسة ، يكفى أنه ، وهو يزعم ، السيطرة على كل شىء فى سوريا ، لم يعرف بهـــذا الانقلاب الذى يدبر منذ سنوات ضد الوحدة ، أما اذا كان يعرف ، ولم يفعل شيئا فالمصيبة أدهى» .

***

طريق الشوك اذن طريقى الى حكاية عبد الحميد السراج .

من عاطفتى الخاصة له

من الغموض الذى يحيط به ، ويحيط بمصيره .

من موقف الرأى العام نحوه ، وبروز تيارين فيه يتصارعان معــا ولا يلتقيان أبدا .

ولكن الذى يسهل الامور على الى حد بعيد هو اقتناعى الـــكامل بأننى هنا لا أكتب تاريخا ، فان الشرط الاساسى لكتابة التاريخ بصدق وأمانة ، هو أن تكون حوادثه قد ابتعدت طويلا مع السنين ، وهدأت فيها حرارة العواطف مهما كان اتجاهها ، وتجردت الوقائع كلها من أى أثر للانفعال ..

وحكاية عبد الحميد السراج ، ما زالت حية .

ولست أدعى لنفسى التجرد ، وكل ما أتمنى أن أدعيه لنفسى لو استطعت ، هو أن أكون صادقا مع نفسى فى رواية الحوادث بقدر مـــا أراه بالفعل منها ، وليس هذا تجردا ، فان كل انسان يحكمه تكوينـــه

الفكرى فى نظرته الى الحوادث ، مهما طلب الصدق والح فى طلبه ، وانا واحد من الذين يقولون بأنه لا شيء يمكن أن يوجـد فى فراغ ، حتى الحقيقة ذاتها ، ومعنى ذلك ان الحقيقة فى تصورى ، كالهواء الذى يملأ غرفة مكتبى ، تحدده جدران الحائط وزواياه وارتفاعاته .

ولكنى أكاد استطرد الى بحث فلسفى ، يبعد بى عن حكاية عبـد الحميد السراج !

واذن أعود الى وقائعها !

***

من أين تبدأ حكاية عبد الحميد السراج ؟

والرد على هذا السؤال :

انها تبدأ من قبل الوحدة بكثير ، بل ان دراسـة هذه الحكاية فى بدايتها من قبل الوحدة ، أكثر ضرورة لمتابعة استمرار هذه الحكاية ـ طبيعيا ـ بعد الوحدة

لمسات الضوء فى صورة عبد الحميد السراج لمعت قبل الوحدة

ولمسات الظل فى صورة عبد الحميد السراج لفها الغموض من قبل الوحدة

***

ولمسات الضوء فى صورة عبد الحميد السراج ، فى رأيى ثلاث

١ ـ كان عبد الحميد السراج فى الفترة الحرجة ، من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨ أيام ضغط حلف بغداد على سوريا ، وأيام محاولة الحزب الشيوعى للسيطرة على سوريا ، واحداً من مجموعة الشباب الوطنى فى الجيش السورى ، الذين قدروا على حماية استقلال سوريا ، وصمدوا لمختلف أنواع المؤامرات ، سواء منها التآمر بالاغراء أو التآمر بالارهاب ، أى التآمر بسلاح المال أو التآمر بسلاح القتل ، كان عبد الحميد السراج واحداً من هذه المجموعة من الشباب الوطنى ... بل كان بحكم عمله فى رئاسة المكتب الثانى ـ المخابرات ـ أظهر أفراد هذه المجموعة فان منصبه يعرضه ، ويفرض عليه بدوره أن يتعرض لمواجهة هذه المؤامرات ، بكشفها وتحطيمها

٢ ـ كان عبد الحميد السراج ، فى اليوم الاول من شـهر نوفمبر ١٩٥٦ ، هو الذى أخذ على عاتقه عملية نسف أنابيب البترول القـادمة من العراق عبر سوريا الى البحر .

وكان نسف أنابيب البترول ، وتوقف تدفقه من العراق عبر سوريا الى البحر ، خصوصا بعد اغلاق قناة السويس بحكم العمليات العسكرية

الهائلة التى دارت خلال معارك العدوان الثلاثى على مصر فى تلك الفترة، عاملا هاما من عوامل النصر الذى أحرزته قوى القومية العربية ضد قوى الاستعمار وأدواته التى أرادت فى ذلك الوقت توجيه الضربة الساحقة الى قاعدة التحرر العربى فى مصر سنة ١٩٥٦ .

ولقد ثارت عليه بسبب ذلك ثائرة الوزارة القائمة بالحكم فى سوريا وقتها واتهمته بتعريض سلامة سوريا للخطر .

ولكن ما حدث .. كان قد حدث فعلا .. ولم تصل ثورة الوزارة الى نتيجة ، بحكم الامر الواقع .. وبحكم العجز أيضا .

٣ ــ كان عبد الحميد السراج هو بطل قصة ملايين الملك سعود الشهيرة التى أرادت أن تتآمر على الوحدة فى يومها الاول .

وصحيح أن وسطاء الملك سعود حاولوا الاتصال بمجموعة الضباط الوطنيين فى الجيش السورى فى ذلك الوقت كلهم ، وصحيح أن هؤلاء جميعا حولوا الموضوع بأكمله الى عبد الحميد السراج بوصفه رئيس المكتب الثانى ليتولى تسجيل المؤامرة وكشفها ولكن عبد الحميد السراج تلقى باسمه مليونا وسبعمائة وخمسين ألف جنيه استرلينى ، ولم يستطع هذا المبلغ الطائل الذى تتحطم أمامه مقاومة كثيرين ، أن يكون بالنسبة لعبد الحميد السراج ، الا دليلا فى قضية .. لا اكثر ولا اقل

لم يفكر عبد الحميد السراج لحظة فى قيمة شيكات الملك سعود كأموال

وانما كان فكره فيها طول الوقت أنها مجرد وثائق تدين الملك وتثبت عليه التآمر وتكشف الرجعية العربية أمام الرأى العام العربى .

هذه لمسات الضوء فى الصورة ، وفيها دون جدال ومضات باهرة

ثم أنتقل الى لمسات الظل .

***

لمسات الظل ثلاث أيضا !

١ ــ القوة ، فى تقديرى هى لمسة الظل الاولى فى شخصية عبد الحميد السراج وأعنى بالقوة هنا .. تجميعها والامساك بها ولم خيوطها جميعا فى قبضة يد واحدة .

كان عبد الحميد السراج ــ ولقد أكون مخطئا ــ يحب القوة ، وحب القوة يحمل فى طياته الرغبة فى الانفراد بها فان الذى يحب القوة يعتقد أن توزيعها على الايدى الكثيرة ينتقص من احساسه بها فى يده .

من هنا ، لم يكن عبد الحميد السراج ، وسط الكتل المتصارعة في الجيش السوري قبل الوحدة يمثل كتلة أو يقود مجموعة ، كان بعيدا عن كل الكتل والمجموعات ، وكان في نفس الوقت على اتصال بها جميعا، وان كان سنده الرئيسي هو كتلة الضباط الوطنيين في الجيش .

وحين صدرت سنة ١٩٥٧ حركة تنقلات في الجيش ـ صـــدرت بتحريض الملك سعود وضغطه على شكري القوتلي وبمســـاندة أمين النفوري الذي كان رئيس الشعبة الاولى في الجيش وقتها ـ وتضمنت هذه الحركة نقل عبد الحميد السراج من منصب رئيس المكتب الثاني ـ أي المخابرات ـ كانت كتلة الضباط الوطنيين هي التي هددت باجـراء انقلاب اذا لم يبق عبد الحميد السراج في مكانه .. وبقي .

وليست القوة ظلاً ، ولكن الظل يلحق بها اذا كانت القوة غاية ولم تـكن وســـيلة

القوة مطلب للثأر لانها اداة تغيير ثوري والسلطة طاقة دافعـــة تستطيع أن تفرض الفكرة المثالية على التجربة وتمنحها فرصة الحياة .

وليست القوة غاية في حد ذاتها وليست السلطة رغبة شخصية والا أصبحت مقدمة ضاعت منها نتيجتها والا خطوة تعلقت في الهـــواء دون مقصد أو هدف .

٢ ـ وتقودني هذه النقطة الى لمسة الظل الثانية في عبد الحميـد السراج

هذه اللمسة هي أن عبد الحميد السراج لم يكن بطبيعته ، أو بحكم ما أحاط به من ظروف ، ثوريا أجتماعيا .

من هنا فان القوة في يده وصلت الى طريق مسدود .

لقد جمع في يده من السلطات قبل الوحدة ، ما لم يتجمع في يد فرد .

في درج مكتبه كل المفاتيح ، وأصابعه على كل الازرار .

ولكن ماذا بعد ذلك ؟

لم تكن القوة في يده الا صراعا على القمة ، من أجل مزيد من السلطة ولكن القوة لم تواصل سيرها من يده لتنزل الى الجماهير الســـورية لتكون أداة مؤثرة وقوة دافعة لنضال الشعب وأن كنت هنا لا أقلل من قيمة الدور الذي لعبته القوة التي ركزها عبد الحميد السراج في يده في حماية الاستقلال السوري قبل الوحدة .

٣ ـ من هذه النقطة أيضا جاءت لمسة الظل الثالثة في شـخصية عبد الحميد السراج ، وتلك هي أيمانه بالوسائل البوليسية .

كان يريد ان يعرف كل شيء عن كل الناس ، لا تفوته حركة ، ولا تفلت سمعه همسة .

وفى الدعايات التى توجه ضد الجمهورية العربية الآن ، ما يقـال من أن عبد الحميد السراج كان يراقب جميع تليفونات خصومه ، ولكن الذى لم يقله أحد ـ وان كان حقيقة ـ هو ما تبين من أن عبد الحميد السراج كان يضع تليفونات زملائه فى الوزارة أنفسهم تحت الرقابة .

ونتيجة لهذا فان جهاز البوليس تحت اشرافه توغل واستشرى .

هنا أيضا لم يعد جهاز البوليس وسيلة تحمى المجتمع وتخدم القـانون ..

وانما فى بعض الاحيان قلت جهاز البوليس فأصبح فوق المجتمع وفوق القانون وكانت هذه بالذات .. أعقد المشاكل فى سوريا .

***

ولقد كنت أسمع كثيرا عن جهاز عبد الحميد السراج البوليسى ولم أكن أصدق .. حتى جربته بنفسى .. ورأيته بعينى وجها لوجه .

فى ليلة من ليالى اكتوبر سنة ١٩٥٩ كنت فى دمشق .

وكان المشير عبد الحكيم عامر قد وصل اليها منذ أيام فى مهمـة رسـمية .

فى تلك الليلة ، قابلت فى فندق أمية الجديد ، الصحفى الامريكى المشهور هارى ايليس ، وكان قد جاء من بيروت بناء على موعد مع المشير عبد الحكيم عامر حدده المكتب الصحفى لسـفارة الجمهورية العربية المتحدة فى بيروت

وقال لى هارى ايليس :

ـ لقد عدت الان فورا من موعد مع المشير عبد الحكيم عامر ...

وجلست مع هارى ايليس فى بهو فندق أمية نتحدث معا فى قصص وذكريات وتجارب واجهناها معا أيام كنا مراسلين حربيين فى كوريا قبل ما يقرب من عشر سنوات ...

***

وتركت هارى ايليس وصعدت الى غرفتى فى الفندق لانام

ولم تمض الا بضع دقائق حتى سمعت طرقة على الباب ، وفتحت واذا شاب يقدم لى نفسه باعتباره من المكتب الثانى ... ودهشت

وقال لى الشاب فى رقة وأدب شديدين

ــ سـيدى ... ألم تكن الان مع هذا الصـحفى الامريكى ... « ايليس » ؟

قلت له : نعم .

قال : عرفنا أنه قابل المشير الليلة ..

قلت : هكذا سمعت منه .

قال : ألم يقل لك ماذا سمع من المشير ؟

وتحولت دهشتى الى ذهول ، وقلت له :

ــ هل تسمح لى أن أسألك .. لماذا تريد أن تعرف ؟

قال ببسـاطة :

لاكتبه فى التقرير ..

قلت :

ــ تقرير .. لمن سوف تكتب التقرير ؟

قال :

ــ لوزير الداخلية

قلت :

ــ لا أظن أن وزير الداخلية ــ السيد عبد الحميد السراج ــ يحتاج الى تقرير فى هذا الامر ، ان حديث ايليس دار مع المشير ، ويستطيع وزير الداخلية أن يسأل فيه المشير رأسا .

قال الشاب بحزم :

ــ سيدى .. ظننتك تستطيع مساعدتى بدل أن أسأل الرجـل الاجنبى نفسـه ...

وأحسست بقلق ، لقد تصورت ما يمكن أن يحدث لو ذهب هـذا الضابط الشاب من المكتب الثانى الى هارى ايليس وسأله عن حديثـه مع المشير عبد الحكيم عامر .

ما الذى يمكن أن يفهمه هارى ايليس من هذا الوضع ؟

أغلب الظن أنه كصحفى مجرب وقديم ، سوف يفهم منه الكثير .

وقررت على الفور ان لا أترك الامر .

سكت لحظة ثم قلت لضابط المكتب الثانى الشاب :

ــ اسمع .. ما رأيك لو انتظرت الى الصباح وأنا اعطيك كل مـا سمعته من هارى ايليس عما دار بينه وبين المشير .

قال الضابط الشاب :

ـ الا تستطيع ان تفعل ذلك الآن ؟

قلت :

ـ نحن الآن فى الواحدة من الصباح ، ولقد كنت على وشك أن انام كما ترى ، والمسألة كلها بضع ساعات .

قال الضابط الشاب :

ـ فى الصباح الباكر .. حتى أكتب تقريرى قبل أن تفتح الدوائر الحكومية .

قلت : فى السابعة صباحا سوف أكون تحت أمرك .

***

وأقفلت الباب وانا أفكر كيف أتصرف فى الامر بهدوء ، كان همى كله أن لا تبدو الجمهورية العربية المتحدة أمام صحفى أجنبى غريب فى صورة تثير فضوله ومن يدرى ماذا يمكن أن تثيره بعد الفضول ، ثم وصلت الى حل ، ورفعت سماعة التليفون وطلبت هارى ايليس وكان ينزل فى نفس الفندق وقلت له :

ـ هارى .. يبدو أن صحفيا آخر حصل على حديث من المشير . وفى رأيى أن لا تنتظر للغد حتى تبرق بحديثك معه ويسبقك الصحفى الاخرى .

انك لن تجد مكتب البرق مفتوحا فى دمشق الآن ، لهذا فانى أقترح عليك أن تركب سيارتك فورا الى بيروت وتبرق بحديثك مع المشير قبل الفجر وتسبق به غيرك .

واعتبرها الصديق الطيب جميلا أسديته اليه تطوعا ووفاء .

وظللت بعدها أشعر بوخزة الضمير .. ولكن المهم أن هارى ايليس خرج من دمشق ووصل الى بيروت قبل الصباح .

***

ودق جرس التليفون بجوار سريرى فى الساعة السابعة صباحا .
وكان المتحدث هو ضابط المكتب الثانى الشاب يذكرنى بموعده معى .
وقلت له :

ـ متأسف .. هل تتركنى لانام ؟.

قال :

ـ ولو .. أما وعدتنى أن تحكى لى ما قاله لك ايليس من حديث المشير معه ؟.

قلت له ببساطة :

ــ لم يقل لى شيئا فى هذا الموضوع .

قال بحدة :

ــ شوها الحكى

قلت بهدوء :

ــ هذا ما حدث ..

وأقفل التليفون غاضبا ، ولكن الصمت فى الحجرة بعد بضع دقائق تمزق وتبدد من طرقات عنيفة على الباب ، وقمت لافتح ، وكان هـو بنفسه ضابط المكتب الثانى الشاب .. جاء ثائرا غاضبا بعد أن عرف أن هارى أيليس نفسه غادر الفندق فى الفجر وانطلق على طريق بيروت .

***

ولقد أطلت فى هذه الحكاية عن عمد ... فهى فى رأيى ترسـم صورة عشتها بنفسى ورأيتها .

وهذه أول مرة أسمح لنفسى أن ارويها ، وان كانت قـد اثارت فى عديد من المناسبات أسئلة كثيرة فى خاطرى .

* مثلا ... هل يعرف عبد الحميد السراج بما كان يفعله ضابطه الشاب ؟.

* مثلا ... هل يمكن أن تصل الامور الى هذا المدى بغير علمه ؟

* مثلا ... اذا كان هذا يمكن أن يحدث معى ــ وأنا صحفى ــ يملك أن يكتب وأن يتكلم ، فما الذى يمكن أن يحدث مع غيرى ممن لا يملك وسيلة للكتابة أو للكلام ؟

* ومثلا ... وهذا هو الاهم .. اننى أجىء الى دمشق زائـــرا ثلاث مرات أو أربعا فى السنة .. فما الذى يحدث للذين يعيشون فيهـا طول السنة ؟

ولست أريد أن أقسو على عبد الحميد السراج ، فلقد يكون فيما جرى ، لغيرى ولى ، كثير لا يعلمه .. ولكن المشكلة أن الاجهزة البوليسية اذا تركت من غير حدود تقف عندها فانها تكتسب طبيعة سرطانية قاسية ومدمرة .

***

كانت هذه لمسات الضوء ولمسات الظل فى صورة عبد الحميد السراج قبل الوحـــدة ..

وفى عهد الوحدة كبر عبد الحميد السراج .

لم يعد رئيس المكتب الثانى .. وانما وصل حتى أصبح نائبا لرئيس الجمهورية ...

وكانت لمسات الضوء فيه من قبل الوحدة نقطة انطلاقه الى مكانته البارزة فى النظام الجديد .

كان ديدبان الحراسة ضد المؤامرات فى الفترة الحرجة .

كان منظم عملية نسف خط أنابيب البترول .

كان ممثل دور البطل فى الدراما العنيفة التى ظهر فيها الملك سعود فى دور قوى الشر الرجعية التى حاولت بالمال وبالغواية أن تفسد وأن تحطم .

ومن هذه الانطلاقة أصبح لعبد الحميد السراج وضع خاص فى تجربة الوحدة .

وكانت لهذا الوضع الخاص احتمالاته .. وأخطاره .

***

أولا - اصبح عبد الحميد السراج بالنسبة لكل الذين يكرهون الوحدة هدفا يسهل التركيز عليه .

ان ظروف الحوادث نفسها وضعته موضع البطل فى مواجهة قوى الشر ...

ولما بدأت قوى الشر تضرب انتقاما لنفسها كان محتما أن تكون بعض ضرباتها موجهة له .

هكذا أخذته الرياض ، وعمان وبغداد تحت الحكم الهاشمى - وبعده لسوء الحظ - هدفا مكشوفا لحملاتها ، وأخذته قوى الاستعمار أيضا وراء هؤلاء ، وفى ذيل الجميع بطبيعة منطق الحوادث ... أخذته أيضا اسرائيل .

ثانيا - أصبح عبد الحميد السراج بالنسبة لعدد كبير من ساسة سوريا القدامى ، حتى أولئك الذين انساقوا منهم فى صدر تيار الوحدة - خطرا داهما ، بحكم ما يعرفه عنهم .. وقد كان عبد الحميد السراج يعرف عنهم الكثير ويبقيه تحت يده ، ومن هنا فانى لا أتصور أن حكومة الانقلاب فى دمشق سوف تحاكم عبد الحميد السراج .. فلو أعطيت له فرصة للمحاكمة وتكلم لاستطاع وهو فى قفص الاتهام أن يضع الحبل

حول رؤوس الذين يدعون عليه بالاتهام ، ولتمكن منهم قبل أن يتمكنوا منـــــه

وطوال سنى الوحدة .. كان عبد الحميد السراج هدفا لحمـلات الكراهية المنظمة والهمس المسموم .

***

ثالثا ــ زاد على ذلك كله ، وضع آخر ، يختلف فى طبيعته .

ذلك هو علاقة عبد الحميد السراج بغيره من كتلة الضباط الوطنيين فى الجيش .. هؤلاء الذين كانوا يسندونه فيما مضى ، ثم وجدوه فجأة يكبر عليهم ويتقدمهم فى الشوط بكثير .

هنا مشكلة انسانية بحتة ، سمعت واحدا من الضباط الوطنيين يعبر عنها مرة فى صدق وطيبة بقوله :

ــ لقد كانت لعبد الحميد فى حمل الجمل قشة ، ولكنه بالقشــة أخذ الجمل بما حمل .

***

ولقد كان يمكن أن يتحسن الموقف لو أن لمسات الظل فى شخصية عبد الحميد السراج توارت أمام لمسات الضوء ، وخبت بعـد انطلاقة عبد الحميد السراج الكبرى بعد الوحدة الى آفاق النجوم .

لكن لمسات الظل ، حتى فى آفاق النجوم ، بقيت فى مكانها .

* القوة ... حب القوة
* القوة كفاية ... وليست كوسيلة لتغيير ثورى
* الفكرة البوليسية .

***

ومن القوة ، من حب القوة ، كانت المشاكل التى تعرض لهـــا عبد الحميد السراج ، وعرض لها الجمهورية العربية المتحدة كلها ، لكى تكون كلمته فى النهاية هى الكلمة فى سوريا .

وكان عبد الحميد السراج ، قبل اقامة الحكومة الموحدة للجمهورية العربية المتحدة ، فى شهر يوليو الماضى ، من اكثر المتحمسين لتوحيـد الحكومة والغاء المجالس التنفيذية .

ولكن الواضح اليوم ، أنه كان يتصور وقتها ، أن طبيعة الظروف سوف تتركه نائبا لرئيس الجمهورية فى دمشق .

وفى الظروف السائدة فى سوريا أيامها كان ذلك أمرا يصعب قبوله.

ولربما كانت من هنا حساسية عبد الحميد السراج بعد أن عرف أن منصبه يقتضيه العمل فى القاهرة .

كذلك من هنا المشكلة التى ثارت بينه وبين المشير عبد الحكيم عامر الذى كلف بالسفر الى دمشق والبقاء فيها فترة توحيد الحكومة وفترة تطبيق الاجراءات الاشتراكية الثورية .. قوانين يوليو سنة ١٩٦١ .

***

ولو كانت القوة فى تصور عبد الحميد السراج وسيلة فى يد الثائر لدفع التغيير الثورى - وليست غاية فى حد ذاتها لاختلف تصرفه فى المشكلة التى أثارها بسبب مهمة المشير عبد الحكيم عامر فى دمشق .

فى تلك الفترة الحساسة فى أعقاب صدور القوانين الاشتراكية ، وبدء تنفيذها ، عاد عبد الحميد السراج فجأة من القاهرة الى دمشق ، يجمع أوراقه من مكتبه فى وزارة الداخلية ويقول : انه لا يريد أن يعمل .

ثم ترك بعض ضباطه المقربين اليه دورهم كحراس للامن وراحوا يتصلون ببعض العناصر لكى تثير الشغب وتحرك القلاقل ليكون الضغط الذى يبقى بعده - عبد الحميد السراج - وحده فى سوريا .

وكان بعض هؤلاء الضباط فى علاقاتهم بالناس قد تركوا أثرا رؤى معه ضرورة ابتعادهم عن دمشق ، وفوتح عبد الحميد السراج فى ذلك من قبلها ، وطلب اليه أن ينتدبهم معه للعمل فى القاهرة وقبل ، ولكنهم فجأة تلكأوا فى القدوم الى القاهرة وانساقوا فى نشاطهم العصبى بحماقة لا يبررها أى قدر من افتراض حسن النية .

***

ثم جاء ضياع أعصاب عبد الحميد السراج ، هذا الضياع الذى حمله على الاستقالة .. جاء بذلك القرار الذى أصدره المشير عبد الحكيم عامر بتاريخ ١٨ سبتمبر ١٩٦١ والذى نص فيه على ما يلى :

«يمنع توقيف - اعتقال - أى شخص الا بمذكرة من النيابة العامة أى أنه لا يجوز لاية سلطة من سلطات الامن توقيف أى مواطن الا اذا كان هذا التوقيف عن طريق السلطة القضائية . أى النيابة العامة» .

وفى نفس اليوم أصدر المشير عبد الحكيم عامر قرارا بتعيين مدير جديد للامن العام بدلا من العقيد مروان السباعى .

وكان العقيد مروان السباعى مشرفا على ما كانوا يسمونه بالمكاتب

الخاصة التابعة لوزارة الداخلية تعطى نفسها سلطة اعتقال أى مواطن والتصرف معه كما تشاء ، بحجة دواعي الامن .

ومع ان انهاء الجو البوليسى كان رغبة شعبية فى سوريا .

ومع أن بعض الذين كانوا يعملون فى البوليس فى خدمة الامن بدأوا فجأة يعملون ضد الامن بالتحريض على الاثارة وتحريك القلاقل حتى فى أوساط العمال وفى داخل الاتحاد القومى ذاته .

مع ذلك كله ، فان عبد الحميد السراج اعتبر القرار الذى صدر بمنع اعتقال أى مواطن عن غير طريق السلطة القضائية ، وبتغيير مدير الامن العام ، اعتبره على حد قوله «شرشحة» له .

ومن ثم أصبح الموقف فى دمشق بالغ الدقة .

***

وصدر أمر من القاهرة بأن يركب المشير عبد الحكيم عامر ، ومعه السيد عبد الحميد السراج طائرة واحدة ويجيئان معا اليها لمقابلة رئيس الجمهورية .

واجتمع الرئيس جمال عبد الناصر بكل منهما فى القاهرة ، ثم اجتمع بهما معا ، ثم توالت اجتماعاته مع عبد الحميد السراج يحاول اقناعه بمنطق العقل أن لا ينساق وراء عصبيته .

وكان فى المشكلة جانبها العاطفى ، وهو أن جمال عبد الناصر يحب عبد الحميد السراج كشاب عربي وطنى مخلص ، ولكنه بالتأكيد يحب شعب سوريا أكثر منه .

كان يحبه وهو يرى الضوء فى شخصيته ويرى الظل .

وكان أمله أن يتمكن الضوء يوما من الغلبة على الظلال كلها وتبديدها ...

وفعل جمال عبد الناصر مع عبد الحميد السراج ما لم يفعله مع غيره .. قابله خمس مرات ، استغرقت ما يقرب من عشرين ساعة . حاول فيها أن يجعله يرى الحقيقة كما هى .

كان بين ما قاله جمال عبد الناصر :

ـ اننى لا أستطيع أن أفهم تصرفاتك وتصرفات رجالك فى دمشق.

لقد قابلتكم جميعا ـ أنت وعدد من الوزراء السوريين ـ فى الاسكندرية فى شهر يوليو الماضى وتحدثت اليكم عن نيتى فى توجيه حكومة الجمهورية العربية المتحدة ، بل ويومها تحدثت اليكم بصراحة ليس بعدها صراحة ..

قلت لكم يومها أننى لا أستطيع أن اترك الأحوال فى الأقليم السورى تمضى كما كانت تمضى .

لقد كانت لكل منكم فى الاقليم جماعته ومعنى هذه الجماعات المتفرقة أن يتمزق الوطن الواحد ..

قلت لكم أنكم ، وأنتم دعاة الوحدة وأنصارها ، قد سببتم لى من المتاعب ما لم يسببه أعداء الوحدة وخصومها وانه لولا ايمانى بالجماهير السورية نفسها ، ولولا ثقتى فيها ، لكنت طلبت من شكرى القوتلى أن يتسلم رياسة الجمهورية فى سوريا ويعفينى منها ، ولكنى فى سبيل الجماهير السورية وحدها أتحمل ما أتحمله .

ولقد اخترتك نائبا لرئيس الجمهورية وأعطيتك أوسع الاختصاصات وطلبت منك قبل سفرى الى بلجراد لحضور مؤتمر الدول غير المنحازة أن تتحمل مسئوليتك الكبيرة على مستوى الجمهورية كلها ، ولكنى فوجئت بما فعلته بعد ذلك فى دمشق ، ثم بالذى فعله بعض رجالك ، واتضح لى أن كل الذى تريده هو أن تبقى حاكما لسوريا .. وأنا أريدك مسئولا فى الجمهورية العربية المتحدة كلها .

ثم من ناحية أخرى أنت تعرف رأيى فى كثير من اجراءات البوليس فى دمشق ، ولقد قلت لك أنها فى كثير من الاحيان تضر بسمعة الجمهورية أكثر مما تخدم أمنها ..

وأنا أقدر حسن نيتك فيما تفعله وأفهم أن الاخلاص للجمهورية هو الذى يدفعك اليه ولكن الامور لا تحتاج الوصول الى هذا المدى الذى يصل اليه بعض رجالك فى بعض الاحيان .

***

ولم تستطع لمسات الضوء ان تظهر لمسات الظل .

واستقال عبد الحميد السراج .

وهو الآن فى سجن المزة فى دمشق ، وبالرغم من كل شىء ، فانى أشعر أن جزءا من عواطفى معه وأسأل نفسى :

— ترى ماذا سيكون من أثر المحنة عليه ؟

وفى مناى أن يكون الضوء فى شخصيته قد انتصر على الظلال ، وصهرها وأذابها .

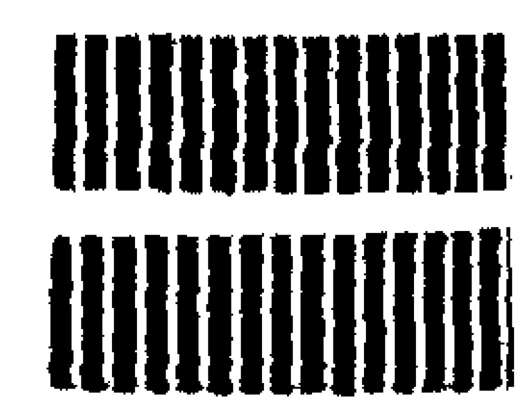
لا من أجل شىء ، ولكن من أجله هو كشاب عربى وطنى مخلص تحمل فى التاريخ المعاصر للامة العربية كثيرا من المسئوليات ، ولعب يوما من الايام دور البطل أمام قوى الشر الرجعية ، وارتفع مرة من المرات الى آفاق النجوم .

٩

من هم الذين قاموا بالانقلاب في سوريا

ما هو دور الملك سعود بالتحديد في تدبير الانقلاب

● الملك سعود



على امتداد ثمانية أحاديث ــ وهذا هو الحديث التاسع الآن ــ مضيت أروى قصة التجربة الاولى للوحدة العربية .

بقدر ما اتيح لى من الضوء رأيت .

وبقدر ما سمعت من الوقائع تكلمت .

وبقدر جهدى حاولت أن انسج خيوط الضوء ، وان أربط الوقائع بعضها ببعض ، لتكون فى النهاية صورة واضحة ، او أقرب ما تكون الى الوضوح لما جرى فى سوريا .

ولم يبق عندى الآن كثير أقوله ، فلقد انتهت ــ أو أوشــكت أن تنتهى ــ حكاية الماضى ــ على الاقل فى خطوطها العريضة ، والحاضر الان هو الذى يحتــل المسرح كله ... هو الذى يتحرك ، وهو الذى يتكلم، وهو الذى يكشف !

لكننى تلقيت آلاف الخطابات من الجمهورية العربية المتحدة ومن خارجها ، من أصدقاء الفكر ، الذين يلتقون معى على هذه الصفحة ، فى الصباح من يوم الجمعة كل أسبوع . وفى هذه الخطابات اســتأذن ان أعرض بعضها وان أقول كلمات سريعة فيه .

***

سؤال ــ من هم هؤلاء الذين قاموا بالانقلاب على الوحدة ؟

***

والرد :

ــ لكى أكون منصفا فلا بد لى أن أقول منذ البداية ان الاخطاء والاخطار التى وقعت فيها وتعرضت لها تجربة الوحــدة هى التى تولت فتح الثغرة التى نفذ منها الانقلاب على الوحدة .

الاخطاء التى نتحمل جميعا مسئوليتها ، كل منا فى نطاقه — ولقد تكلمت عنها بالتفصيل فيما مضى من احاديث — جردت الوحدة فترة طويلة من أيجابيتها — حتى تمكنت قوانين يوليو الاشتراكية من استعادة الزمام ، ولكن زمانا طويلا ، غاليا وعزيزا ، كان قد ضاع ، وتسرب ، كما تضيع وتتسرب قطرات الماء على رمال الصحراء .

والاخطار التى واجهتها التجربة ، من هؤلاء الذين أفزعتهم التجربة ورأوا فيها تهديدا محققا لمصالحهم ، ومن ثم كانت حربهم عليها لا تعرف الهوادة من أول يوم الى آخر يوم ... بل قبل أول يوم ، وبعد يوم آخر

ولقد ربطهم جميعا فى حربهم على التجربة حلف غير مقدس ، حشد المتناقضات صفا واحدا ، فى مشهد غريب من مشاهد التاريخ العربى ، يكفى ان رأينا الملك سعود يصرف امواله من أجل نفس الاهداف التى يكتبها خالد بكداش فى منشورات حزبه الشيوعى السرية ضد الوحدة .

ولا أتكلم هنا عن دول الاستعمار فموقفها معروف مكشوف ، كذلك لا اتكلم عن اسرائيل ولا عن صاحب الجلالة الهاشمية فى عمان ، فكلاهما ذيل أو مخلب قط ، لقوى أكبر منهما تحركهما وتتخذ منهما أقنعة وأدوات .

الاخطاء فى تجربة الوحدة سببت موقفا سلبيا

والاخطار فى تجربة الوحدة سببت موقفا دفاعيا

ومن هنا تسلل الانقلاب ، من هذه الثغرة التى فتحتها الاخطاء والاخطار .

هذه مقدمة للرد على السؤال .

***

وللرد على السؤال ذاته — بعد ذلك — فانى أقترح ان ندرس بعض النماذج البشرية لبعض الذين قاموا به ، ثم نستخلص من هذه النماذج نتيجة نطمئن اليها ونستريح ..

نبدأ أولا بأبرز الذين تصدروا قيادة الانقلاب فى يومه الاول :

العقيد حيدر الكزبرى .

الحقائق الثابتة فى تاريخه كما يلى :

« لم يتلق حيدر الكزبرى تعليما عسكريا على مستوى يؤهله للقيادة فلقد كان جاويشا تحت خدمة الفرنسيين أيام احتلالهم لسوريا ، ثم ترقى بعد الاستقلال بحكم الحاجة الى ضباط .

وكان أقصى ما يستطيع أن يصل اليه فى الجيش السورى بعد ذلك هو رتبة العقيد ثم يخرج الى المعاش بعدها .

وكانت المدة الباقية لحيدر الكزبرى فى الخدمة قد انتهت لم يبق منها الا ثلاثة شهور .

وكان المنصب الذى يخدم فيه عسكريا ، هو قوات البادية ، وهى قوات أشبه ما تكون بقوات مكافحة التهريب ، وكان عملها مركزا فى الحدود مع الاردن ، حيث لم يكن فى التصور ولا فى الخيال أن تقوم عمليات عسكرية تحتاج الى قوات على مستوى عال من الكفاءة والتدريب ، فلقد كانت مثل هذه القوات دائما لا تبتعد عن الخطوط مع اسرائيل ، وبعض منها كان يقف فى الشمال على الحدود مع تركيا .

ولم يكن حيدر الكزبرى سيخرج من الجيش السورى ، باعتبار انه وصل فى صفوفه الى أقصى ما تسمح له الظروف أن يصل فقط ، وانما كان خروجه أيضا مقررا بناء على تحقيقات أجريت معه تناولت طريقة حراسته للحدود مع الاردن ، فلقد كانت هناك قرائن تشير الى أن حيدر الكزبرى كان يحرس الحدود لصالحه ... أى أن الذى يدفع يمر .

ولست أريد أن اتعرض الى حياة حيدر الكزبرى ، ولكنها مما يسهل تصوره فى مثل ظروفه ، شاب من اسرة غنية ، خدم تحت الفرنسيين لان الخدمة تحت الفرنسيين وقتها جاه ونفوذ ، ثم هو يحب أن يصرف ويحب أن يسهر ، والعلم فى حياته قليل ، والقيم أقل ، ثم هو على الحدود بقرب عمليات التهريب .

كانت كل الظروف تؤهله . والحال كذلك ، لان يكون صيدا صالحا لرجال الملك حسين ، وفى مقدمتهم خاله الشريف — ! — ناصر ، الذى يتكسب عيشه أصلا واساسا من التهريب ، ومن التهريب يصنع الملايين .

وفى مثل الاحوال السائدة فى العلاقات ما بين الملك حسين وما بين الجمهورية العربية ، كان يمكن أن تتحول الشركة فى عمليات التهريب .. لتكون شركة فى عمليات التخريب ... وهكذا كان !

وقبل الانقلاب ، وهذا الآن ظاهر مما تكشف من معلومات ، كان حيدر الكزبرى هو الذى يصرف فى الاعداد للعملية ، وهو الذى يقدم المال لمن يقدر على شرائهم بالمال .

ويوم الانقلاب ، وقبل أن تصل سلطته الى خزائن الدولة فى دمشق ، كان حيدر الكزبرى هو خزينة الانقلاب .

وفى يوم الانقلاب أيضا ، لم تكن فى ذهن حيدر الكزبرى فكرة أو عقيدة ، وانما كان « القتل » وحده هو الذى يناديه

وحينما احاطت مصفحات حرس البادية بمبنى القيادة العامة للجيش السورى ، كان حيدر الكزبرى . هو الذى وجه سؤالا واحدا لاحد الحراس الواقفين وراء سور القيادة :

ـ اين المشير ؟ .

وأراد الذى سمع السؤال أن يكتسب وقتا على ما يبدو فكان رده :

ـ المشير فى بيته !.

ولم ينتظر حيدر الكزبرى ثانية واحدة بعدها ... وانما أخذ بعض مصفحاته وانطلق الى الشارع القريب الذى يقع فيه بيت المشير ، ودون مقدمات أمر هذه المصفحات بفتح مدافعها على البيت بغير حساب، وكانت طلقات مدافع المصفحات على بيت المشير عبد الحكيم عامر هى التى أيقظت دمشق ذلك الصباح !.

وسقط حراس البيت الثلاثة قتلى ...

واندفع البدو من جنود حيدر الكزبرى الى البيت ، يحطمون كل شيء فيه ويطلقون الرصاص بغير وعى .

ولم يكن المشير فى البيت ، وانما كان فى مقر القيادة .

وأدرك حيدر الكزبرى أن الذى أجاب على سؤاله أراد أن يكسب وقتا فعاد بمصفحاته مرة ثانية الى مقر القيادة غاضبا ينتفض .

كان واضحا فى ذلك الصباح ... انه لم يكن مجرد مغامر مأجور ، وانما كان فى ذلك الصباح أيضا ، قاتلا مأجورا !.

هذا واحد من الذين قادوا الانقلاب .

بل هذا نوع من الذين قادوا الانقلاب .

نوع المغامرين !.

***

ونموذج اخر ... عينة بشرية اخرى

العقيد عبد الكريم النحلاوى

كان عبد الكريم النحلاوى كاتما لاسرار الجيش ، ثم أصبح مديرا لمكتب القائد العام لشئون الجيش الاول .

كان يبدو دائما ـ بوجهه الابيض ـ وقامته القصيرة ونظاراته السميكة ـ ناعما لينا .

وكانت بيده كل تنقلات الضباط فى الجيش السورى بحكم منصبه ككاتم لاسرار الجيش .

ولقد أوضح الانقلاب ، أن عبد الكريم النحلاوى فى تصرفاته لم يكن يصدر عن الرغبة فى تعزيز قدرة الجيش السورى على الدفاع ضد اسرائيل وانما كان يصدر على الرغبة فى تعزيز امكانية احداث انقلاب .

ومن الغريب أن « النحلاوى » كان موضع الثقة ، ومع ذلك كان فى نفس الوقت أداة فى يد الخيانة .

ولا بد أن للرجل فى أعماقه سرا ... ولكن أين سره ؟.

وهناك يقولون الآن أن المال ، كان سر النحلاوى ، وكان النقطة التى انكسرت عندها مقاومته .

ومنذ عام كان يبدو أن النحلاوى يواجه حالة ضيق مالى ، لدرجة انه توسط وبذل كل الجهود ليثبت ان احدى اذنيه فقدت بعض قدرتها على السمع أثناء الخدمة وبسببها ، حين كان يخدم فى الوحدات ويسمع كل يوم طلقات الرصاص ، وكان هدفه من كل الوساطات والجهود أن يحصل على ثلاثة الاف ليرة تعويضا له عن بعض سمعه ، وحصل عليها بالفعل قبل شهور من الانقلاب ، ولكن يبدو أن الثلاثة الاف ليرة كانت أقل مما يحتاج اليه .

ومع ذلك فلقد أكون مفرضا فى حديثى عنه قبل الانقلاب .

لذلك أقفز الى حوادث ما بعد الانقلاب وتأمل تصرفا لعبد الكريم النحلاوى منذ أيام .

حينما انقسم قادة الانقلاب فيما بينهم وقررت الغالبية منهم اعتقال حيدر الكزبرى بعد أن انكشفت صلاته المريبة بحكام عمان وأصبحت حديث الشارع فى دمشق ، حين حدث هذا ، انحاز عبد الكريم النحلاوى فورا الى الجانب الأقوى بل وكان هو الذى تولى عملية اعتقال حيدر الكزبرى .

وكان الخوف من العملية مبعثه وجود بعض قوات البادية داخل دمشق .

وذهب عبد الكريم النحلاوى الى حيدر الكزبرى بحكاية أعدها وحبك تفاصيلها .. قال له :

ـ ان عبد الحميد السراج ، المعتقل في سجن المزة قـــد أضرب عن الطعام وصمم على المضي في الاضراب أو يفرج عنه .

واذا استمر عبد الحميد السراج في اضرابه وسرى الخبر الى الناس فلقـــــد يؤثـر فيهم .
واذا بقى الخبر مكتوما ومات عبد الحميد السراج من الجوع فلسوف يقولون اننا قتلناه .
كذلك فان لدى عبد الحميد السراج أسرارا كثـــيرة يطوى عليها صدره ونحن نريد أن نعرفها .

وانت تعرف عبد الحميد السراج من قديم ، وليس بيننــــا من يستطيع أن يتحدث اليه غيرك .

وركب حيدر الكزبرى سيارته الى سجن المزة في دمشق .

دخل السجن بسيارة أنيقة فارهة يرفرف عليها علم !.
ولم يخرج ..

وفى نفس الثانية كان عبد الكريم النحـلاوى قد أصـدر أمرا زور عليه امضاء حيدر الكزبرى بتحرك بعض قوات البادية الى حوران

لقد وقع المغامر ، في يد المتـــآمر ! .

وهذا واحد من الذين قادوا الانقلاب

بل هذا نوع من الذين قادوا الانقلاب

نوع المتآمرين ..

***

ولكنهم ليسوا جميعا أحد هـذين النوعين ، بلا شذوذ أو استثناء

أقول هـذا بحزف الانصاف حتى مع الذين اعتقـد انهم ارتكبوا في حق أنفسهم وفى حق وطنهم خطأ العمر كله ! .

ليسوا جميعا : اما مغامر واما متآمر .

وانما بينهم بعض الذين ضاعوا بين النوعين .. وخدعوا وغرر بهم ولست أعـرف من هؤلاء ولـكنى أحسست بتأثيرهم في عمليـة

ارغام مأمون الكزبرى ـ رئيس وزارة يوم الانقلاب ـ على الاستقالة

كانت الوزارة تحت الحاح أصـحاب المصالح ـ والشركة الخماسية

في مقدمتهم ـ قد أعدت العدة لالغاء بعض القوانين الاشتراكية ، وبينها قرار تاميم الشركة الخماسية .

ومأمون الكزبرى نفسه صاحب مصلحة مباشرة فى الشركة الخماسية ، فهو زوج ابنة رئيس مجلس ادارتها ، ثم هو محاميها الكبير .

وكان قرار الالغاء قد عرض على بعض ضباط قيادة الانقلاب وبينهم حيدر الكزبرى وعبد الغنى الدهمان وموفق عصاصة وعبد الكريم النحلاوى ، واقروا صدوره أثناء اجتماع عقدته الوزارة فى مبنى قيادة الجيش .

ثم نزل أحد كبار الموظفين يحمل القرار

وسمع به بعض الضباط فى القيادة وفقدوا اعصابهم .

واقتحم عدد منهم قاعة الاجتماع ـ بعد أن كانوا قد أعدوا للامر عدته ـ وسألوا :

ـ هل حقيقة صدر مثل هذا القرار بالغاء تأميم بعض الشركات؟ .

ولحوا على وجوه الحاضرين ما أكد معلوماتهم .

وقال بعضهم باللهجة السورية الشهيرة :

ـ هذه خيانة ولو سمع بها الجيش لقلب الدنيا على رؤوسكم! .

وحاول بعض قادة الانقلاب .. أن يمثلوا دور القادة وأن يأمروا الذين اقتحموا القاعة بأن يخرجوا .

وقال أحد هؤلاء القادة وأظنه حيدر الكزبرى :

ـ هذا عصيان وسوف يحاكم المشتركون فيه !

وقال الضباط الذين اقتحموا القاعة لحيدر الكزبرى !

ـ اسمع .. قبل أن نتكلم تعال هنا من النافذة وانظر ماذا يحدث خارج مبنى القيادة !

ونظر حيدر الكزبرى من النافذة ، وكانت أبراج الدبابات التى تحرس مبنى القيادة تدير مدافعها من حيث كانت مصوبة الى الخارج .. لتصوبها الى الداخل .. الى مبنى القيادة .

وقال الضباط الذين اقتحموا القاعة :

ـ أن هناك حول القيادة زملاء لنا وقد اتفقنا أن يدكوا مبنى القيادة فوق رؤوسكم ورؤوسنا نحن أيضا اذا اقتضى الامر .

وخضع مجلس الوزراء وخضع الذين كانوا يحضرون جلسته من

قادة الانقلاب وابدوا — فى هذه اللحظة فقط — استعدادهم للتفــاهم ، ابقاء للود وحتى لايشمت الناس .

وتم سحب قرار الغاء التأميم قبــل دقائق من الموعد المحـــدد لاذاعته .. بل وكان هذا القرار قد وصل فعلا الى اذاعة دمشق !.

وهذا نوع آخر من الذين قادوا الانقلاب .

نوع الذين صورت لهم الامور فى بدايتها على نحو يختلف مع حقيقتها

نوع الذين تاهوا فى الخضم العاتى ولم يجــدوا حتى الان برا يرسون عليه ! .

***

سؤال ثان — ان دور الملك حسين واضح فى انقلاب سوريا من اول دقيقة ، ولكن ماهو دور الملك سعود ؟

***

والرد على هذا السؤال يحتاج هو الاخر الى مقدمة سريعة ، أقول فيها اننى لا أملك — هذه اللحظة — وثائق قاطعة تدين الملك ســعود كتلك الوثائق القاطعة التى أدانته فى محاولته الشهيرة لضرب الوحدة ، بواسطة الشيكات الثلاثة التى دفعها لعبد الحميد السراج فى فبراير من سنة ١٩٥٨ بمبلغ مليون وسبعمائة وخمسين ألف جنيه استرلينى!.

على ماذا اذن استند فى الاتهام اذا لم أكن أملك الوثائق ؟

سندى فى الحقيقة هو مزيج من التجربة الماضية ، ومن المعلــومات التى تسربت عن الملابسات الاخيرة ، ثم من القرائن التى تسير الى دور الملك !

***

والتجربة الماضية معروفة وهى مؤامرة الملك سعود التى كشفهــا عبد الحميد السراج واستطاع تدعيمها بما لايقبل الشك من الوثائق.

وليس فى منطق الملك سعود مايسمح له أن ينسى ثأره من عبــد الحميد السراج ، أو ثأره من الوحدة التى تمت قسرا عنه ، وفى ظروف أوقفته أمام الرأى العام العربى كله عاريا لا يجد خرقة ممزقة يســـتر بهـــا نفسه وهـــو الذى يملك التصرف فى الملايين نقـــدا وعدا ! .

كذلك فلقد تضاعفت لدى الملك أسباب الحقد على تجربة الوحدة، بعد أن تحولت لتكون فى نفس الوقت تجربة الاشتراكية

ومنطق الملك سعود هنا أيضا يمكن فهمه وتلخيصه فى كلمة سريعة .

هى انه اذا لم يسارع هو ويتغذى بالاشتراكية فان الاشتراكية سوف تتعشى بجلالته ! .

بهذه البساطة ، وعلى « بلاطة » كما يقولون هنا فى ريف مصر !.

***

وبعد هذا يجىءدور المعلومات ،والمعلومات ، وأنا واثق منمصادرها تؤكد ان الملك سعود، كان مستعدا أن يمضى فى الشوط الى آخره ليضرب الوحدة ويحول دون الاشتراكية .

بالقبلة اذا استطاعت قبلات الخدود ان تهدىء اندفاع التجربة

بالقنبلة لكى تتفجر التجربة شظايا ما دامت القبلات لم تصنع أثرها

ولقد كانت مشكلة الملك سعود انه لايريد أن يتصرف علىشكل مكشوف يعرضه لما تعرض له فى المرة الاولى .. لهذا فقد كان صاحب الجلالة يتحسس طريقه بكل الحذر الكامن فى سراديب القصور وبكل الدهاء الذى يملا اجواء الحريم المعبقة بالبخور والعطور والسموم !.

والمعلومات التى توصلت اليها تفيد انه فى أوائل هذا العام اتصل الملك حسين بالملك سعود وأخطره بأنه قرر العمل فى سوريا ، وبأن عناصر كثيرة على اتصال به فى هذا الصدد

وكان رد الملك ان له ملاحظتين

● انه لايستطيع أن يقترب من العملية مباشرة لانها صعبة بحكم تجربته لها مرة من قبل ، ولان موقفه هوبالذات فيهاحساس ولايحتمل هزتين فى نفس الميدان

● انه على أى حال يبارك أى جهد يبذل فيها ، وكل مايستطيعأن يساهم به هو المال على شرط أن يدفعه هو للملك حسين ثم يخلى نفسه من أى مسئولية بعدها

وفى ذلك الوقت دفع الملك سعود مبلغا من المال ، وفى معلوماتى انه لم يكن مبلغا كبيرا فانه حتى هذه اللحظة كان يشك فى امكان نجاح العملية ، ولكن نوازع الامل كانت تشده على اى حال وتناديه أن لعل وعسى هذه المرة يسهل الصعب ويلين الحديد ! .

***

ومضت اتصالات الملك حسين مع حيدر الكزبرى شوطا كبيرا وكان حيدر الكزبرى قد مد نشاطه فى كل اتجاه واستطاع بما فى يديه

من الوسائل آن يكون مجموعة من الضباط على استعداد لمسايرته فيما يريد

فى ذلك الوقت تسلل حيدر الكزبرى عبر الحدود التى كان حارسا عليها الى داخل الاردن فقابل الملك حسين وقدم له صورة كاملة لنشاطه وللمدى الذى وصل اليه هذا النشاط

وكانت الصورة فى حقيقة الامر مشجعة .. بل كانت أكثر من مشجعة من وجهة نظر احتمالات الانقلاب .

بل فى ذلك الوقت قال حيدر الكزبرى للملك حسين ، انه سمع ان الرئيس جمال عبد الناصر سوف يصل الى دمشق فى منتصف شهر أغسطس قبل ذهابه الى مؤتمر بلجراد وذلك ليحضر أسبوع شباب الجامعات فى سوريا .

ومن ثم فان الفرصة وقتها قد تكون مواتية ..

يحدث الانقلاب ، وجمال عبد الناصر فى دمشق ، ثم ينتهى الامر كله مرة واحدة ، وتسيطر قيادةالانقلاب على الجمهورية العربية المتحدة باقليميها ، واذا أرادت مصر بعد ذلك ان تنفصل ، فلتفعل ما يحلو لها ، ولسوف تضيع الدنيا فيها على أى حال بعد أن يحدث لجمال عبد الناصر مايحدث فى دمشق ، ويحدث مايحدث أيضا لمن يكونون معه من رجال الجمهورية وأغلب الظن أن نوابه جميعا والوزراء سوف يكونون فى صحبته فى دمشق لحضور أسبوع شباب الجامعات !

***

وكانت اللعبة كبيرة جدا على الطفل الصغير الذى يحكم فى عمان.

ولم ينتظر دقيقة واحدة ، بل ركب الطائرة فورا الى الرياض وفى اول اغسطس ١٩٦١ كان مع الملك سعود نفسه يفضى له بالامر من غير وسطاء وبدون ورق ثم يطلب منه مايريد أن يطلبه من الاعتمادات لنجاح الخطة المحكمة ! .

وسمع الملك سعود كل التفاصيل .

وراودته احتمالات النجاح .. بل الحت عليه خصوصا وان قوانين يوليو الاشتراكية احدثت أصداء بعيدة الاثر فى العالم العربى كله.

ودفع ، دفع هذه المرة بلا شيكات .. ودفع مباشرة للملك حسين

ومن القرائن التى تثير الاهتمام انه بعد نجاح الانقلاب واتجاه الانظار بالشبهة الى الملك سعود ، لم يجد الديوان الملكى فى الرياض ما ينفى به الشكوك الا أصدار بيان رسمى يقول بالحرف :

« ان الديوان السعودى يتحدى كائنا من كان أن يبرز أى وثيقة تثبت هذه الاكاذيب المفتراة على حضرة صاحب الجلالة الملك المفدى سعود » ..

ولقد كان هذا البيان فى حد ذاته شبه اعتراف .

شبه اعتراف بأن الملك تعلم درس الماضى ، وعرف هذه المرة كيف يدفع دون أن يترك وثائق تكشف دوره !.

***

وكان مقررا أن يسافر الملك سعود الى مؤتمر بلجراد ، ومن المحقق أن صاحب الجلالة كان يستطيع أن ينتهز المؤتمر فرصة يظهر فيها أمام العالم وكأنه يعمل شيئا مجديا .. أى شىء !.

ومع ذلك ، ولدهشة كثيرين ، فوت صاحب الجلالة هذه الفرصة من غير سبب ظاهر ..

وقرر أن يبقى فى السعودية قابعا ينتظر

وفى ذلك الوقت كانت المشاغل الملحة — أو كان القدر — قد غير بعض الشىء فى ترتيب الحوادث

وعدل الرئيس جمال عبد الناصر عن السفر الى دمشق قبل بلجراد وأناب عنه المشير عبد الحكيم عامر فى افتتاح أسبوع شباب الجامعات .

وارتبكت الخطة ...

***

فى هذه اللحظة تحرك الملك سعود ليسبق الحوادث ويغطى نفسه ويستعد لاسوأ الاحتمالات وهو أن يكون عدول الرئيس عن السفر الى دمشق معناه أن المؤامرة قد انكشفت .

فى هذه اللحظة كتب الملك سعود الى الرئيس جمال عبد الناصر خطابا شخصيا شرح له فيه تفاصيل اجتماعه بالملك حسين .

وكان ذلك غريبا .

بل ان الملك سعود مضى فى هذا الخطاب الى حد التعريض بالملك حسين فى عبارة وردت فى سياق خطابه حين كتب يقول أن الملك حسين طلب منه أن يتوسط له لدى شيوخ الكويت لكى يساعدوه ويساعدوا الاردن ببعض المال ، وقال الملك سعود فى خطابه بالحرف الواحد :

« ولقد قلت له اما عن موضوع العون المادى للاردن من الكويت فمن حق الكويت على الدول العربية جميعها أن تساعده فى موقفه ولو جاء هذا الموضوع قبل هذا الظرف ـ ظرف مشكلة الكويت مع العراق ـ لبذلت جهدى مع اخواننا فى الكويت لمساعدتكم ولكن بحث هذا الامر فى هذا الظرف خاصة لا تجيزه الاخلاق العربية ولكن اذا انتهت هذه الازمة فأنا اعد بأن أبذل مجهودى مع اخواننا فى الكويت» .

كان غريبا أن يتطوع الملك برواية تفاصيل اجتماعه مع الملك حسين.

وكان أغرب أن يمضى أبعد من ذلك الى التعريض بالملك حسين ، ويصفه بأنه يجاوز فى مطالبه «الاخلاق العربية» .

ولقد يقول قائل : فرط اخلاص من الملك سعود وشدة وفاء . لكن تصرف الملك سعود يوم الانقلاب لا يسمح مطلقا بهذا التفاؤل الممعن فى سذاجته ..

***

يوم الانقلاب أعرب جميع الزعماء العرب عن أسفهم للصدع الذى أصيبت به الامة العربية .

كلهم جميعا بلا استثناء ـ بالطبع الا الملك حسين وأنا لا أعده عربيا ـ أبدوا رأيهم بكلمة ، ولو كانت انشائية عابرة لا تحمل معنى الانحياز الى طرف على حساب طرف ..

حتى غير العرب أبدوا موقفهم لدرجة أن الرئيس سيكوتورى رد على برقية من مأمون الكزبرى اليه يطلب اعترافه بالوضع الجديد بعد الانقلاب فى سوريا بقوله :

«اننى لا أسمح لك أن توجه خطابا الى ، وفيما يتعلق بى فانى أعتبرك متمردا وخائنا ، ولا يمكن أن تكون لنا أية علاقة الا مع الحكومة الشرعية للجمهورية العربية المتحدة فى القاهرة» .

الناس جميعا تكلموا .. الا المخلص الوفى الملك سعود .

حين أبلغوه نبأ بدء الانقلاب ، قام ورقص بالسيف طربا وسعادة ، ثم عين الذى جاءه بالنبأ وهو السيد عبد الله أبو الخير وزيرا فى الوزارة باعتباره حامل البشرى .

ثم راح يسأل فى كل عشر دقائق :

ـ هل خلصوا على عبد الحكيم عامر أم ليس بعد ؟

وكان الملك يقول لمن حوله :

ـ اذا تركوا عبد الحكيم عامر حيا فقد يسبب لهم المشاكل .

ولما اطمأن الى نجاح الانقلاب ، دخـــــل المخلص الوفى الى قاعات الحـــريم المعبقة بالبخـــور والعطر والسمـــوم .

***

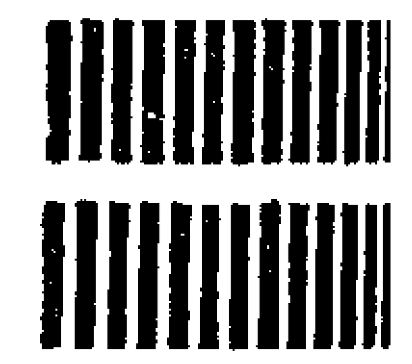
ثم أقول فى ختام الرد على هذا السؤال :

ـ شفى الله الملك سعود مما ألم به من مرض .. ورد غربته حتى أستطيع من غير تحرج أن أقول بقية ما عندى !!

طبيعة المعركة ضدنا وحدودها

أين نتجه الضربة القادمة للاستعمار والرجعية

عبد الكريم قاسم



ربما توقع منى كثيرون أن أطوى على عجل هذه الصفحات التى ما زلت أكتبها عما «جرى فى سوريا» وأن أحاول اللحاق ــ على عجل ايضا ــ بما جد ــ بعد الذى جرى فى سوريا ــ من أحداث ، وأبرزه وأهمه هذه الساعات هو تلك المناقشات الممتدة فى اللجنة التحضيرية للمؤتمرالوطنى للقوى الشعبية .

لكنى ــ رغم احساسى بما يتوقعه منى كثيرون ــ ما زلت أتلكأ .

ان المناقشات التى تجرى الان فى اللجنة التحضيرية تثيرنى ، وتشد اهتمامى ، وتحقق لى أملا طالما دعوت اليه ، وهو أن تتفتح حياتنا العامة بالمناقشات الحرة .

لكنى مع ذلك لازلت اتلكأ فى الانتقال من موضوع سوريا .

لماذا ؟
لعدة أسباب ...

بينها سبب شخصى محض هو شعورى بأنه ليس عندى الآن جديد أضيفه الى المناقشة ، فلقد قلت معظم ما عندى فى سلسلة من المقالات كان عنوانها «نظرة الى مشاكلنا الداخلية على ضوء ما يسمونه بأزمة المثقفين» ثم فى عدد آخر من المقالات بعد ذلك عندما صدرت قوانين يوليو الاشتراكية الحاسمة ، ثم أخيرا فى مقالين بالاهرام اليومى بعد صدور البيان الرسمى الذى حدد خطوات العمل من أجل التنظيم الشعبى ...

وأنا أشعر بعد كل الذى قلته بحاجتى الى أن أسمع بأكثر من رغبتى فى أن اتكلم ...

وانى لامد أذنى الى كل ما يقال الآن ، أحاول أن أعى وان استوعب وأن املأ بالتجربة الجديدة الرائعة حواسى .

واذا كانت مهمة الصحفى أن يكون جهاز ارسال .

فان من مهمـــة الصحفى ـ ايضا ـ أن يكون جهاز استقبال

ومن ناحية اخرى ، فلقد ملأنا جرائدنا كلاما كثيرا ، وأرقنا عـــلى صفحاتنا سيلا من الحبر تشكل حروفا وكلمات وعبارات نقلت آراءنا وأفكارنا بكل ما فيها من جوانب الصواب أو الخطأ .

ولقد حان أن يتكلم الذين لم يتكلموا من قبل ، وأن يشاركوا بدورهم فى حديث المصـــير ...

وانها لفرحة ليس بعدها فرحة ، أن تتاح لنا اليوم فرصة ســماع صوت الفلاح مثلا يروى بالبساطة قصة تجربته العميقة فى حياة هــذا الوادى الاخضر ، مهد الحضارة وأبو التاريخ .

وفرحة ليس بعدها فرحة ، أن تتاح لنا اليوم فرصة سماع الجامعة ممثلة فى عديد من أساتذتها يرفعون مشاعل النور فوق التجربة الثورية ويضعون فى خدمة الحياة كل ما تعلموه من قراءة الكتب .

وفرحة ليس بعدها فرحة ، أن تتاح لنا اليوم فرصة سماع جمال عبد الناصر فى دوره المجيد الجديد ، لقد رأيناه من قبل فى دور القائد ، وفى دور الزعيم ، وفى دور الثائر ، وفى دور السياسى ، ونحن اليــــوم نسمعه فى اروع أدواره جميعا وهو دور المعلم .

ان أقصى ما يستطيع أن يرتفع اليه قائد وزعيم وثائر وسياسى ، فى حياة وطنه ، وهو أن يصبح معلما لشعبه .

انه فى دور القائد والزعيم والثائر والسياسى ، يصنع لنفسه مكانه فى التاريخ ، لكنه فى دور المعلم يدخل بشعبه كله الى رحاب التاريخ .

***

هذا هو السبب الشخصى المحض من أسباب تلكئى فى الانتقال من موضوع سوريا الى غيره مما جد بعده من أحداث .

لكن لى بعد السبب الشخصى اسبابا اخرى عامة ، وعديدة .

أولها ـ أن المعركة التى جرت وتجرى فى سوريا ، ليست معــركة بقاء سوريا فى الجمهورية العربية المتحدة ، أو عدم بقائها ، ذلك أمر سهل تحسمه فى نهاية المطاف ارادات الشعوب العربية ، حين يتاح لهــــذه الارادات أن تتحرر ، وان تفرض على الأيام مشيئتها .

انما المعركة الحقيقية هى الصراع العنيف ، بين رواســـب الماضى وبقاياه فى الامة العربية ، وبين آمال المستقبل وأمانيه ومثله الأعلى .

المعركة الحقيقية هي الصراع بين قوى الاستعمار ، وبين قـــوى التحرر ، بين عناصر التقدم ، وبين عناصر الرجعية ، بين الجماهير طالبة الكفاية والعدل ، وبين المتحكمين أصحاب الخزائن المغلقة والقصـــور العاليـــة ....

ولقد كانت هذه المعركة الحقيقية ذاتها هى التى دفعت شـــعب سوريا الى طلب الوحدة مع مصر ربما قبل أوانها الطبيعى .

وكانت هذه المعركة الحقيقية ذاتها هى التى أرغمت شـــــعب سوريا على الانفصال وأكرهته عليها بالغضب والقسر !

ثانيها ــ ان المعركة بهذه الحدود ، ليست مسألة الذى جـــرى فى سوريا ، وانما المعركة أبعد ما ذلك وأعمق ، وأخطر من ذلك وأعنف .

ان الذى بدأ فى سوريا لن ينتهى فى سوريا

ان الذى جرى فى سوريا ، معركة فى حـــرب طويلة مريرة بدأت قبـله ، وتمضى بعده

وهدف المعركة هو المنطقة العربية كلها ، ومن تكون له الغلبة فيها والقول الفصل ... رواسب الماضى أو امال المستقبل .

ومعارك المنطقة كلها فى حربها الطويلة المريرة ترسم هذه الحدود لم تكن بغداد هى هدف حلف بغداد ، وانما كان القصد من حلف بغداد أن يمتد وأن يطوق المنطقة العربية كلها .

لم تكن معارك السويس هى معارك مصر وحدها ، ولا كان النصر فيها محصورا داخل حدودها

لم يكن مشروع ايزنهاور محاولة لعزل مصر عن بقية العـــــالم العربى ، وانما كان فى نفس الوقت محاولة لعزل العالم العربى عن أقوى جزء فيه وهو مصر

لم يكن المد الشعبى العربى الذى أقام الوحدة بين مصر وســوريا ، مجرد عمل مصرى سورى ،وانما هذا المد الشعبى العربى هو الذىاندفع بعد ذلك فحطم حلف بغداد وقوض دعائم العرش الهاشمى الخائن فيها.

وبنفس المقدار هذا الذى يجرى فى سوريا الآن ، ان المعـــــركة فيه ليست معركة السيطرة على دمشق وحدها ، وانما المعـــــركة جزء من الحرب الطويلة المريرة للسيطرة على العالم العربى كله

ثالثها ــ ان الجمهورية العربية المتحدة بمكانها الطليعى فى قيـــادة النضال العربى ، هى المسئولة أصلا وأساسا ، أمام شعوب الامة العربية

كلها عن مواجهة الخطر بما يقتضيه الخطر من عمل ايجابى ، دفاعيا كان أو هجوميا ، ليكون النصر فى النهاية نصيب الشعوب العربية جميعها

من هنا فان الذى جرى فى سوريا ليس حكاية انتهى أمرها وعلينا أن نسدل على مسرحها ستارا ثم ينفض السامر كل واحد الى بيته لينام

وانما الذى جرى فى سوريا يقتضينا السهر !

ولكنى أريد أن أضع نقطة على حرف هنا .

ليس الهدف من السهر هو ان تعود سوريا الى حيث كانت فى الجمهورية العربية المتحدة

ذلك أمر تفصيلى لا أقف عنده دقيقة واحدة

وانما المهم أن تخلص سوريا من الظلام الذى يهبط عليها

وان تنتصر قوى التحرر على قوى الاستعمار فى سوريا ، وان تنتصر عناصر التقدم على عناصر الرجعية ، وان تسود مطالب الجماهير فى الكفاية والعدل ، على تحكم أصحاب الخزائن المغلقة والقصور العالية

هذا هو المهم ... والاهم منه أن لا يتخذ الظلام من سوريا قاعدة ليزحف منها ويؤخر طلوع الفجر !

***

من هذا التصور فان الذى جرى فى سوريا يقتضينا السهر حتى يطلع الفجر

وليس أولى بالسهر من ديدبان الحراسة على الامل العربى ، وأعنى به الجمهورية العربية المتحدة ، خصوصا وان هذا الديدبان ذاته هو الهدف الاول لقطاع الطريق المتربصين بالامل وبالامان ! !

بل انى لاجد هنا رباطا وثيقا بين الاهتمام بما جرى فى سوريا ، وبين الاهتمام بما يجرى الآن فى اللجنة التحضيرية

هناك ضرب الخطر ضربته

وهنا تجرى تعبئة الجهود والجماهير القادرة على رد الخطر ، بملاقاته وهزيمته

هناك انقضت فلول الرجعية

وهنا انطلقت طلائع الاشتراكية

والمعركة القادمة أقسى المعارك ، لانها ليست كمعارك سابقة عليها تستهدف تحرير الارض العربية فقط ، وانما هى هذه المرة ،تسعى الى تحرير الارض والى تحرير الانسان صاحب الارض وسيدها ! .

***

ولربما كان أوضح دليل على قسوة المعركة الجديدة ، هو ماعشناه هنا فى الجمهورية العربية المتحدة فى أعقاب الذى جرى فى سوريا .

لقد حاولت قوى الظلام التى اقتحمت آفاق سوريا ان تجد سبيلها الى قلب الجمهورية العربية المتحدة ذاتها .

ظنت أن ضربتها فى دمشق أفقدت القاهرة ولو لبعض الوقت توازنها وهرولت تستغل ما تصورته فرصة سانحة للتأثير المباشر فى القاهرة .

● ليس صدفة أن الحرب النفسية ضد القاهرة وصلت الى ذروة مخيفة فى أعقاب الذى حدث فى سوريا

● وليس صدفة هذا التنسيق الكامل بين اذاعات عمان الناطقة بلسان غيرها ، ودمشق المقهورة على أمرها ، والرياض المحكومة بالنفاق تهاجم الاشتراكية باسم الدين ، وتلوح للمحرومين بجنات السماء ، لتبقى لاصحابها وحدهم احتكار جنات الارض

هذا صف من الاذاعات ، ومعه فى نفس التنسيق الكامل ، صف آخر من اذاعات العدو الذى لا يدارى وجهه ، اذاعات طهران وانقرة الركائز الباقية لحلف بغداد ، واذاعات لندن وباريس شركاء حلف بغداد ومع هؤلاء جميعا اذاعة اسرائيل

● وليس صدفة أن بعثة تصفية الممتلكات الفرنسية ، كما كان الاسم الظاهر لشبكة جواسيس فرنسا ــ خرجت فى هذا الوقت بالذات تجاوز بنشاطها كل حد معقول .

فى هذا الوقت بلغت بهم رغبة تعجل الحوادث الى حد التفكير فى اقامة اذاعة سرية متنقلة فى قلب القاهرة !

فى هذا الوقت بلغت بهم شهوة القتل الى حد المجىء « بجانتيس » خبير الاغتيالات الفرنسى المشهور لكى يدرس احتمالات عمل حاسم للخلاص من جمال عبد الناصر وجاء « جانتيس » بالفعل تحت ستار مؤتمر البترول العربى .

ذلك كله ليس صدفة

ان الذين سيطروا ـ او تصوروا انهم سيطروا على دمشق ـ لا يريدون الوقوف هناك ، ولا تقتصر أحلامهم على عاصمة الامويين الباسلة .

وانما بعدها بكثير تمتد اطماعهم !

***

ولقد بلغ من سرعة الحوادث أن بيننا من لا يرى اننا بعد المعركة التى جرت فى سوريا ، واجهنا قوى الظلام فى معركة ثانية هنا فى الجمهورية العربية المتحدة ..

الى هذا الحد ضراوة الحرب التى نخوضها .

الى حد أن الظلام الزاحف على دمشق ، راودته المنى ولو لايام انه قادر على مواصلة الزحف حتى القاهرة ذاتها .

وبلغ من سرعة الحوادث أن بيننا من لا يرى أننا احرزنا نصرا واضحا فى هذا الزحف السريع الذى استهدف القاهرة .

ان النداءات المسعورة التى راحت تحرض شعب مصر وجيشها لم تجد من شعب مصر وجيشها غير احتقار المحرضين ، وكان الخطر الوحيد من هذه النداءات المسعورة هو أن تؤثر على احساس شعب مصر وجيشها بالعروبة ذاتها ، من فرط الاحتقار لهذه الاصوات العربية المنادية بالخيانة ..

● والتنسيق الكامل بين اذاعات عمان ودمشق والرياض وطهران وانقرة ولندن وباريس واسرائيل ، كشف حدود المعركة وابعادها ، وتكفل وحده بأن يضع الذى جرى فى دمشق فى مكانه الحقيقى من غير براقع ولا اقنعة .

ولرب من يسأل :

ـ كيف الى هذا الحد كشفوا أمرهم بالتنسيق الكامل بينهم !

والرد :

ـ أن شهوة النجاح السريع فى القاهرة بعد دمشق ، جعلتهم يتخلون عن كل حذر ويقعون فى كل محظور !

كانوا يتصورون أن النجاح فى مصر قد يغطى المخاطرة .

وخاطروا وظهروا معا على المكشوف لا خفاء ولا مواربة .

وفشلوا فى مصر

وهذا الضجيج بعد انكسار موجات الهجوم واحدة بعد واحدة ..

ثم اذا هم جميعا معا .. نفس خطأ ايدن المشهور فى التواطؤ مع اسرائيل فى عدوان سنة ١٩٥٦

● وبعثة الممتلكات الفرنسية لم تعد الآن شبكة جواسيس ، ومؤامرة قتل ، وانما أصبحت قضية كاملة مدعمة بالوثائق ، واصبحت اعترافات كاملة تنهار وتتداعى أمام الادلة الحاسمة !

وتوقع بخط يدها تسليما بالفشل

***

لكن الحرب مستمرة حتى بعد هذا الفشل فى القاهرة ، بل أن هذا الفشل فى القاهرة سوف يضاعف من ضراوة الحرب ، فان النجاح المؤقت الذى أحرزه الظلام على دمشق سوف يتبدد وينقشع ما لم يدعمه نجاح سريع خارج دمشق !

واذن فأين فى غير القاهرة يستطيع الظلام أن يحقق اندفاعة سريعة ؟

أكاد أضع أمامي خريطة للشرق الاوسط ، وأمد أصبعى الى بغداد وأقول :

ــ هنا !

بغداد الآن فى تقديرى ــ وفى منأى ان اكون مخطئا ــ هى الفراغ الذى تستطيع جحافل الظلام أن تندفع اليه .

ففى بغداد الآن نظام أمره عجب لا هو وطنى ولا هو استعمارى ، لا هو رجعى ولا هو تقدمى

يكاد النظام فى بغداد أن لا يكون نظاما على الاطلاق .. وانما فراغ مفتوح ، معرض ومكشوف لكل ألوان الخطر !

***

خريطة الشرق الاوسط

ومنطق الحوادث فى الشرق الأوسط ، كلاهما يشير الآن الى أن ضربة فى العراق ، أمر لا بد من توقعه

ما الذى تقوله خريطة الشرق الاوسط ؟

الخريطة تقول انه اذا استطاع الاستعمار أن يعزز مواقعه فى العراق فان موقفه فى الشرق الاوسط كله يتحسن بدرجة ملحوظة .

العراق جسر يربط ايران الملاصقة للاتحاد السوفييتى ، بسوريا المطلة على البحر الابيض ، والعراق وسوريا كلاهما من الناحية العسكرية فى الموقف الدولى المتوتر الان ــ عمق طبيعى لخطوط الدفاع

الغربية فى كل من ايران وتركيا واذا ما أضيفت مملكة الاردن واسرائيل الى هذا العمق فانه يترامى حتى يصل الى البحر الاحمر . . الى العقبة وايلات ، وهـذا الوضع نفسـه هو الحلم الذى قامت من أجل تحقيقه فـكرة حلف بغـداد ! ..

هذا ما تقوله خريطة الشرق الاوسـط ..

فمـا الذى يقوله منطق الحوادث فيه ؟

منطق الحوادث يقول أن دمشق كانت القاعدة التى استطاع منها المد الشعبى العربى أن يضرب العرش الرجعى فى بغداد وأن يمهد لثورة ١٤ يوليو فى العراق .

ودمشق الآن تحت حـكم رد الفعل المضاد للمد الشعبى الذى فجر ثورة العـراق .

دمشـق الآن تحت حـكم مد رجعى ، قد يكون مؤقتا ، ولـكنه حقيقة قائمة فى هذه المرحلة الخطيرة .

والمد الرجعى يريد أن ينطلق الى مداه ، ومداه الطبيعى ـ خصوصا فى تحالفه مع الاستعمار وخطته ـ هو بغداد والسيطرة عليها .

***

ولرب سـائل يسأل :

ـ ولـكن اللواء عبد الـكريم قاسم ليس عقبة فى وجه الاستعمار ولا فى وجه الرجعية !

ما الذى فعله ايجابيا ليقف فى وجه الاستعمار ويناهض أهدافه ؟

وردى :

ـ أن اللواء عبد الـكريم قاسم لم يفعل شـيئا ، بل لعله فعل العكس بوعى منـه أو بغـير وعى ! ..

لقد قدم للاسـتعمار خدمة عظمى بالمعركة التى أثارها فى العالم العربى لغير ما سبب الا أوهامه الشخصية .

لقد أمن مصالح الاستعمار فى بترول العراق ولم يجد فى طاقته غير تهديدات فارغة لم تعد تخيف ... بل حتى لم تعد تنشر فى الصـحف استهتارا بصالحها واستخفافا بوزنها !

لقد شغل الامة العربية كلها بمشكلة لا مبرر لها حول رغبته فى ضم الكويت بينما هو لم يستطع حتى الآن ضم العراق ذاته !

لقد فرض على العراق فترة من الرعب لا مثيل لها فى التاريخ كانت حبـال « السـحل » فيها أسرابا من الثعابين السامة زحفت على حياة الناس ولاغت فى حمامات الدم !

كل ذلك صـحيح ...

صحيح أن اللواء عبد الكريم قاسم ، خدم بوعى منه أو بغير وعى خطة الاستعمار ، وهو على استعداد لان يواصل الخدمة .

ولكن المشـكلة ليست هنـا !

المشكلة أن الاسـتعمار الآن هو الذى لم يعد يريد خدمات اللواء عبد الـكريم قاسم !

ــ لمـاذا ؟

ــ على الاقل ليملا الفراغ الموجود الآن فى العـراق ... لانه يريد الان حـكومة قوية قادرة على اخضـاع العراق ... لان اللواء عبد الـكريم قاسم فقد قوته واستنزفها فى المعارك الوهمية التى تشـبه معارك دون كيشوت مع طواحين الهواء ... لان الاسـتعمار يعرف أن العناصر الشيوعية ما زالت بيدها قوة تمكنها من التـأثير ، كذلك يعرف أن العناصر الوطنية ما زالت بيدها قوة تمكنها من الثورة .

ولقد كانت قوة عبد الكريم قاسم ــ وهو لايعرف ــ هى حـدوده المشتركة مع الجمهورية العربية المتحدة أيام كانت سوريا امتدادا لها

كان الاسـتعمار يسند اللواء عبد الـكريم قاسـم ضـد أى معارضـة ..

بل وصل الاستعمار الى حد مساندة الشيوعيين فى العراق وذلك لتاليف جبهة قادرة على التصدى للقومية العربية التى كانت تطل عـلى العـراق عبـر الحـدود السـورية .

ومن وجهة نظر الاستعمار كان فراغ عبد الـكريم قاسم خيرا ألف مرة من أن يمتلىء العراق بقوة وطنية على المقاومة الجدية الحقيقية .

وكذلك حال الشـيوعيين .

وابتعد الخطر المشترك من وجهة نظر الاسـتعمار والشيوعيين ــ وهو الجمهورية العربية المتحـدة ــ ولم تعـد لها اليوم حـدود مع العـراق .

ولسوف يكتشف اللواء عبد الـكريم قاسم يوما ــ انه من وقتها ــ

دون أن يدرى — فقد الضمان الذى كان يقيه من حيث كان يردع الاخرين عن الفتك به والاجهاز على حكمه المتداعى فى العراق !

***

ومن وجهة نظر منطق الحوادث فى الشرق الاوسط ، فلقد يسأل ســــــــائل :

— ما الذى يمنع اللواء قاسم من التعاون مع الرجعية ؟

والــــــــرد

— لا شىء يمنعه ... بل أنه — شــخصيا وبالذات — كان أول من فرح لانتصارها المؤقت فى سوريا ، ربمــا ليس حبا فيها وانمــا كراهية فى غيرها

ولــكن المشكلة — مرة أخرى — ليست هنا !

المشكلة أن الرجعية هى التى لا تريد الآن أن تتعاون مع عبد الكريم قاســــــــم .

تعاونت معه وشجعته وسعت اليه عندما دخل معركته الشخصية البحتة ضد الجمهورية العربية المتحدة .

ولمــا ابتعدت الجمهورية العربية المتحدة عن حدود العراق ، وقفزت الرجعية فى نفس الوقت الى السلطة فى سوريا ، لم تعد الرجعية بحاجة الى تعــــاون اللواء عبد الكريم قاسم .

وعبد الــكريم قاسم شخصيا ليس هدفا يهم الرجعية أن تضربه

ولــكن الذى تريد ضربه هو معنى يوم ١٤ يوليو ١٩٥٨

هو معنى الثورة التى هبت ضد الرجعية يوما فى بغداد

***

كذلك تقول خريطة الشرق الاوســــــــط وكذلك يقول منطق الحوادث فيه

ولــكن ما الذى يقوله اللواء عبد الــكريم قاسم نفسه ! ؟

لا شىء

لا يبدومن تصرفات اللواء عبد الــكريم قاســـم حتى الآن انه يعى شيئا ممــا تقوله الخريطة أو ممــا يقوله المنطق .

أن اللواء عبد الــكريم قاسم مشغول عن كل شىء ... باللواء عبد الــكريم قاســـــم .

الدنيا أمامه كلها مرآة واسعة لا يرى فيها غير نفسه !

وفى معلوماتى من العراق أنه الآن مشغول بخطة

ولكن الخطة الجديدة ككل خططه القديمة مزيج بين السطحية وبين الانانية

● يفكر فى وضع دستور ...

كلام معقول ولكن غير المعقول أنه حدد من الآن كل الذين ينجحون فىالانتخابات والذين لا ينجحون .. لدرجة أن بغداد كلها تتحدث عن اسم رئيس الوزارة الذى سيؤلف الوزارة بعد الانتخابات وهو السيد محمد حديد ! .

● أقنعة مستشاره الذى يملك أذنه الان ـ وهو السيد هاشم جواد وزير خارجية العراق ، أنه من الخير ان يكون النظام الجمهورى فى العراق برلمانيا وليس رئاسيا ، على أساس انه بذلك يستطيع التأثير اكثر فى سوريا وقد يجرها الى اتحاد مع العراق

ـ كلام معقول ولكن غير المعقول أن درج مكتبه الآن يضم مذكرة بطلب اعطائه سلطة استثنائية طوال فترة حكمه على غرار ما فعله ديجول . ولقد قام هاشم جواد بدراسات كاملة لتجربة ديجول فى فرنسا .. واقنع اللواء عبد الكريم قاسم بانه يستطيع أن يكون ديجول العراق ... واجهة برلمانية .. وسلطات استثنائية ... وزعيم أوحد !

ولكن عبد الكريم قاسم لم يقل ذلك حتى الان وانما هو يخفيه حتى يباغت به الدنيا !

***

وآخر تصريحات الزعيم الاوحد أنه سوف يثير فى الشرق الاوسط حربا ضروسا اذا لم تقدم له الكويت ليضمها الى الفراغ الذى يعيش فيه ويفرضه على العراق .

وأسفاه على ان الزعيم الاوحد لم يعد قادرا على أن يثير حرباضروسا أو غير ضروس ..

واذا قامت فى الشرق الاوسط حرب ضروس فان أول انفجار لها سوف يبدد امبراطورية الاوهام التى يعيش الزعيم الاوحد فى سحابها وضبابها ..

ثم أجد خيالى فى هذه اللحظات يتجه الى العناصر الوطنية فى العراق ، هذه العناصر التى تعيش اليوم محنة قاسية .

ترى قوىالاستعمار والرجعية تتأهب للانقضاض على العراق .

وترى التسلل الشيوعى كامنا يتربص على استعداد بحبال السحل كأنها الثعابين السامة .

وترى امبراطورية الاوهام لا يمسكها من التلاشى غير رغبة كل من يريد تغيير الاوضاع فى العراق أن يضمن احتمالات النجاح .

خيالى مع هذه العناصر الوطنية فى العراق وقلبى معها .

أن محنتها القاسية اليوم .. جزء من معركتنا القائمة مع الاستعمار والرجعية ... جزء من حربنا الطويلة المريرة معهما . حتى لا تطبق علينا جحافل الظلام ، وحتى لا يتأخر طلوع الفجر !

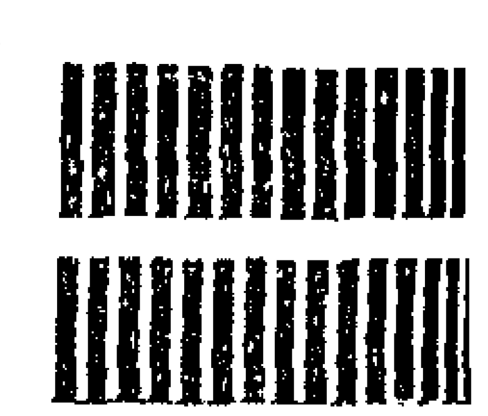


١١

وحدنا في المعركة

٣ أسباب لصعوبة المعركة
التي نواجهها الآن
اليهودي التائه بين
بيروت وبغداد ودمشق
في طائرة تشيكية
كلمة واحدة تصل بنا
إلى النصر في
مرحلة الاشتراكية

خالد بكداش



لا أظن أننا واجهنا من قبل ، معركة تماثل فى قسوتها وضراوتها هذه المعركة التى نواجهها اليوم .

أن هذه المعركة التى نخوضها الان ، وتخوضها معنا القوى الوطنية لحركة القومية العربية ، هى أعنف وأخطر معاركنا .

أعنف وأخطر من حرب السويس ، لعدة أسباب .

أولا : ان حرب السويس كانت قضية واضحة المعالم ، لشعب صغير يتقدم فى اصرار نحو الحرية ، بينما اثنتان من دول الاستعمار الكبرى تحاولان بالنار والدم والحديد وقف تقدمه ، ومن هذا الوضوح كان سهلا أن تتجسد القضية ببساطة أمام الرأى العام العالمى ، وكان سهلا بالتالى على قوته المعنوية الهائلة أن تحدد موقفها من الصراع ولن تلقى بثقلها كله مع مصر سنة ١٩٥٦

ولكن « السويس » الاجتماعية التى نخوضها اليوم ، قضية معقدة ومتشابكة ، ثم هى فى مظهرها الخارجى تبدو مشكلة محلية ... بل تكاد تبدو فى بعض الاحيان ــ وهما وخداعا ــ قضية عائلية

ومن ثم فانها لا تثير ولا تحرك ، ولا تهز المشاعر وتلهبها ... على الاقل الى الحد الذى يتساوى مع خطورة المعركة الفعلية .

ثانيا : أن العدوان فى السويس ، كشف نفسه بالغزو المسلح .

كشف نفسه بالاساطيل وبالطائرات وبالدبابات والمدافع ، تحاول أن تقتحم شاطئنا فى بور سعيد .

كشف العدوان نفسه أيامها وبالتالى كان سهلا اثبات الجريمة عليه، والإمساك بيده المخضبة بالدماء لكى تراها الدنيا وترى فيها جريمته، أما هذه المرة فان العدوان غير خطته

انه هذه المرة لا يقتحم ... وانما يتسلل

وهو هذه المرة لا يجيء ومن حوله هدير آلات الحرب ودويها ... وانما هو مقبل فى صـــمت ، كأنه على حد التعبير اليابانى « جيش الاشباح » نشعر به دون أن نراه ، ونحس أثر ضرباته ولا نســتطيع الامساك به !

ثالثـا : انه فى « حرب السويس » كانت احدى القوى الكبرى ، واعنى بهـا الاتحاد السوفييتى ـ تقف سياسيا الى جانبنا ـ وذلك أمر لا يستهان به خصوصا فى ظروف الخطر

ولكن الاتحاد السوفييتى له فى هذه المعركة موقفه ، وله فى هـذا الموقف منطقه ...

وليس من حقنا أن نلومه فى ذلك ، والا كنا نحمل أصدقاءنا أكثرمما يطيقون ، فليس لنا أن ننسى ـ على أى حال ـ أن الاتحاد السوفييتى دولة كبرى ، لها مصالح الدول الـكبرى ولها خططها الاســـتراتيجية الواسعة ، وقد تتفق مصالحها وخططها معنا يومافى معركةمن معاركنا، ولكنها فى معركة ثانية قد تختلف

وعلينا أن نـكبر على انفسنا الى القدر الـكافى الذى نستطيع معه أن نرى الحقائق المجردة فى ظروف أصدقائنا ، بلا عتاب وبلا أسف !

لقد وقف الاتحاد السوفييتى معنا ســنة ١٩٥٦ لان معركتنا كانت ضد الاستعمار الغربى وحده

ثم اختلف الاتحاد السوفييتى معنا سنة ١٩٥٩ لمـا تصدينا لمحاولة السيطرة الشيوعية على العراق ، ودخل جمال عبد الناصر لهذا السبب فى صدام علنى مع نيكيتا خروشوف

وليس من شيء يعيد الى أذهاننا مدى النجاح الذى حققته القومية العربية فى تصديها للشيوعية ، خيرا من صورة اليهودى التائه التى بدأ عليها خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعى السورى عندما حاول العودة منذ اسابيع الى دمشق

جرب النزول فى دمشق ، التى حارب فيها القومية العربيـــة ، ولم يستطع النزول .

وجرب النزول فى بغداد ، التى كانت صدى صوته سنة ١٩٥٩،ولم يستطع النزول .

وجرب النزول فى بيروت ، التى ما زال حزبه يســتعملها قاعدة له ولم يستطع النزول .

يهودى تائه جديد ، تائه يركب طائرة تشيكية كبيرة ، قامت به من براج ، ولم تجد مكانا فى الشرق الاوسط يقبله ، فعادت به مرة ثانية الى براج !

***

فى المجال الدولى اذن هذه المعركة أعنف وأخطر معاركنا .

وملخص الاسباب الثلاثة التى ذكرتها الان دوليا يصل بنا الىحصيلة اخيرة هى أننا نواجه هذه المعركة وحدنا ، ونخوضها وحدنا ، وعلينا أن ننتصر فيها وحدنا

***

وفى المجال العربى ، بعد المجال الدولى ، نجد أن الصورة قريبة ، واكاد أقول متكررة

المعركة الجديدة فى المجال العربى أعنف وأخطر معاركنا .

أعنف وأخطر من معركة السويس .

فى معركة السويس كانت هناك شبه جبهة وطنية ، فى مواجهة العدوان الاستعمارى الخارجى

وهذه من طبيعة الامور فى تلك المرحلة من النضال الوطنى ضد الاستعمار !

● فى سنة ١٩٥٦ كانت بعض العناصر الرجعية فى المنطقة تقف بالقرب منا فى المعركة ، ولقد كانت مصالحها بالفعل مترابطة مع مصالح الاستعمار ، ولكنها ـ ولو حتى بحكم الشعور العاطفى وحده ـ لم تقف بعيدا عنا بكثير

ومن ناحية أخرى ـ مع الشعور العاطفى ـ فلقد كانت تريد تأمين مصالحها اذا ما كان النصر فى المعركة للقوى الوطنية للشعوب

كانت تقف معنا ولو حتى بالكلام ، وكانت تتجاوز ذلك أحيانا الى التبرع ببعض مالها لضحايا بور سعيد

وقفت معنا سنة ١٩٥٦ ، لكى تكون لها بعد ذلك بيننا كلمة مسموعة ، لها وزنها ولها تأثيرها

● وكذلك تقريبا فى سنة ١٩٥٦ ـ كان موقف العناصر الشيوعية فى المنطقة ... وقفت معنا بقوة ـ وللحق أقولها ـ فى معركتنا ضد الاستعمار

وكانت فى ذلك تصدر عداء للاستعمار لا شك فيه ، ولكنها كانت

تريد بعد ذلك أن تحصل على اعترافنا الفعلى بها ، وأن تأخذ من موقفها المعادى للاســــتعمار فى السويس ، نقطة ارتــكاز لنشاط يمتد بعــد السويس ويتغلغل .

هى الاخرى وقفت معنا سنة ١٩٥٦، لــكى تكون لها بعد ذلك بيننا كلمة مسموعة ، لها وزنها ولها تأثيرها .

***

بعض العناصر الرجعية وقفت معنا وأقول « بعض » لان بعضــها الآخر والرجعية الهاشــــمية فى بغداد على راسه ، وقفت ضدنا من أول لحظة .

والعناصر الشيوعية وقفت معنا ، وأضيف كلها ، فان الحرب ضد الاستعمار ووقوف الاتحاد الشيوعى سياسيا بجانبنا لم يدع لاى من هذه العناصر فرصة للتردد أو للانتظار !

كلاهما ، كلاهما وقف معنا ، ولــكن لغاية ذاتية فى النهاية يريدها ويسعى الى تأمينها

الرجعية كانت فى النهاية تريد أن تجمد اندفاعنا الثورى الاجتماعى

والشيوعية كانت فى النهاية تريد أن تحول هــذا الاندفاع الى غير وجهته الوطنية الصميمة !

***

ولــكن التجارب بعـــد ســـــنة ١٩٥٦ لم تحقق لــكل منهمــا غايتــــــه !

وكانت ســنة ١٩٥٨ ، حاسمة ، فى بدايتها ونهايتها

فى بداية ســـــنة ١٩٥٨ ـ دخلت القوى الوطنية فى حركة القومية العربية ، الى تجربة الوحدة بين مصر وســـوريا ، دون أن تقيم وزنا للمعارضــة الرجعية ضد اتمــام الوحدة ، وحين وصلت الرجعية الى حد التآمر على الانقلاب وعلى القتل ، لم تتردد القوى الوطنية فى أن تــكشف للرأى العام العربى خطط الرجعية مدعمة بالوثائق والمستندات وبينها ـ بالطبع ـ شيكات الملك سعود التى حاول بها أن يغرى عبــد الحميد السراج !

وفيما تلا ذلك من السنين ، لم تفرط القوى الوطنية فى ثوريتها ،ولم تجمدها من أجل خاطر الرجعية ومصالحها ، لقد تغطلت بعض الوقت ـ هذا صــــحيح ـ ولــكنها استطاعت فى يوليو ١٩٦١ أن تفجر ثورة اشتراكية حقيقية وأصيلة

وضيعت الرجعية صوابها ، وكشفت نفسها ، ورفعت أعلام الخيانة سافرة صريحة ، بدورها فى انقلاب دمشـــق ، وبما حدث لشـــعب ســـوريا بعده .

***

وشهدت نهاية سنة ١٩٥٨ ــ مقدمات الصـــدام المفتوح بين القوى الوطنية فى المنطقة وبين العناصر الشيوعية فيها

وقفت الاحزاب الشيوعية العربية فى العراق ، وقفة عنيدة أخيرة حتى لايصيبها فى العراق ، مثل ما أصابها من قبل فى مصر وســـوريا ، وتحرم من حق العمل السياسي

ولم تنتظر الشيوعية فى العراق ، وانمـــا أعلنتها منذ اللحظة الاولى حربا هجومية على الجمهورية العربية المتحدة ، وهدفهـــا ان تؤثر فى شعب العراق ذاته وتبعده عن التفاعل مع ما يجرى وراء حدوده

ولم تستطع الشيوعية أن تؤثر فى أحد فى العراق ، غير اللواء عبد الكريم قاسم ذاته ، فعزلته وحده ، وساعدها أنه هو ايضا ــ بدوره ــ كان يريد العزلة لنفسه وللعراق ، تصورا منه أن هذا هو الســـــبيل الوحيد الى « الوحدانية » التى يحلم بها !

وفعلت الاحزاب الشيوعية فى العراق نفس الذى فعلته العنـــاصر الرجعية بعد ذلك فى سوريا

ضيعت الاحزاب الشيوعية صوابها ، وكشفت نفســـها ، ورفعت أعلام الدم ، وأشعلت النار ، وفرضت على الموصـــل وكركوك حـــكم الرصاص ، وحكم حبـــال « السحل » ، وحكم دفن البشر احيـــاء فى الحفر المظلمة !

***

واذن فى المجال العربى ــ بعد المجال الدولى ــ هذه المعركة أعنف وأخطر معاركنا .

ذلك أن ملخص ما قلته الآن ــ عربيا ــ يصل بنا الى حصيلة أخيرة هى أننا نواجه هـــذه المعركة وحدنا ، ونخوضها وحـــدنا وعلينـــا أن ننتصر فيها وحدنا

***

وفوق ذلك كله ، فلابد لنا أن نسلم أننا فقدنا الـــكثير من العناصر الوطنية العربية ، خلال المعارك المتصلة التى خضناها حتى الآن .

وفى سوريا ــ قبل غيرها ــ تبدو هذه الحقيقة

● مجموعة الضباط الوطنيين فى الجيش السورى ، بعضهم وقع أسرى فى دمشق ، وبعضهم أرغم على الابتعاد عن مسرح الحوادث

عبد الحميد السراج مثلا فى سجن المزة اليوم أسير

وطعمة العودة الله ، وأحمد حنيدى ، وأكرم ديرى ، وجادو عز الدين ، وغيرهم هنا فى القاهرة ، بعيدون عن التطورات فى دمشق .

● وحزب البعث العربى ، خرجت المعركة من حدود طاقته فأنسحب منها الى بعيد

نصفه الآن فى دمشق ـ تحت قيادة أكرم الحورانى ـ يهادن الرجعية ويتعاون معها ، تحت الستار الذى يرفعه أكرم « بك » الآن فى وجه كل من يذهب اليه بكلمة لوم أو بتعبير عن خيبة الامل ، وذلك بقوله :

ـ أتركونى اتكتك !

وهو ما زال « يتكتك » حتى الان !

أما النصف الثانى من حزب البعث فهو الآن فى بيروت ـ تحت قيادة ميشيل عفلق يحاول أن يلتقط انفاسه المبهورة من سرعة المعركة وحدتها ، ولا يعرف له رأسا من قدم ، ولا يجد حتى الآن منفذا الى تأثير على مجرى الحوادث المتتابعة .

● ثم المئات ، بل الالوف ، من افراد الشعب السورى ، الذين خرجوا من غير تنظيم ، ومن غير استعداد ، ليصرخوا فى وجه الانقلاب

لقد كانوا بلا جدل ـ حتى دون أن نعرف أسماءهم ـ من أصدق العناصر وطنية ، ومن أسبقهم استعدادا للتضحية

لقد خرجوا بلا سلاح يصرخون فى وجه الانقلاب من قلوبهم

وواجههم الانقلاب بسلاحه .. صرخ فيهم بالبنادق موجهة الى صدورهم !

وسقطوا قتلى : رجالا ونساء ، شبابا واطفالا !

ولقد فقدناهم بصرف النظر عن شرف المعركة التى فقدناهم خلالها

***

ثم أصل بعد ذلك كله الى القاعدة الوحيدة الصامدة لمعركة المصير العربى .. وهى الجمهورية العربية المتحدة

ان حربها اليوم مزدوجة

عليها أن تحمى نفسها من الضربات المسددة اليها .

وعليها فى نفس الوقت أن تمضى وأن تفتح الطريق امام مستقبل عربى أفضل

معركة دفاعية تصد بها غارات الاستعمار والرجعية والاحزاب الشيوعية

ومعركة هجومية تصل بعدها حتى تطل على غد تسود فيه الحرية والاشتراكية والوحدة .

ومن نماذج معركتها الدفاعية ، ان تحمى نفسها من مثل هذا النشاط الذى كانت تقوم به بعثة الممتلكات الفرنسية فى مصر ، هذه البعثة التى تحولت من عملية تصفية ممتلكات فرنسا فى مصر الى محاولة تصفية مصر ذاتها !

ولم يخجل الاستعمار الفرنسى ، وهو يرى شبكة الجاسوسية التى أرسلها الينا متلبسة بجرائمها ، ولا خجل وهو يسمعها تدلى باعترافاتها

وانما راح يجرب الحماقة تحت حجة وجود حصانة لافراد البعثة لا وجود لها فى أى قانون أو عرف

وراح بعد الحماقة يجرب الضغط فى حملة دبلوماسية واسعة المدى، وصلت حتى الامم المتحدة ذاتها ، يقول فيها « حتى اذا كانوا قد قاموا بكل مانسبوه اليهم فى القاهرة فلقد كان واجب القاهرة أن تطلب منهم مغادرة اراضيها وانتهى الامر »

ومن العجيب أن اذاعات الرياض ، وعمان ، ودمشق ، وصحفها ، لم تذكر شيئا عن مؤامرة فرنسا

وهذه ملاحظة سريعة ، اكتفى بتسجيلها ، ولا أعذب أعصابى بتحليلها !

ومن نماذج معركتها الدفاعية أن تترفع بكبريائها عن الرد على مثل الذى يقوم به الملك حسين اليوم،ونصف الذى يقوم به جلالته الان، مضحك ، ونصفه الثانى مضحك أيضا !!

جلالته منهمك فى العمل ضد الجمهورية العربية الآن على جبهتين :

جبهة فى لندن حيث يقوم الملك الان بعملية تنسيق وحشد الجهود المشتركة ضد الجمهورية العربية المتحدة .

وجبهة أخرى ــ وهذا عجيب ــ فى قطاع غزة ، حيث تركز اذاعة الملك حملة صاخبة ضد الادارة العربية هناك وتدعو شعب غزة الى الثورة

ضدها والى طردها من هناك « كما طردت من سوريا » على حد تعبير اذاعة جـــلالته !

الى هذا الحد وصلت الخيانة ، خيانة فى لندن تتواطأ مع الاستعمار، وخيانة فى غزة تتواطأ مع « اسرائيل » !

ولكن العذر مع جلالته ، فلقد ورثها مع الدم الذى يجرى فى عروقه ، وتلقاها كابرا عن كابر !

***

ومن غرائب الاقدار ، فى أمر المعركة الدفاعية ، التى تخوضـــها الجمهورية العربية المتحدة اليوم ، أنها تجد نفســـها فى الوضع الذى يحتم عليها أن تكون قاعدة لحماية العواصم التى تضرب منها اليـــوم

انها تضرب من دمشق ــ مثلا ــ ولكن هل تستطيع أن تســكت اذا ما قامت معركة فى جنوب سوريا بسبب أقدام اسرائيل على تحويل مياه الاردن ؟

وهى تضرب من عمان ــ مثلا ــ ولكن هل تستطيع أن تســـكت اذا ما انقضت اسرائيل يوما على الضفة الغربية للاردن ؟

ومن غرائب الاقدار أن يوجه الضربات اليها من تنتهى فى الحيـــاة قيمتهم بغيرها

ولكن الخيانة حاقدة ... وعمياء أيضا

***

ثم أصل الى المعركة الهجومية التى تريد الجمهورية العربيـــة بعدها أن تطل على غد تسوده الحرية والاشتراكية والوحدة

● وفى السويس سنة ١٩٥٦ حصلت القاهرة على الحرية السياسية

● وفى يوليو ١٩٦١ بدأت القاهرة انطلاقتها الاشتراكية

● وأما الوحدة فلقد عاشت القاهرة تجربة لها سنة ١٩٥٨ ، ثم كان الانقضاض الرجعى على الوحدة دليلا على أن الاشتراكية يجب أن تسبق الوحدة لتمهد لها وتفتح الطريق امامها

وهكذا ترتيب خطوات الزحف الى المستقبل .

ترتيب يفرضه المنطق ، وفرضته الحوادث تأكيدا للمنطق

ان الحرية السياسية صراع مع الاجنبى

وأما الاشتراكية والوحدة فصراع مع أنفسنا .

ولقد يقول قائل :

ــ ان الوحدة لابد أن تسبق الاشتراكية

وأرد عليه :

ــ أن تجربة الوحدة الاولى بين مصر وسوريا أثبتت بين ما أثبتته،أن

الصراع الداخلى لازالة المتناقضات الاجتماعية ، وتحقيق العدالة داخل أى وطن من الاوطان العربية يجب أن يتبلور أولا داخل حدود كل وطن عربى ، والا فان الرجعية قادرة على استغلال النعرات المحلية لكى تضرب بها الوحدة والاشتراكية معا !!

***

معركة الساعة ــ فى نهاية المطاف الذى بدأناه من أول سطر على هذه الصفحة ــ هى « الاشتراكية »

« الاشتراكية » هى المعركة العنيفة الخطيرة ، التى نخوضها اليوم « دفاعيا » و « هجوميا » فى سلسلة معاركنا المتصلة من أجل المصير العربى .

لكن ما هو سبيلنا الهجومى فى معركة الاشتراكية !؟

كلمة واحدة ترد على هذا السؤال هى : التطبيق !

لا شىء ينتزع النصر فى معركة الاشتراكية غير التطبيق الناجح لها فى مجتمعنا لكى يكون للجماهير فيه حقها بالكفاية والعدل

لا شىء يؤكد النصر الكامل فى معركة الاشتراكية الا أن نقدم لامتنا التى تنظر من حولنا ، مثالا عمليا قائما يحقق آمالها

***

وأسأل نفسى بعد أن وصلت الى هذا الحد :

ــ هل يمكن الآن على ضوء هذا التصور الشامل لحدود المعركة ان نتأخر دقيقة واحدة فى عملية التنظيم الشعبى ؟

وأسأل أيضا :

هل يمكن ــ على ضوء هذا التصور الشامل لحدود المعركة ــ أن يكون التنظيم الشعبى جبهة متحالفة من قوى مختلفة ... رجعية ووطنية وشيوعية ؟!

أم أن هناك ضرورة حيوية لان يكون التنظيم مقصورا على قوى الشعب الوطنية دون غيرها ؟

وأقول بعد ذلك :

ــ ان المعركة التى نتصدى لها ــ هنا وفى الاوطان العربية الاخرى ــ هى معركة الجماهير الوطنية وحدها

واذن يجب أن تحاربها هذه الجماهير الوطنية وحدها

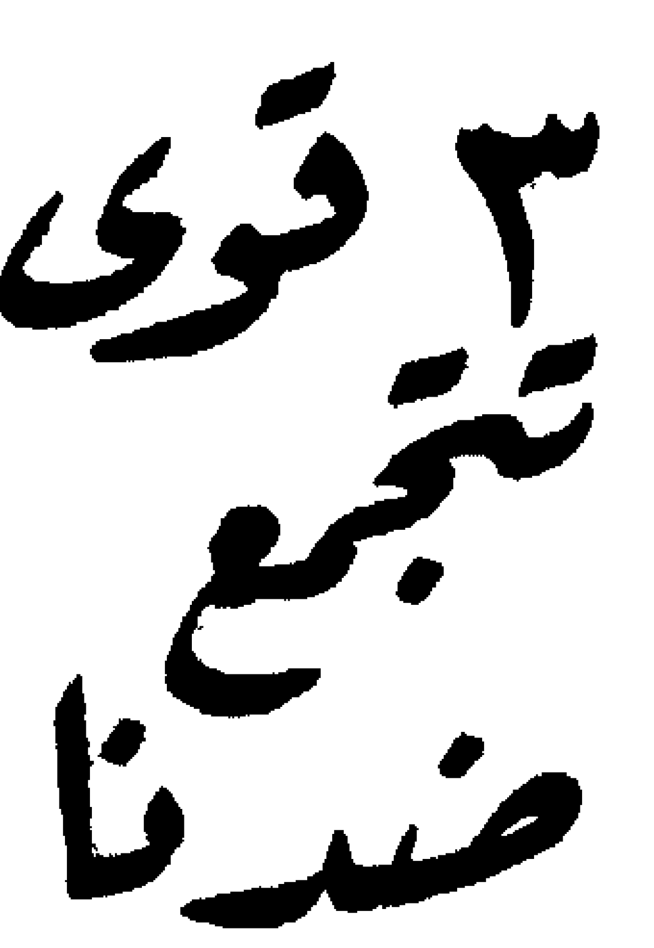
هذا طبيعى ...

وهذا حق ...

والا كنا نحارب معركتنا العنيفة الخطيرة فى غير ميدانها ، وبغير جنودها ، وبغير سلاحها !!

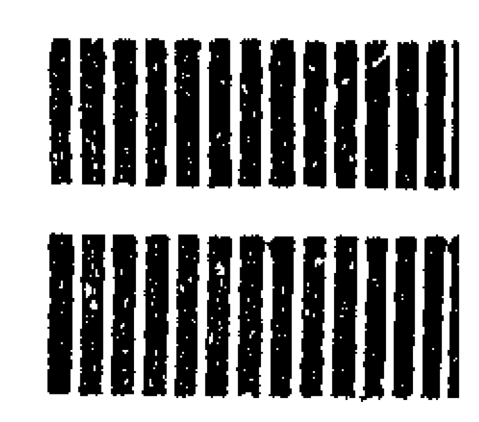






قائمة اغتيالات توضع في باريس لكي تنفذ في القاهرة
الذين يحاربوننا من خلف براقع والذين رفعوا البراقع ومعها الحياء؟

ديجـــول



لا أستطيع القول ، بأن لدى صورة كاملة للمناقشـــات التى دارت أثناء اجتماعات اللجنة الوزارية لحلف شمال الاطلنطى ، فى الاســبوع الماضى ، فى باريس .

لكنى أستطيع القول ، بأن لدى لمحات من هذه الصورة ، تبين منها بصورة خاطفة ، بعض مواقع الظل فيها ، وبعض لمسات الضوء !.

وأكاد أقول بصفة عامة ، ان اللجنة الوزارية لحلف شمال الاطلنطى، بعد أن استمعت الى تقرير مفصل قدمه لهـا « سليم ساربر » وزير خارجية تركيا ، عن التطورات فى الشرق الاوسط ، بعد انفصـــال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة ، وصلت الى نتيجة مؤداها :

« ان هناك الآن ، فرصة مواتية فى الشرق الاوسط ، لاســتعادة بعض المواقع التى فقدتها الدول الغربية فى المنطقة ، وهناك ـ كذلك ـ فرصة مواتية لتثبيت مراكز اصدقاء الغرب فيها .

لكن الفرصة لن تبقى مواتية لفترة طويلة .

ومن ثم فانه من الضرورى أن تكون هناك مبادرة نشيطة لاستغلالها ، والاستفادة منها للتأثير على مستقبل التطورات فى الشرق الاوســط الى أبعد مدى ممكن .

وان هذا الهدف لا يمكن الوصول اليه ، بغير توجيه ضربة قاضية ـ اذا أمكن ـ أو شــبه قاضية ـ على الاقل ـ الى الجمهورية العـــربية المتحدة ، مركز الخطر ، ومكمن التهديد ، والنقطة التى قـد تحـدث منها انطلاقة عربية ، كاستمرار لحركة القومية العربية فى تقـــدمها التاريخى الطبيعى ، ـ أو كرد فعل للنكسة المؤقتة التى أصيبت بها هذه الحركة فى سوريا » .

هذه هى النتيجة التى وصلت اليها اللجنة الوزارية ، أو على حـــد

التعبير السياسى ــ العسكرى ، هذه هى « الاستراتيجية » التى انتهت اليها سياسة الغرب فى المنطقة ، والتى يتعين بعد ذلك على « التكتيك » الغربى أن يحولها الى خطوات عملية ، واحدة ، بعد الواحدة ، حتى تتحقـــــــــق ! .

وفيما لدى من لمحات الصورة ، فان اللجنة الوزارية لحلف شـــمال الاطلنطى لم تتعرض لتفاصيل « التاكتيك » ــ أى الخطوات العملية ، فى الطريق الى تحقيق الهدف الشامل ــ وانما تركت هذه المهمة لغيرها .. تركتها لدول الاطلنطى ، الاعضاء فى الحلف المركزى ــ حلف بغـــــــداد سابقا ــ لتتولى هى ــ بحـــكم خبرتها الطـــــويلة فى المنطقة ــ ترتيب الخطوات وتنسيقها !.

***

وأكاد أقول ان أحدا ، من هؤلاء الذين أوكلت المهمة اليهم ــ لم يشأ أن يضيع وقتا بعدها أو ينتظر

وانما على الفور بدأ العمل :

وخلال هذه الايام الاخيرة ، كان واضحا أن هناك ثلاث قوى ، بـدأ ترتيب الخطوات بينها ، وبدأ التنسيق ، وهى :

أولا ــ بريطانيا وفرنسا ، وهما من أعضاء الحلف المركزى .

ثانيا ــ الدول الشرقية ــ غير العربية ــ من أعضاء هــــذا الحلف ، وخصوصا هؤلاء المهتمين بمنطقة شرق البحر الابيض ، وعلى وجـــه التحديد بالذات : تركيا وايران .

ثالثا ــ الدول العربية ، صاحبة الارتباطات مع الغرب ، وخصوصا تلك التى تحكمها مصالح معادية لحركة التحرر السياسى والاجتمـــاعى للشعوب العربية ، وفى مقدمتها بالطبع ، المملكة السعودية ، والمملـــكة الهاشمية فى الاردن !.

واستطيع أن أقول بعد ذلك ، أن هذا الاسبوع شهد نشــــــاطا ضخما فى الاتصالات بين هذه القوى ، وان اجتماعات ، لا عـد لها ولا حصر قد تمت فى باريس ، وفى لندن ، وفى جنيف ، وأن هـدف هـذه الاجتماعات كان تحديد دور كل قوة من هذه القوى فى العمليـــــات الكبيرة القـــــــادمة !.

ومرة أخرى ، لا أستطيع القول بأن لدى صورة كاملة لخطـــــة هـــذه العمليـات

ولـكن اقول ــ كما قلت فى بداية هذا الحديث ، أن لدى لمحـــات خاطفة تبين فيها بعض مواقع ظل ، وبعض لمسات ضوء ! .
واعرض الآن ما عندى !.

***

أولا : دور بريطانيا وفرنسا

مما يبدو من لمحات الصورة حتى الآن ــ ان فرنسا هى التى تتصدى لقيادة العمليات السافرة ضد الجمهورية العربية المتحدة ، وان بريطانيا ما زالت تفضل أن تقوم بالدور الثانى .. الدور الخفى !

بريطانيا مما يبدو الآن ــ تريد أن تقوم بدور يشبه دورها فى الكونجو

وفى الكونجو ، كانت بريطانيا بين الدول التى ايدت قرار مجـــلس الامن ، بضرورة انهاء انفصال كاتنجا ، وبضرورة تحقيق وحـــــــدة الكونجو بسلاح الامم المتحدة اذا اقتضى الامر .

ومع ذلك ، كانت بريطانيا وراء هذا القناع الخارجى ، هى الســند الحقيقى لتشـــــــومبى .

ولقد تولى « أوبراين » الديبلوماسى الايرلندى ، الذى كان ممثـــلا شخصيا لهمرشولد فى اليزابيث فيل ، مهمة تمزيق هذا القناع الزائف عن وجه بريطانيا ، وذلك حين استقال من عمله فى الامم المتحـــدة ، وبدأ يكتب تجربته فى الكونجو ، وبعدها للطبع فى كتاب ، نشرت جريدة الاوبزرفر بالفعل بعض فصوله

وملخص ما قاله أوبراين هو :

● أن بريطانيا لعبت بوجهين فى أزمة الكونجو ، وكان وجهها الذى بدأ فى الامم المتحدة ، غير وجهها الذى بدأ فى الكونجو ذاته .

● ان المصالح البريطانية فى روديسيا الشمالية ، وفى كاتنجـــا ذاتها ، كانت هى القوة الفعالة ضد سياسة الامم المتحدة فى الكونجو .

● ان بريطانيا ، برغم كل ماتتظاهر به ، مسئولة عن دم لومومبا ، وعن دم همرشولد ، وعن دم جنود الامم المتحدة ، وعن كل دم ســال فى الـــكونجو .

كذلك تريد بريطانيا دورها فى الشرق الاوسط .

ان بريطانيا لا تريد أن تظهر ، وانما تريد أن تؤثر من خلف قنــاع ومن وراء ستار !.

***

أما فرنسا فليس ذلك حالها

فرنسا لا يهمها أن تظهر أو تستتر .

ومن هنا أخذت على عاتقها قيادة العمليات السافرة .

وكان تصور فرنسا الاولى ، هو أن أحداث سوريا سوف يمتد أثرها الى مصر خصوصا اذا أمكن تحريك الحوادث فى داخل مصر ولو بقدر محدود ، وهذا ما حاولته بعثة المتلكات الفرنسية التى انكشف امرها .

ولكن فرنسا تتصور الآن انها فى حاجة الى أكثر من قدر محدود من الحركة فى مصر اذا أرادت أن تنجح

وفرنسا تتمنى لو استطاعت أن تهز الاوضاع فى مصر بأسرع ما تستطيع لعدة أسباب .

بينها أن تضرب وأن تنتقم من القاهرة التى تعتبرها مسئولة عن الخسوف الذى اصاب مصالح فرنسا ، ووجودها ، وهيبتها فى الشرق الاوسط .

وبينها أن يتم ذلك قبل أن تضطر الى قبول حل معقول للمشكلة الجزائرية ، وليس سرا أن هناك اتصالات تجرى الآن بغية الوصول الى حل ، وتتصور فرنسا انها لو هزت الاوضاع فىالقاهرة ، فان تسوية الجزائر يمكن أن تكون أكثر ملاءمة لها ، كذلك فان حكومة الجزائر الوطنية القادمة ، سوف تفقد سندها الاكبر ، قبل أن تتولى مسئولياتها الرسمية على الارض الجزائرية

. وبينها أن اسرائيل تضغط على فرنسا ، وفى ظن اسرائيل ، أن المشكلة الجزائرية اذا انتهت ، بسلم شريف ، فان.فرنسا لا تبقى لها مع اسرائيل مصلحة ، ومن ثم فان فرنسا مسئولة أدبيا أمام اسرائيل ، أن تؤمنها ضد الخطر الحقيقى عليها من القاهرة قبل أن ينتهى الصدام بين العرب وبين فرنسا بسبب الجزائر .

***

من هنا ، تتولى فرنسا الآن قيادة العمليات السافرة ضد مصر .
ولكن ما الذى تستطيعه فرنسا ؟

ان الحوادث أظهرت أن فرنسا كانت غارقة فى الوهم حين تصورت أن ما حدث فى سوريا يمكن أن يكون له تأثير تلقائى على الاوضاع فى مصر !.

تماما كما كانت غارقة فى الوهم حين تصورت أن مجرد توجيه انذار بريطانى ــ فرنسى الى مصر سنة ١٩٥٦ ، سوف يرغم مصر على الاستسلام ، ثم حين تصورت أن مجرد الانزال العسكرى فى بور سعيد سوف يرغم مصر على الركوع وطلب العفو والرحمة !.

مصر سنة ١٩٥٦ ، ومصر سنة ١٩٦١ . خيبت آمال فرنسا .

واذن ما الذى يمكن عمله ؟

بعد أن فشل العدوان العسكرى سنة ١٩٥٦ ، حاولت فرنسا ان تدرس احتمالات خطة أخرى لتحقيق أهدافها

وليست الان سرا ، خطة فرنسا ، التى كانت تهدف الى اسقاط كتيبة مظلات على بيت الرئيس جمال عبد الناصر ، واقتحام البيت واغتياله ، وليحدث بعدها ما يحدث !.

وعدلت فرنسا عن خطتها يومها لان الخطة تسربت ، بل ونشرت فى بعض الصحف الفرنسية ذاتها !.

ونحن الآن فى مثل هذا الوضع تماما ، مع اختلاف فى التفاصيل

فرنسا الآن ، بعد أن خيبت مصر آمالها ، عادت الى حيث كانت بعد خيبتها الاولى فى أعقاب العدوان !.

بعد خيبة سنة ١٩٥٦ ، لم يعد باقيا أمامها غير الاغتيال .

وبعد خيبة سنة ١٩٦١ ، لم يعد باقيا ـ أيضا ـ غير الاغتيال !.

***

وفى باريس وفى جنيف طوال الايام الاخيرة كان هناك نشاط فرنسى سرى لا حد له ، واعدد بعض ما تلقيت من أوجه هذا النشاط لكى تبين حدوده ومقاصده .

١ ـ ان المخابرات الفرنسية ، لم تكتف بما رصدته من أموال للعمل فى مصر ، بل راحت تجمع الاموال ممن يهمهم أن تنجح خطتها فى مصر .

المصالح البلجيكية المرورة مما لقيته من الجمهورية العربية المتحدة فى الكونجو ... دفعت !

بعض البنوك الفرنسية ، وخصوصا تلك التى تسيطر عليها العناصر اليهودية كبنك روتشيلد ... دفعت !.

٢ ـ بعد اتصالات فى جنيف ، طار الى بيروت ، والى دمشق والى عمان ، عدد من العرب المتعاونين مع فرنسا ، والذين باعوا أنفسهم لها ، يستطلعون الجو ، ويبحثون الاحتمالات !.

٣ ـ وصل الامر فى باريس ، الى حد أنه وضعت قائمة محددة ، بأسماء بعض الذين يجب الخلاص منهم فى مصر ، باغتيالهم ، وكل الذى

تشترطه فرنسا هو أن يتم الاغتيال بايد عربية ، وقد سمعت فرنسا ـ بعد اتصالاتها فى جنيف وبيروت ودمشق وعمان ـ من يقول لها : ان ذلك يمكن تدبيره !.

ولكن ذلك ليس كل دور بريطانيا وفرنسا

بريطانيا من وراء براقع النفاق تستطيع أن تشترك فى الحرب النفسية ، عن طريق الصحف والاذاعات ضد مصر

وتستطيع اذا مكنتها الظروف أن تباشر أى ضغط اقتصادى خفى

وتستطيع ـ أولا وأخيرا ـ أن تدفع رجالها فى الشرق الاوسط ، أمثال رجلها فى الكونجو ، مويس تشومبى ، وان تختفى وراءهم كما حاولت الاختفاء وراءه .

لكنها هنا ، لن تنجح بأكثر مما نجحت هناك !

واذا كان ممثلو الامم المتحدة ذاتها ، كشفوا حقيقة بريطانيا من وراء تشومبى ، فان أى طفل عربى قادر على أن يكشف حقيقة بريطانيا من وراء طفلها الملك اللاعب فى عمان بعيدان الكبريت يوشك أن يحرق بها نفسه !.

وكذلك فرنسا من غير براقع تستطيع ـ مع نشاطها السرى ـ ان تشترك فى الحرب النفسية عن طريق الصحف والاذاعات ضد مصر ، وتستطيع كذلك لو جاءتها فرصة ، ان تضغط اقتصاديا ومن غير خفاء !.

***

ثانيا : دور الدول الشرقية ـ غير العربية ـ من أعضاء الحلف المركزى

تركيا ، وايران كلاهما ، لا يريد فى الشرق الاوسط قوة عربية مؤثرة .

تركيا ، بالغرور التقليدى ، تعتقد أن الوحدة العربية اذا تحققت سوف تجعلها دولة صغيرة فى الشرق الاوسط ، بينما هى الآن فى ظنها ، أو فى وهمها دولته الكبرى !.

وايران ، حكايتها طويلة ، وبعيدة فى التاريخ العربى على مدى قرون سوالف ماضية !.

ولقد حاولت تركيا طويلا أن تجذب مصر اليها لتشترك معها فى حلف بغداد

وكانت لعدنان مندريس ـ يرحمه الله ـ تجربة مشهورة مع جمال عبد الناصر ، فقد بعث اليه سنة ١٩٥٤ يقترح عليه فكرة حلف دفاعى فى الشرق الاوسط

ولما رد عليه جمال عبد الناصر بانه لا يقبل حلفا عسكريا فى الشرق الاوسط غير ميثاق الضمان الجماعى العربى ، بعث مندريس رسولا الى القاهرة يقول :

« أن مصر ليست عربية ، بقدر ما ان تركيا ليست عربية .

أن العرب خانوا تركيا ، وطعنوها فى ظهرها ... وكذلك سيفعلون بمصر

ومهما يكن من امر فانى أريد عقد اجتماع بيننا للحديث فى مستقبل الشرق الاوسط .

نحن نرحب بك ضيفا فى أنقرة اذا احببت .

وأنا على استعداد للقدوم الى القاهرة اذا لم تسمح لكم الظروف بالقدوم الى انقرة

واذا كنتم لا تريدون القدوم الى انقرة ، ولا تريدون استقبالى فى القاهرة فانى أقترح اجتماعا فى بلد قريب منكم يسهل عليكم المجىء اليه .. اقترح ــ فى هذه الحالة ــ أن يتم اجتماعنا فى ليبيا ، ولقد قمنا بجس نبض الحكومة الليبية فى هذا الصدد فرحبت بأن يتم اجتماعنا على أرضها » .

وقال جمال عبد الناصر لرسول عدنان مندريس :

ــ انني أرحب بالاجتماع به فى أى مكان ، لكنى أريده أن يعرف منذ البداية أن فكرة عقد حلف عسكرى مع اطراف غير عربية ، ليست موجودة على الاطلاق فى برنامجى ، وليست موضع بحث فى سياستنا »

ولم تبق للاجتماع المقترح فائدة أو جدوى .

وكان حلف بغداد بغير مصر
وبمصر سقط حلف بغداد

ثم قامت ثورة العراق سنة ١٩٥٨ فعاقبت المسئولين عنه بحياتهم وأولهم نورى السعيد .

ثم قام انقلاب جمال جورسيل فى تركيا وتدلى عدنان مندريس من حبل مشنقة !.

لكن تركيا لم تتغير ، أو بمعنى أصح ، ان حكام تركيا بعد الانقلاب ، لا يختلفون كثيراً عن حكامها قبل الانقلاب

ومن هنا لم تتغير تركيا

***

وايران موقفها مثل موقف تركيا فيما يتعلق بحلف بغداد

لكن الثورة التى قضت على نورى السعيد فى بغداد ، والانقـــلاب الذى قضى على عدنان مندريس فى أنقرة ، لم يقعا بعد فى طهران .

لقد كادت النهاية بالنسبة للشاه ان تجىء ، لكن المخـــــــابرات الامريكية استطاعت أن ترتب انقلاب الجنرال زاهدى ضــد حــكومة الدكتـــــــور مصــــدق

وبعد أن كان الشاه ، قد وصل بطائرته الهاربة الى روما

عاد الشاه مرة أخرى الى طهران

ومضى بينابيع الدم الحار يحاول أن يغسل عرش الطاووس فى قصر «جولستان» من السوس الذى يأكل قوائمه .

وشىء ما فى جمال عبد الناصر يذكر الشــاه بمصدق لو أن ثورته انتصرت

وشىء ما فى جمال عبد الناصر يذكر الجماهير الايرانية بثورتها التى سحقتها المخابرات الامريكية

وشىء ما فى الغليان الثورى العارم فى الشرق الاوسط ، يجعل الشاه يعيش فى ضباب من القلق .

ولكن ما الذى يستطيعه جمال جورسيل ، ومحمد رضا بهلوى فى العمليات الجديدة فى الشرق الاوسط ؟.

والرد ، ليس عندهما الا نفس الدور الذى كانت حكومة كل منهمـــا تقوم به على أيام حلف بغداد

● الاشتراك فى الحرب النفسية

● ارسال السلاح والمتســـــللين

● التدخل عسكريا اذا أمكن ضد أى ثورة وطنية بالقرب منها .

● الدخول فى تعاون كامل مع الدول العربية المحــكومة بمصــالح معادية لحركة التحرر السياسى والاقتصادى

● الاتصال ــ بغير تحرج ــ مع اسرائيل .

وفى الحوادث الاخيرة نماذج كثيرة لكل بند من هذه البنود لنشاط تركيا وايران

● اذاعة ايران مثلا ما زالت تذيع خرافات لمراسلها فى دمشــــــق وبين هذه الخرافات ان القــوات المصرية فى ســــوريا قتلت ثمــانين ألفا من ضباط الجيش السورى وجنــوده ودفنتهم فى مقبرة واحدة ذهب اليها المراسل ــ على حد قول الاذاعة ــ ووصــــفها وصـــــف شـــــاهد عيـــان !.

● وتركيا كانت على اتصال بمركز المؤامرة على سوريا ، ويوم الانفصال ، ادخلت سلاحا ، ويوم الانفصال حركت أسطولها ليكون على استعداد اذا ما وصلت قوات عربية الى اللاذقية القريبة من شواطئها.

● وتركيا صديقة لاسرائيل ، وبن جوريون الذى مر بطهران منذ اسبوعين توقف فى مطار شمران ، وركب سيارة الى بيت رئيس وزرائها « أمينى » واجتمع طويلا به ، ومعهما الجنرال بختيار ، حاكم ايران العسكرى ، ورجل الشاه القوى فيها ، ورجل أمريكا أيضا .

● والعلاقات بين طهران وانقرة ، علاقات ود وصفاء ، مع ما تبقى من العروش العربية المتهاوية تحت مطارق التاريخ .

ثم أضيف الى موقف تركيا وايران سببا رئيسيا

كلاهما ــ بعد أن باع نفسه للغرب ــ يريد المنطقة العربية ــ بدورها ــ تحت نفوذ الغرب ، لان المنطقة العربية هى العمق الطبيعى وراءهما ، وهى منطقة الدفاع الحيوى عن أراضيهما اذا تعرضت اراضيهما يوما لهجوم !.

***

ثالثا ــ دور الدول العربية ، صاحبة الارتباطات مع الغرب

خصوصا تلك التى تحكمها مصالح معادية لحركة التحرر السياسي والاجتماعى

ومن العجيب أن هناك تشابها واضحا فى دور صاحب الجلالة السعودية ، ودور بريطانيا

كلاهما الآن يريد أن يعمل من وراء برقع

لان كلاهما لم ينس حتى الآن تجربته الماضية القاسية التى احترقت فيها بالجمر أصابعه !

بريطانيا لم تنس تجربتها سنة ١٩٥٦ بعد فشل العدوان

وصاحب الجلالة السعودية لم ينس تجربته سنة ١٩٥٨ بعد انكشاف محاولته لرشوة عبد الحميد السراج .

بريطانيا تحاول أن تخفى وجهها .

وصاحب الجلالة السعودية يسحب طرف عقاله على وجهه ليفعل نفس الشىء .

بريطانيا تحرك تشومبى وتتظاهر بمناصرة مبادىء الامم المتحدة ، وقرارات مجلس الامن .

وصاحب الجلالة السعودية يدفع الذهب ، ثم ينهمك بعده فى عد حبات سبحته خشوعا لله وتبتلا !.

وكذلك من العجيب أن الشبه يتضح أيضا فى دور صاحب الجلالة الاردنية ودور فرنسا !.

كلاهما بلا برقع .

كلاهمالم يعد عنده ما يفقده

كلاهما يريد أن يحطم بسرعة ما تستطيع أصابعه أن تصل اليه ... قبل أن تتغير الظروف ، وقبل أن تفلت الفرصة السانحة المواتية .

***

وعلينا هنا ، أن نكون على استعداد لمواجهة هذا كله ..
وحدنا .. وحدنا ! .

قلتها فيما سبق .. وأقولها اليوم أيضا .

وأضيف اليها :

ـ لقد حاربنا كل معاركنا المنتصرة وحدنا .

كذلك كنا سنة ١٩٥٦ .

أقول كنا ـ وأنا أعنى كل جماهير الشعوب فى الامة العربية ـ أما الذين تتضارب مصالحهم مع حركة التحرر السياسى والاجتماعى ، فعمرهم ما كانوا معنا .

بعضهم كان معنا ، بالكلام وحده ، سنة ١٩٥٦

ولكن الكلام كان له مدى نعرفه ، ويعرفه العدو الذى كنا نتصدى لقتاله أيضا .

ومن هنا كان الاعتماد عليه ارتكانا على هواء .

بل لعل موقفنا الان ـ وحدنا

ـ خير مما كان سنة ١٩٥٦ .

كان كلام الذين تظاهروا بتأييدنا يومها ، يخدع بعضا منا ، ولكنه لا يخدع أعداءنا .

أما الآن فان انكشاف الحقيقة بلا براقع لا يدع مجالا بيننا لخديعة .

اننا وحدنا !

وأكثر ما يقوينا هو ادراكنـا بأننا وحدنا .

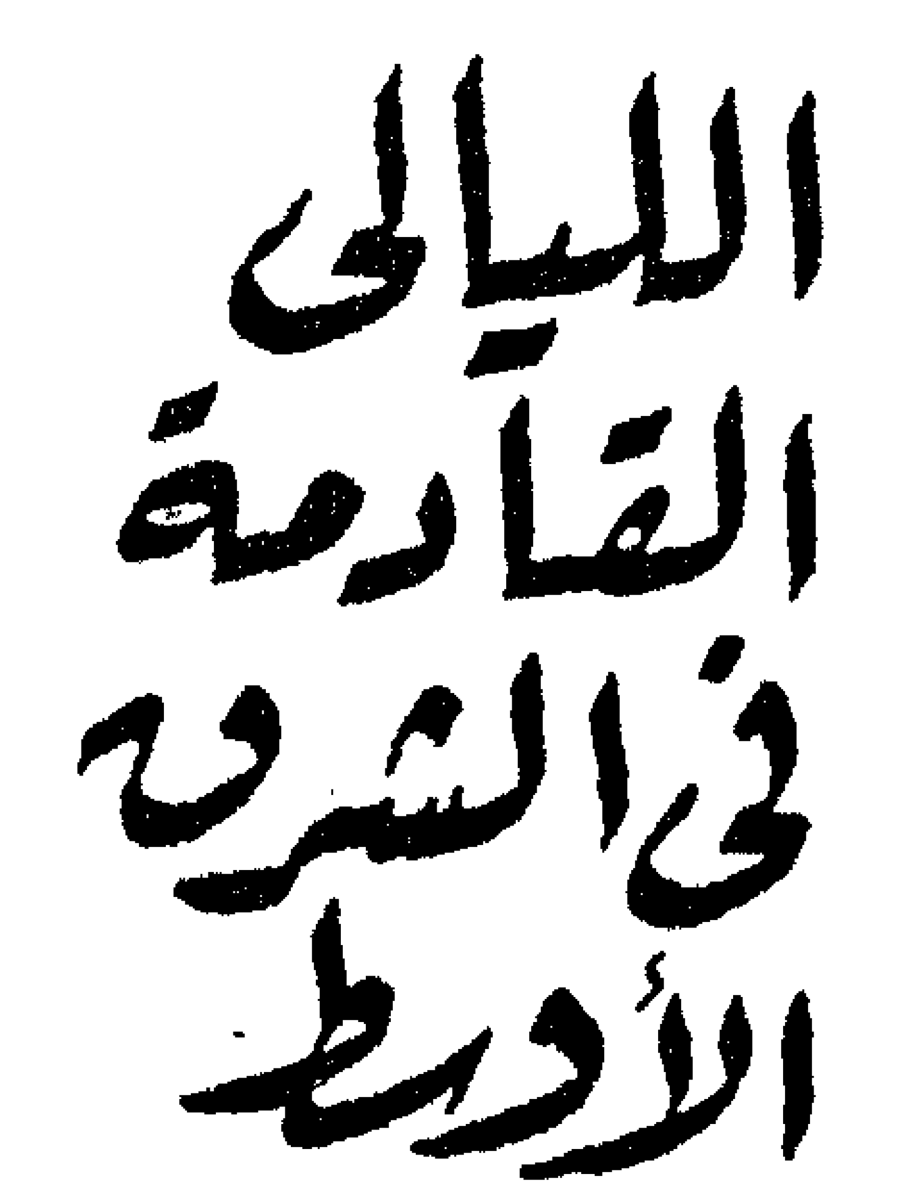
وحدنا فى مواجهة الهجوم القادم ...

هجوم مؤامرات القتل ، والذهب ، والتسلل ، والكذب ؛

هجوم المبرقعين يخفون ملامحهم الحقيقية .

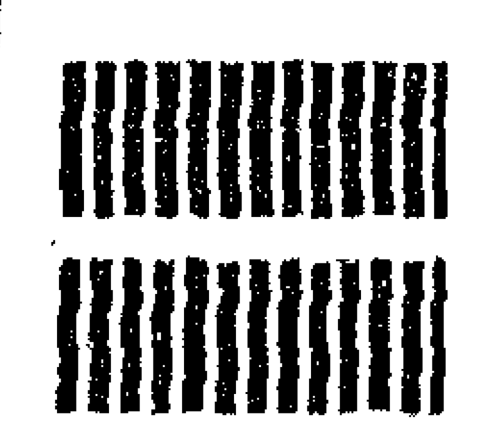
وهجوم الذين خلعوا البراقع واقبلوا بلا حياء ... ولا شرف .





على ضوء حوادث الليلة الاخيرة من العام الذى مضى فى بيروت من هم الذين حاولوا الانقلاب فى لبنان.. وما هدفهم ؟

فؤاد شهاب



سوف تثبت الايام والتطورات ان محاولة الانقلاب ، التى بدات فى لبنان عند منتصف ليلة الاحد ٣٠ ديسمبر ١٩٦١ ، وانتهت بالفشل هى حدث كبير وخطير ، فى سياق الحوادث المتوالية والمحتملة فى الشرق الاوسط اليوم .

وليس يقلل من ضخامة ما حدث وخطورته أنه لم يعش غير يوم واحد ، أو انه فشل فيما قصد اليه ، أو انه وقع فى لبنان .

انما أكبر شيء فيما حدث .. هو دلالته ..

وأخطر ما فيه ، هو ما كشف عنه خارج حدود لبنان ذاته ، فان الطلقات النارية التى ومضت فى بيروت ليلة اليوم الاخير من سنة ١٩٦١ كانت كمثل شعاع لمع من فنار دوار ، وسحب فى دورانه بقعا من الضوء كشفت ولو للحظات خاطفة عما يجرى فى الظلام والغموض على امتداد المنطقة المحيطة به .

واذا كانت الحوادث قد عادت ـ ولو فى الظاهر ـ الى طبيعتها فى لبنان ، فان دلالتها ما زالت معنا .

واذا كان اطلاق النار قد توقف ، وتوقف شعاع الفنار الدوار ، فان الرؤية التى تكشفت تحت بقع الضوء المتحركة قد اظهرت الكثير مما كان الظلام يخفيه ، ومما كان الغموض يستره ويداريه .

وهكذا فان ما حدث فى الليلة الاخيرة من سنة ١٩٦١ فى بيروت سوف تكون له آثاره البعيدة على ما سوف يحدث فى الليالى القادمة من سنة ١٩٦٢ ، فى المنطقة العربية كلها .

ونحاول الآن متابعة بقع الضوء الخاطفة ، كما بدت أمام أنظارنا المبهورة تلك الليلة .. حتى نكون على استعداد لبقية الليالى .

***

١ ــ من الذى قام ، أو حاول القيام ، بالانقلاب فى لبنان ؟

والرد :

ــ ان أحدا لا يجادل الآن فى أن الحزب القومى السورى هو الذى قام به ، ضباطه فى الجيش اللبنانى هم الذين تحركوا بمصفحاتهم من صور زحفا على بيروت على طول سبعين كيلو مترا ، ثم جماعاته المسلحة من المدنيين هم الذين اعتقلوا فى العاصمة اللبنانية نفسها ، وقبل أن تصل اليها المصفحات ، معظم قادة الجيش فى بيوتهم ، وهم الذين احتلوا وزارة البرق والبريد وهاجموا وزارة الدفاع .

والحزب القومى السورى هو أداة من أدوات الاستعمار البريطانى فى الشرق الاوسط ، وكان هذا الحزب ، والاسرة الهاشمية فى بغداد ــ سابقا ــ وعمان بعدها ، هما دعامتا الارتكاز فى تجربة حلف بغداد الشهير .

وكان هذا الحزب أيضا ، هو وسيلة العمل الاولى لحساب حلف بغداد ضد الحكم الوطنى فى سوريا قبل الوحدة ، فى سنة ١٩٥٧ .

ومع أن هذه الحقيقة أصبحت من البدهيات المعروفة فى الشرق العربى ، بحيث لم تعد تحتاج الى دليل ، الا أننى هنا ــ تدعيما لسياق الحديث كله وربطا لوقائعه ــ أضيف الدليل من الوثائق السرية لحلف بغداد .

ومعى هذه اللحظة تقرير على ورق السفارة العراقية فى بيروت ، موجه الى مديرية الاستخبارات العسكرية فى بغداد ، تاريخه ١٨ مايو ١٩٥٧ ، بخط يد العقيد صالح مهدى السامرائى الملحق العسكرى العراقى فى بيروت وقتها ــ وهو يكشف أسلوب الحزب القومى السورى كما يكشف ارتباطاته ــ ونص هذا التقرير كما يلى بالحرف الواحد :

السفارة العراقية

بيروت

١٩٥٧/٥/١٨

١١ ــ ٣

مديرية الاستخبارات العسكرية

الموضوع : موقف الحزب القومى

١ ــ اجتمعت بعد عودتى من بغداد بالاستاذ أسعد الاشقر رئيس الحزب بتاريخ ١٩٥٧/٣/٢١ وعالجنا الامور التالية :

أ ــ ما ينبغى للحزب أن يعمله خــلال ازمة دمشق ، بأن يكون مستعدا للقيام بحركة عند أول اشارة ، وفى اول فرصة تسنح ، وذلك على ضوء التعليمات التى زودتمونى بها .

ب ــ دفعت له مبلغ ١١٢٢٠٠ ليرة من أصل ٢٠٠٠٠٠ وذلك من مخصصاته لشهر شباط .

ج ــ طلبت منه اعداد التخمينات المطلوبة لخطة طويلة الامد لمدة سنة وذلك اذا تقرر تسريح الحشود والابقاء على النخبة الممتازة منهم فقط .

د ــ مراقبة لتطورات الموقف بدمشق عن كثب والاتصال بى يوميا للمذاكرة .

هـ ــ عدم اطلاع أحد من الحزب على وجودى فى بيروت وعــدم اتصال أحد منهم بى والاكتفاء على اتصالنا ببعضنا فقط .

٢ ــ اتصل بى فى اليوم الثانى ١٩٥٧/٣/٢٢ وأعلمنى أن ممثل الرصافة ــ الاسم الرمزى للسفارة الامريكية ــ اتصل بهم وكان مستاء من الحالة بدمشق لعدم تنفيذ التنقــلات ، وأن ثقتهم بالمقدم أمين النفورى بدأت تتزعزع حيث لم يقفوا على اتجاهه الصحيح .

٣ ــ اتصــل بى فى يوم ١٩٥٧/٣/٢٤ واعلمنى أن ممثــل الرصافة لا زال ممتعضا من الحالة بدمشق وهو يفتش عن الحلول ، وهنا عاتبه لابقائهم الحزب بعيدا مهملا فى مثل هذه الظروف التى كان من الممكن استغلالها استغلالا كليا ، كما عاتبه لعدم دفع مخصصــات الحشود منذ شهرين . فسأله الرصافى .. ألم يتصل بكم العراق ، أو يدفع لكم شيئا ؟ وكم دفع ؟ ــ فأجاب الاستاذ أسد بالنفى وكان القصد من ذلك اقناعه بأن العراق لم يبد أى نشاط خلال هذه الفترة كمــا أعلمه بأنهم فقدوا الاتصال مع العراق منذ شهر تقريبا لسفر العقيــد صالح الى بغداد ــ والغرض من ذلك لئلا يتوهم ممثل الرصافة بأن العراق انفرد واتصل بالحزب « وهذا ما كنا قد اتفقنا عليه » .

٤ ــ الحشــود .

أ ــ بقى لدى الحزب اليوم «بعد التسريحات الجزئية» العــدد التــالى :

٥٨٣ تحت السلاح فى المخيمات

٥٦ فى بيروت كذوريات .

١٠٠ فى سوريا ولبنان جاهزون

ب ـ فى حالة القرار على التسريح اتفقنا على ابقاء ١٠٠ فدائى فقط يختارون من النخبة الممتازة ، ومخيم واحد ليقوم بتدريب الاشخاص الذين سيدعون بواجبات متعاقبة كل منها ٥٠٠ لمدة ١٥ يوما لفرض تجديد تدريبهم وبصورة مستمرة وعلى هذا الاساس تكون التخمينات الشهرية المقبلة كما يلى :

اولا ـ النفقات الشهرية لـ ١٠٠ شخص ٢٥٠ ليرة لكل منهم .

أى ٢٥٠٠٠ ليرة لبنانية

ثانيا ـ نفقات عوائد المحكومين ١٥٠ عائلة لكل منها ٢٠٠ ليرة

أى ٣٠٠٠٠ ليرة لبنانية

ثالثا ـ نفقات المخيم الدائم للتدريب ٥٠٠ بمعدل ٥٠ ليرة .

أى ٢٥٠٠٠ ليرة لبنانية

رابعا ـ نفقات تسيير اعمال الحزب .

أى ٢٠٠٠٠ ليرة لبنانية

خامسا ـ نفقات مكتب الصحافة اللبنانية وشبكة استقاء المعلومات

أى ٢٠٠٠٠ ليرة لبنانية

سادسا ـ نفقات عائلة المرشد والعلويين والدروز .

أى ٣٠٠٠٠ ليرة لبنانية

المجموع ١٥٠,٠٠٠ ليرة لبنانية

سابعا ـ يضاف اليها نفقات الضباط الاحرار ـ «حركة بهذا الاسم كانت تعمل لحساب العراق وقتها برئاسة الضابط السورى محمد معروف» حيث لديهم حاليا ١٤٨ شخصا تحت التدريب سيسرحون معهم تبقى منهم ٣٠ فقط ويكفى لهؤلاء شهريا ١٠,٠٠٠ فيكون المجموع الكلى لشهر هو ١٦٠٠٠٠ ليرة .

ج ـ فى حالة القرار على تسريحهم يرجى اخذ النقاط التالية بنظر الاعتبار

أولا ـ منحهم مخصصاتهم كاملة لشهر مارث وما تبقى لهم من شهر شباط مع العلم بأن ما عندى الآن يكفى لتسديد حصتنا نحن فلا

احتاج لمبلغ اضافى اذا دفع الرصفى حصته لشهرى شباط ومارث ودفع الكرخى ـ ممثل السفارة البريطانية ـ حصته لشهر مارث .

ثانيا ـ كيفية معالجة مخازن المهمات فى لبنان وسوريا تحوطا لما قد ينجم من ملابسات فى المستقبل .

ثالثا : كيفية تنسيق التعاون المستمر بين الحزب والضباط الاحرار وبيت المرشد والدروز ـ ذلك التعاون الذى لا يمكن أن يتم الا عن طريقنا .

يرجى التفضل بالاطلاع وانباؤنا ما تنسبونه .

امضاء
صالح مهدى السامرائى
الملحق العسكرى

***

انتهت الوثيقة .

وما أظن أنه قد بقى بعدها مجال لشك أو تردد .

انها وثيقة قاطعة ترسم صورة كاملة لنشاط الحزب الارهابى ، ولمصادر تمويله ، ولحجم هذا التمويل الذى يصل شهريا الى ما قيمته خمسة وثلاثين الفا من الجنيهات .

واذن :

فان الحزب القومى السورى الذى قام بمحاولة الانقلاب هذا الاسبوع فى لبنان هوأداة من أدوات حلف بغداد ، اداة من أدوات الانجليز أولا ـ كما تنطق بذلك هذه الوثيقة التى عثر عليها فى خزانة مكتب نورى السعيد ـ ثم هو ثانيا ـ بمال حلف بغداد يعمل وفى تنفيذ خطط هذا الحلف نشاطه كله .

***

٢ ـ لماذا تجرى محاولة الانقلاب الآن فى لبنان ؟

والرد :

ان لبنان فى حد ذاته لا يمكن أن يكون هدفا لانقلاب .

لبنان بلد صغير ، ليست فى قلبه ثروة ، وليست له قيمة استراتيجية الا أن يكون رأس جسر على حافة المنطقة .

ثم أن لبنان نفسه ليس قوة فى الصراع المخيف فى الشرق العربى الآن ، وانما لبنان أقرب الى أن يكون ميدانا لهذا الصراع ، ونقطة مواجهة بين المشتركين فيه ! .

واذن فالذى يريد السيطرة الكاملة على لبنان اليوم لا يستهدف الجبل ، وانما يستهدف ما وراء الجبل ! .

يريد رأس الجسر فى الجبل ليواصل الزحف بعدها .

يريد الجبل معبرا وممرا ومهبطا الى السهول والصحارى الممتدة عند قدميه ! .

هذه قيمة لبنان .

ومنها يصبح واضحا أن محاولة الانقلاب فى لبنان انما هى جـزء من خطة أوسع من حدود لبنان .

نحن على هذا الاساس أمام خطة استعمارية . وهدف هذه الخطة أكبر وأخطر من لبنان .

***

٣ ــ أليس للطريقة التى جرت بها المحاولة فى لبنان ، وتوقيتها معنى خـــاص ؟

والرد :

لها من غير جدال ، فليس هناك شىء يجرى اعتباطا ، وليست الصدف البريئة هى التى تنظم الانقلابات المســلحة ، وتغرى بالعنف والارهاب والقتل ! ..

واذن ما هو معناها .. ما هو معنى الطريقــة ، وما هو معنى التوقيت ؟

الطريقة جريئة بالغة الجرأة لسببين :

أولهما ــ لحدوثها فى لبنان برغم الاوضاع الخاصة للبنان ودقـة الميزان فيه .

ثانيهما ــ للاندفاع المكشوف الذى اتسمت به العملية ، سواء فى تحريك قوات من الجيش ، أو فى إنزال جماعات من المسلحين المدنيين الى قلب بيروت قبل وصول المصفحات المتمردة اليها .

ولا بد لنا هنا أن نسأل أيضا :

ــ لماذا يدبر انقلاب بهذا الشكل الجرىء ضد حكومة لبنان ، مع أن حكومة لبنان تحاول التمسك بحيادها فى الصراع الدائر فى الشرق الاوسط ــ بل وتكاد تنحاز فيه أحيــانا تحت ضغط الغرب ايثــارا للسلامة ؟

والاجابة على هذا السؤال تجرنا الى معنى التوقيت فى محاولة الانقلاب فى لبنان ..

ذلك أنه لا يمكن أن يكون الاقدام على محاولة قلب حكومة ـ تحاول التمسك بصداقة الغرب تحت كل الظروف ـ الا دليلا على أن الذين يريدون الانقلاب يريدون المضى فى تنفيذ خطتهم بسرعة ، ولا يهمهم فى هذه السرعة أن يدوسوا من لا يعادونهم .. لكى يصلوا بأسرع ما يمكن بعدهم الى الذين يناصبونهم العداء .

والذين يتصورون أن العملية كلها كانت أشبه ما تكون بمقامرة يائسة ، انما يقعون أسرى لنواياهم الطيبة التى ينفردون بها وحدهم .

ذلك أن محاولة الانقلاب فى لبنان كادت أن تحقق كل خطتها كاملة .

● كان من خطتها أن تعتقل كل قادة الجيش اللبنانى . واعتقلتهم .

● وكان من خطتها أن تسيطر على وسائل المواصلات واستطاعت أن تقتحم مبنى وزارة البرق والبريد وأن تتحكم فيها لبضع ساعات .

● وكان من خطتها أن تحتل وزارة الدفاع ، وتمكنت بالفعل من الدخول ووصلت الى الطابق الاول ، ثم اشتبكت فى معركة بين الدور الاول والدور الثانى ، حتى تغير الموقف بوصول مصفحات الشرطة العسكرية الموالية للحكومة .

● وكان من خطتها أن تكون مستعدة فى باقى انحاء لبنان ، وكانت دورياتها المسلحة رابضة فى كثير من قرى الجبل .

كادت الخطة أن تتحقق ، لولا معجزة .

لولا معجزة المقاومة فى وزارة الدفاع ، ومعجزة وجود خط تليفونى نسى المتآمرون أن يقطعوه فتم الاتصال بواسطته مع الشرطة العسكرية .

وثمة من يقول اليوم ، أنه حتى لو كانت الخطة العسكرية نجحت فى السيطرة على قلب بيروت ، فلقد كان الفشل ينتظرها من موقف العناصر الوطنية فى الشعب اللبنانى ، ولقد كانت جموع من هذا الشعب تتجمع فعلا فى غرب بيروت عند ساعات الصباح الاولى من يوم الانقلاب .

والرد أن الخطة كانت مستعدة لمثل هذا الاحتمال ايضا ، وكان الاسطول البريطانى ، الذى بدأ قبلها بأيام وكأنه يتسكع فى البحر الابيض فى انتظار شىء غير معروف ـ على استعداد للتدخل فى أى ثانية ـ تحت ستار الحيلولة دون احتدام حرب أهلية فى لبنان ـ كما تدخل الاسطول الامريكى فى يوليو سنة ١٩٥٨ لنفس السبب ! .

ولقد كان من باب المعجزات ــ كما قلت ــ ان الخطة فشلت، وأن التدبير اختل ، وأن أمورا كثيرة ــ غير الخطة نفسها ــ تكشفت .

● تكشف أولا أن الذين قضوا السنين يتهمون الجمهورية العربية المتحدة بالتآمر ، هم المتآمرون الذين ضبطوا وأيديهم مخضبة بالدماء !.

● تكشف ثانيا أن الذين شنوا الحملات علينا بعد الحملات يقولون أننا لا نؤمن بالديمقراطية هم الذين لا سلاح لهم غير الارهاب .

● تكشف ثالثا أن الذين طالما حاولوا تأليب شعب لبنان علينا ، وتصويرنا أمامه بصورة من يضيق ذرعا بحياده ، هم الذين فقدوا صبرهم تجاه حياد لبنان واستقلاله .

ومع ذلك فماذا كان موقفهم بعد أن فشلت الخطة ، وظهر من أمرها كل خبيء ومستور ؟

حاولت لندن رأس المؤامرة أن تسدل على كل ما حدث فى لبنان ستارا من الصمت ، وكأن شيئا فى لبنان لم يحدث !

ومنذ أسابيع قبض فى القاهرة على بعض الافراد ، وإذا الخبر فى الصحف الاولى وفى صدر الاذاعات فى بريطانيا ، وكأن القيامة هنا قامت وكأن يوم الحشر قد جاء .

وفى هذا الاسبوع ... محاولة انقلاب مسلح فى لبنان ، وقتلى فى الشوارع ، ومعارك فى قرى الجبل .. واعتقالات وصل عددها حتى الآن الى أكثر من الفين .. ومع ذلك فجرائد بريطانيا لم يصل اليها الخبر الا بالكاد .. واذاعاتها تحاول تصوير الامر وكأنه مما يجرى فى لبنان كل يوم .. كل صباح !.

هذا موقف لندن رأس المؤامرة .

وذيلها ، ذيل المؤامرة وذيل بريطانيا فى عمان ، صاحب الجلالة زوج السيدة انطوانيت جاردنر ــ لم يستح أن يمسك التليفون من قصره ويطلب اللواء شهاب رئيس جمهورية لبنان يطمئن منه بنفسه على الاحوال ، بينما السفارة الاردنية فى بيروت كانت من قواعد المؤامرة فى لبنان ، وبينما بعض المتسللين الاردنيين قد قبض عليهم بالملابس الرسمية لميليشيا الحزب القومى السورى .

هى خطة بريطانية استعمارية .

وهى تمتد وراء حدود لبنان وان كانت خطوتها الاخيرة قد وقعت فى لبنان

وهى خطة جريئة لا يتردد القائمون بها أمام أى اعتبار .. خطة دموية تريد أن تصل الى أهدافها بغض النظر عن المظاهر ، وعن الاوضاع، وعن القيم والاخلاق .

كل ما تريده هو أن تحقق غرضها .. وبأسرع ما تقدر عليه .

***

٤ ــ ما هو مبرر العجلة الى هذا الحد ؟

والرد :

أنه من عجب أن الذين ضبطوا متلبسين فى بيروت بمحاولة الانقلاب الدموى ، هم نفس العناصر التى أشارت اليها أصابع الاتهام قبلهابشهور فى دمشق .

الحزب السورى القومى دوره فى سوريا معروف ، بل ان الوثيقة التى أوردتها فى مقدمة هذا الحديث كانت كلها منصبة على نشاط هذا الحزب فى سوريا ذاتها قبل غيرها من البلدان العربية .

وصاحب الجلالة زوج السيدة انطوانيت جاردنر دوره فى سوريا معروف لا يحتاج الى مزيد من كلام .

وكلاهما ، الحزب السورى القومى ، وصاحب الجلالة ، من أدوات حلف بغداد البريطانى .

واذن الفرسان الثلاثة فى محاولة بيروت ، كانوا هم نفس الفرسان الثلاثة فى محاولة دمشق قبلها ، ومعهم الرجعية .

ولو عدت لوثائق حلف بغداد السرية لوجدت الكثير مما يكشف دور هذه الاطراف معا فى التآمر على سوريا ، وربطها بعجلة حلف بغداد عن طريق اتحادها مع العراق تحت التاج الهاشمى فى ذلك الوقت .

ومع ذلك اكتفى بوثيقة واحدة ، هى خطاب كتبه الدكتور فاضل الجمالى صديق نورى السعيد ومعاونه .

ولقد كان هذا الخطاب فى مكتب نورى السعيد ، وان كان فاضل الجمالى قد كتبه لارشد العمرى الذى كان يومها رئيسا لوزراء العراق.

والخطاب الذى كتبه فاضل الجمالى من برمانا فى لبنان ، الى رئيس وزراء العراق ، يكشف الكثير مما أريد أن اقول . وفيما يلى نصه الحرفى :

أوتيل الجبل الاخضر
برمانا

في ١٩٥٤/٦/٩

فخامة الاخ الاعز أبا عصام :

أشواق واحترامات وبعد فقد اجتمع عنـــدي ليلة أمس الاثنين ١٩٥٤/٦/٨ السيد صبري العسلي رئيس وزراء سوريا ومعه السـيد ميخائيل اليان بحضور أحمد مختار باشا ودام الاجتماع الى الواحدة ليلا وها أنا الخص لفخامتكم الوضع على الوجه التالي :

١ ـ الجيش السوري هو مصدر عدم الاستقرار وضعف الحكومة ازاءه يجعله سيد الموقف .

٢ ـ الجيش السوري فيه عناصر تخشى الاتحـــاد وتفهم منه أن العراق سيجرد الضباط من سلطاتهم .

٣ ـ الوزارة السورية الحالية ضعيفة وغـــير متجانسة ويؤمل تقويتها قبل الانتخابات اذا لم يحدث ما لم يكن بالحسبان .

٤ ـ السعوديون يدبرون خطة لاحداث انقلاب والمجيء بشـــكري القوتلي الى سورية .

٥ ـ صبري العسلي ينتقد سياسة الحكومة العراقية في الماضي في اعتمادها على حزب الشعب ثم أنه انتقد اعتماد العراق على الشيـخ معروف الدواليبي وعلى غيره من الشخصيات ومن رايه ان العراق اذا كان جادا فيجب أن يعتمد هو ومعه ميخائيل اليان وأن في ايمـــانه بالاتحاد واخلاصه له خير ضمان ومع ذلك فهو لا يضمن النجاح فورا ولكنه سيكرس حياته وجهوده لتحقيق أهدافه القومية . وانه وان كانت العلاقات بينه وبين القوتلي طيبة الا أنه لا يتفق معه على السـيـاسة السعودية وموضوع الاتحاد . وسيبقى يناضل في سبيل الاتحاد .

معالجة الموقف

١ ـ استعرضنا امكان ارسال جيش عراقي فلم نجد امكانا لذلك فلا توجد اتفاقية بين سورية والعراق لمجيء الجيش العراقي لحفظ النظام الداخلي ولا توجد أكثرية وزارية تجرؤ على القيام بهذه الاتفاقية حتى ولو كانت سرية كما أن الاتاسي رئيس الجمهورية بدوره يتخـوف من توقيع طلب بذلك . ولا توجد امكانية في الوقت الحاضر لتبـــادل الجيشين العراقي والسوري لغرض التدريب والمناورات لان الجيش السوري لا يطمئن لذلك ولا يمكن استغلال العدوان الاسرائيلي عـــلى سورية لان ذلك قد يؤدي الى صراع دولي يكون الغلب فيه لاسرائيل ولذلك فارسال جيش عراقي لحماية سورية من اسرائيل يجب ان ينتظر

اعتداء اسرائيليا خطيرا . ومع كل هذا فالجماعة يتركون الامر لنا ان وجدنا طريقة لارسال الجيش فذلك أفضل الوسائط واسرعها لانجاز الاتحاد .

٢ ـ اذا لم يمكن ارسال جيش عراقي فيجب العمل على كسب الجيش السوري وتكتيله الى جانب الحكومة . وهنا يتوقع السيد صبري مساعدات مالية . ثم لا بد من القيام بحملة انتخابية اتحادية لكسب الموقف بالاصول البرلمانية .

٣ ـ يرى السيد صبري ضرورة الاعتماد عليه وحده وعدم القيام ببعثرة الدراهم والجهود هنا وهناك .. اننا نؤيد الاعتماد على صبري فى المستقبل وجعله مركز الثقل للحركة ولا يمنع هذا الاتصال بالآخرين على شرط أن يتم التناسق فى العمل ويطلع صبري على ما تقوم به من جهود.

٤ ـ قبل انهاء الجلسة قلت لصبري أريد ان يكون واضحا ماذا نقصد بالاتحاد فقال اتحادفي الشئون العسكرية والسياسية والاقتصادية قلت ولكن المهم لدينا رئاسة الاتحاد فنحن لا يسعنا دخول اتحاد ليس ملك العراق رئيسه واذ ذاك يصبح القلق الذى يساور سورية بسبب نظامها الجمهوري يؤثر على مصير العراق أيضا وفى هذا ضرر بليغ ما فوقه ضرر على المصلحة العربية فوافق على أن يكون ملك العراق رئيسا للاتحاد .

٥ ـ أنهى معالي السيد بابان الجلسة بقوله نحن يهمنا تقويةالحكومة القائمة فى سورية ودعم العسلي بكل طريقة ممكنة ولذلك فعلى العسلي أن يتقدم بطلباته واقتراحاته ونحن دوما مستعدون لانجاز ما نستطيع انجازه . انتهت الجلسة .

زارني قبل أمس الاول السيد عدنان الاتاسي وحذرني من اندفاعات حسني البرازي وتصرفاته وقدم الى مسودة مشروعين للاتحاد الواحدة على أساس الفدراسيون أى تكوين دولة اتحادية واحدة والثاني على أساس الكونفدراسيون أى اتحاد مع بقاء كيان الدولتين . المسودتان معي وهما لم يعرضا على أحد من رجال سورية بعد .

أرجو أن ترفعوا احترامي واجلالي لسيدي صاحب الجلالة الملك وسمو ولي العهد المعظمين وتطلعوهما على محتويات الكتاب . أشواقي لكم وللاخوان .

والى الملتقى .

***

ومن الغريب أن هذه الوثيقة تبدو وكأنها قد كتبت اليوم .

العوامل نفس العوامل ، والمال نفس السلاح ، والرجال نفس الرجال، وان اختلف الإطار العام قليلا ، واختلفت معه بعض التفاصيل .

والمهم هنا هو :

● ان الذين قاموا بمحاولة الانقلاب فى لبنان هذا الاسبوع

● هم نفس الذين حركوا الانقلاب فى دمشق منذ اسابيع

● وهم نفس الاعوان الذين يستعملهم الاستعمار ، ولم يعثر فى المنطقة على غيرهم رغم مضى السنين .

ولكن ما الذى يفسر هنا ما أشرت اليه فى السؤال الذى استطردت منه الى هذا كله ، وهو لماذا العجلة الى هذا الحد ؟ »

وخريطة الشرق الاوسط تكفينى عن الجواب .

● ان الذى تحرك فى لبنان يريد ان يثبت الاوضاع فى سوريا بتأمين المؤخرة الطبيعية لها عند الجبل ، ويريد أن يكون الجبل نقطة ارتكاز للانقضاض اذا دعا الامر .

● كذلك فان الذى تحرك فى لبنان ، يريد اذا ما استطاع تثبيت الاوضاع الجديدة فى سوريا ــ أن يواصل زحفه بعد سوريا آمنا الى خطواته المقبلة .

***

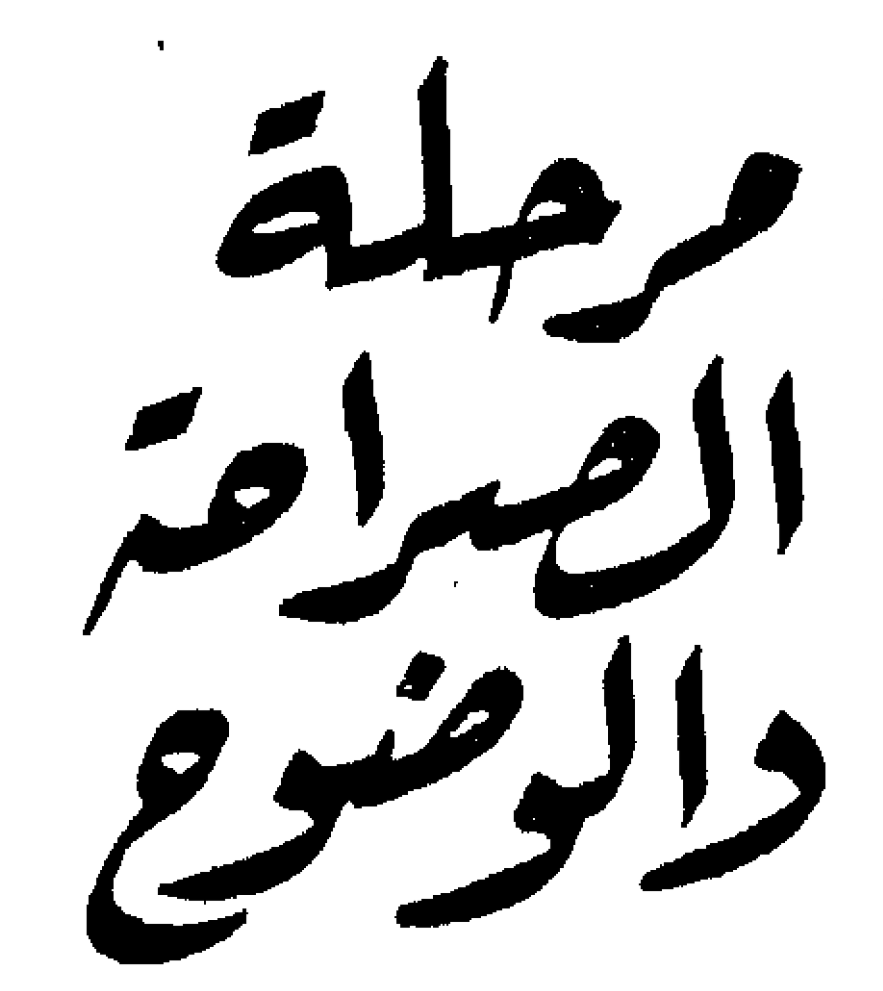
ولقد كنت أكتب السطور الاخيرة فى هذا الحديث عندما تلقيت رسالة من داخل الاردن تسللت الى عن طريق بيروت .

وفى الرسالة سطور تقول :

«جرت فى الاسبوع الاخير حركة حشد عسكرى واضحة عند محطة هـ ٤ ، وهى محطة أنابيب البترول الواقعة على حدود الاردن مع العراق ، والقوة الموجودة هناك الآن بينها مائة وثلاثون دبابة من طراز شيرمان حصل عليها الملك حسين أخيرا من بريطانيا » .

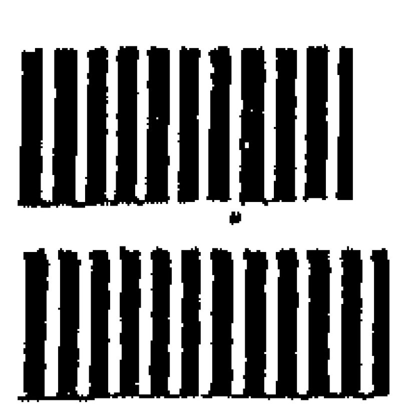
ونقلت الرسالة التى جاءتنى الى هذا الموضع من هذه السطور واعتبرت أننى وصلت الى نهاية هذا الحديث .





٥ نقط لابد لنا أن
نضعها على الحروف
التردد الآن هروب..
وليس هناك مجال
للهروب
القصة العجيبة من
أول عراف النجوم..
إلى قصائد الشعر

امام اليمن



ليس هناك شيء يحتاجه النضال العربى الان مثـــل الصـــراحـة والوضـــــوح ..

وليس هناك شيء تحتاجه الجمهورية العربية المتحدة ، قاعدة هذا النضال وقوته الدافعة ، مثل نفس الصراحة والوضوح .

فلقد وصل النضال العربى الان ، فى حركته الدائبة نحو الحـــرية والاشتراكية والوحدة ، الى مرحلة لايمكن مواجهتها بالاسلوب الديبلوماسى ولا يمكن تغطيـــة طبيعتها بالمداراة والســكوت وانتظار تطـــورات الاحـــداث ..

ان اللغة الديبلوماسية الان تمويع للمعركة .

والمداراة والسكوت معناهما ترك القضايا الاساسية فى نضالنا بـــين الغموض ووسط الضباب ..

والانتظار استسلام يضع زمام المبادرة فى يد غيرنا ، يعطيه قـــدرة الفعل بقدر ما يستطيع ، ولا يترك فى أيدينا غير رد الفعل وهو موقـــف سلبى مهما بلغت قدرتنا فيه واستطاعتنا .

وثمة حروف يجب أن نضع فوقها النقط على الفور ، وأن نضع تحتها الخطوط توكيدا لقيمتها ، وتعميقا لمعناها .

***

اولا ــ لابد لنا أن نفهم تماما ومن غير لبس أو شك ، أن عروبة مصر أزلية ، وأنها حقيقة تاريخ ، وحقيقة مصير ، ولسنا بذلك نتبرأ من مصر الفرعونية ، ولا كنا كمن ينكر مراحل النمو والتطور .

ليس هناك تعارض ولا تصادم ، بين مصر الفرعونية وبين مصر العربية وانما مصر العربية هى امتداد لمصر الفرعونية ، تماما كما أن أى رجـل منا الان ، هو امتداد طبيعى للطفل الذى كانه منـذ سنوات .

والذين يتصورون أن الفرعونية تهمة يرموننا بها اليوم ، يقعون فى خطأ فادح ، فليست الفرعونية تهمة ، وانما هى شرف ، ومصر الفرعونية هى صانعة الحضارة الانسانية الاولى ومنها انتقلت مشاعل النور الى أثينا والى روما .

وأنا أعلم انه بيننا هنا من تأخذهم العزة عندما يسمعون أن الفرعونية تهمة توجه الينا الان من بعض الذين لاتاريخ لهم منذ ان كانوا قرودا فى الماضى السحيق للجنس البشرى ، حتى اصبحوا فجأة فى عداد البشر

ـ ولو بحكم مجرد الانتماء للنوع ـ فى القرن العشرين ..

بيننا هنا من تأخذهم العزة فيقولون : ليكن نحن فراعنة ، وسنبقى فراعنة ، واذهبوا أنتم الى حيث تشاءون !.

وبيننا هنا من تأخذهم العزة فيقولون : ما الذى تساوونه بدوننا نحن هنا سبعة وعشرون مليونا ، ودولة قوية وشعب يتحرك ، لم تكونوا قبل حركته شيئا الا مجموعة قبائل يحكمها وكلاء المستعمر من امثال كوكس ولورانس وفيلبى وجلوب ، أو عملاء المستعمرين من امثال عبد الله ونورى السعيد وحسين بن طلال ! ..

وكلا النظرتين خطأ ..

وليس بغضبة الكبرياء تحدد الشعوب دورها فى صنع التاريخ .

ان عروبة مصر لاينبغى ان تكون موضع مناقشة ، ولا ينبغى أن تؤثر فى حقيقتها الازلية غضبات الكبرياء ، وليست عروبة مصر ملك القرود والوكلاء والعملاء يمنحونها لنا بارادتهم .. اذا كانت لهم ارادة ..

والانفعال العاطفى فى مواجهة مثل هذه الحملات علينا ، هو ضياع فى الوهم ، ونسيان للاصول وللجذور .

والاصول والجذور هى أن الشعوب العربية ، وشعب مصر بينها ، هى شعوب أمة واحدة .

تاريخها الواحد اعطاها وحدة الضمير .. .. وحدة القلب .

ولغتها الواحدة اعطتها وحدة الفكر .. وحدة العقل .

وامتدادها الجغرافى المتصل اعطاها وحدة المصير .. وحدة الامل .

ولا يملك احد أن يمزق لمصر قلبها وعقلها وأملها ، بل ولا تملك مصر ذاتها أن تفعل ذلك بنفسها .

ولقد يحاول الاستعمار .. وانه ليحاول الان فعلا ..

ولقد يجد الاستعمار من يخدمون مقاصده .. وانهم ليخدمونها الان فعلا ..

ولكن ذلك شيء يجب أن نتصدى له بوعى ، وأن نهزمه بتصميم

***

ثانيا ــ لابد لنا فى هذه المرحلة من نضالنا ــ مرحلة طلب العدل للانسان لعربى ــ مرحلة الاشتراكية ، ان نفرق بين شيئين :

مصر الدولة .

ومصر الثورة

مصر الدولة ، تتعامل مع جميع الحكومات العربية ، مهما كانت أشكالها وأوضاعها ، تجلس معها فى الجامعة العربية ، وفى الامم المتحدة، وتعقد معها تفاقيات الدفاع والتجارة والثقافة وغيرها من ألوان النشاط المختلفة ، بما فى ذلك تنسيق ما يمكن تنسيقه من القضايا ذات الاهمية المشتركة فى السياسة الدولية والعربية .

ولكن مصر الثورة لا يجب أن يكون تعاملها مع غير الشعوب .

وليس فى هذا تدخلا منا فى شئون غيرنا ، والا كنا بذلك ننقض الدعوى الاساسية فى نضالنا وهى أن الشعوب العربية هى شعوب أمة واحدة ..

واذا كانت مصر الدولة تعترف بالحدود فى تعاملها مع الحكومات

فان مصر الثورة لاينبغى لها ان تتردد امام الحدود أو تتوقف وانما عليها أن تحمل دعوتها عبر الحدود ، وان تباشر دفعها السلمى ــ الثورى فى نفس الوقت ــ من أجل تحريك المستقبل العربى الواحد .

واذا كنا نؤمن حقيقة بالوحدة ، واذا كنا نؤمن بوجود أمة عربية واحدة فليس من حقنا أن نعزل أنفسنا عن نضال غيرنا من أبناء أمتنا .

فى هذه الحالة ، لاتصبح مصر الثورة هى حكومة القاهرة ، وانما مصر الثورة تصبح بمثابة الحزب التقدمى ، داخل اطار الامة العربية ، وعليها أن تمد يدها الى جميع العناصر التقدمية فى الامة وأن تقف معها صراحة وان تساندها ، وان تساعدها .

ولقد يكون هناك من يسأل :

ــ ولكن هنا ، قد يقوم تعارض بين الدورين ، بين دور مصر الدولة ودور مصر الثورة ؟..

وأنا اقول وهذا رايي لا اعرف من يوافقني عليه ومن يختلف معي فيه ...

« أن الاولوية الآن يجب أن تكون لدور مصر الثورة

علينا أن نبذل كل جهدنا في التعاون مع الحكومات ، ولكننا لا نملك أن نمد هذا التعاون الى حد يؤثر على حركات الشعوب .. مهما كانت النتائج ومهما كانت الصعوبات .

وعلينا في هذا المدى أن نكون على أستعداد حتى لتجميد فعاليات جامعة الدول العربية .. اذا اريد أستخدامها كوسيلة لشل حركتنا ..

بل علينا في هذا المدى أن نكون على أستعداد حتى لاحتمال قطع العلاقات الرسمية بيننا وبين أى دولة عربيةتحكمها الرجعية .. اذا اردت هي ذلك او جعلته شرطا تضغط به علينا لكي نوقف دعوتنا المشروعة من أجل الحرية و لاشتراكية والوحدة لشعوب الامة العربية جميعها .

***

ثالثا ـ لابد لنا أن نحدد بصفاء ذهن لا تشوشه عصبية اللحظة . من هو العدو الذي نحاربه ؟.

واذا تصور أحد على سبيل المثال أن عدونا الذى نحاربه هو الملك حسين في الاردن ، فاني أعتبر أن مثل هذا التصور اهانة للنضال العربي لاتماثلها اهانة ..

واذا تصور أحد على سبيل المثال أن عدونا الذى نحاربه هو ضباط الانقلاب في سوريا ، فاني أعتبر هذا أستهتارا بقيمة العدو الذي نواجهه ـ لايعدله استهتار .. !

أن الملك حسين ليس عدوا لنا ، فجلالته بالعرش والتاج ليس الا موظفا بدرجة ملك في خدمة الاستعمار البريطاني بالذات . !

عرش جلالته ، من صنع بريطانيا ..

وكل قرش في يد جلالته ، من فضل بريطانيا .

وبالتالي فان جلالته في فكره وفي عمله ليس الا صدى لفكر السيد وانعكاسا لرغبته . !

هذه مسالة بديهية .

وبعدها لا يصبح الملك حسين في ذاته عدونا .

ان عدونا هو الصوت وليس عدونا هو الصـــدى ، وعدونا هو الاصابع التى تمسك الخيوط من وراء الستار فى لندن وليس عدونا هـــــو مسرح العرائس المنصوب فى عمـــان . !!

وكذلك ضـــباط الانقـــلاب الســــورى . .

ان بعضهم قبض المال ، وبعضهم قبض الضـــلال . .

ولكن القوة الحقيقية ، التى دفعت وراءهم – دفعت المال ودفعت الضلال – هى قوة الرجعيـــة .

وضباط الانقلاب السورى ، مهما بلغ من أمرهم ، هم ضـــــحايا للرجعية ، بالغواية أو بالغباء .

وليست الضحية عدوا لنا ، وانما الجانى الاصيل هو العدو !

من هنا ، فان معركتنا بوضوح تتحدد على أنها معركة ضـــد الاستعمار ، وضد الرجعية .

لا هى ضـــد الملك حســـين او عرشه وتاجه .

ولا هى ضـــد ضباط الانقـــلاب السورى أو النســـور والنجوم التى تلمع ســـخرية منهم على اكتافهم ! . .

***

رابعـــا – لابد لنـــا أن نتبين بوضوح ، أن قصـــور الرجعية الان هى ميدان المعركة ، ضد الاستعمار ، وضد الرجعيـــة .

تلك طبيعة هذه المرحلة من النضال العربى .

ان شـــعوبنا تحركت للثورة ضد الوجود الظاهر للاستعمار ، ونجحت فى هزيمته ، وكانت معركة السويس هى الضربة القاضية التى أرغمت الاستعمار على أن يتراجع وأن يتقهقر .

ولكن الرجعية ، احساسا منها ان الدور الاتى دورها ، فتحت لـــه قصورها لتحميه حتى يحميها ولتخفيه حتى يكون معها حين تدلهـــم الخطـــوب .

وعلينـــا ونحـــن نواجـــه الرجعيـــة ، والاستعمار القابع فى قصورها أن ندرك عن اقتناع اننا منحناها كل فرصة لكى تصلح نفسها فابت .

حاولت فى البداية ان توهن من عزمنا على مقاومة الاســـتعمار ، فاستجمعنا عزمنا وضربنا الاستعمار فى صميم مصالحه بتأميم قنـــاة الســـــويس .

حاولت بعد ذلك ان تجمدنا حين سايرت محاولات عزلنا الاولى أيام مشروع ايزنهاور وفى أعقاب حرب السويس . فلم نفعل الا أن خلصنا أيدينا من ضغطها وتحركنا .

حاولت بعد ذلك أن تتآمر علينا بالقتل ودفعت ملايين الجنيهات تحريضا عليه فلم نفعل الا ان كشفنا الإمرامام الشعوب ، ثم غفرنا محاولة القتل وتركناها بعيداً ومضينا ننسج خيوط الامل لنصنع منها حياتنا الجديدة . .

ثم تجاوزت الرجعية بعد ذلك فى محاولاتها ، من قتل الافراد الى قتل الشعوب ، فدفعت الملايين سرا فى سوريا ، وليس ما يجرى فى سوريا الان الا عملية « شروع فى قتل » . . شروع فى قتل جماهير الشعب السورى !.

بعد هذا كله ، لم تعد فى طاقتنا فرصة أخرى نمنحها للرجعية !.

لم يعد مفر الان من ضرب الرجعية وتحطيمها ، وتنظيف بقايا الجيوب الاستعمارية على أرضنا داخل قصورها !

لقد كنا فى وقت من الاوقات نعلل النفس فى أمر الرجعية ، بتركها للتطور ، وفاتنا أن ندرك أن الرجعية سوف تستميت الى اخر نفس فى صدرها لكى تقاوم التطور .

ولقد أثبتت الحوادث أن لا فائدة من محاولة تجنب الصدام الحتمى

واذا تصورت القوى التقدمية فى الامة العربية أنها تستطيع تفادى الصدام الحتمى مباشرة ، وحاولت أن تتركه خلفها وتمضى ، فان عليها أن تستعد لتتلقى فى ظهرها الطعنة التى حاولت بصدرها أن تحيد عنها ! . .

واذن فالتردد فى ملاقاة الصدام مواجهة . . عملية هرب .

ولقد فات الان اوان الهرب .

لم تعد المعركة تقبل الان غير المواجهة ، ولم تعد تتطلب نتيجة غير احراز النصر النهائى ، بتحطيم الرجعية والقضاء عليها وعلى الاستعمار داخل قصورها . !

ولا ينبغى فى هذا المجال أن يخدعنا شيء !.

لا يجب ـ مثلا ـ أن يخدعنا صمت القصور فى الرياض ، فليس صمت الرياض سماحة الكريم . . وانما صمت الرياض ذلة المتآمر الخائف

وبنفس المقدار لا يجب أن يخدعنا صخب القصور فى عمان ، فليس

المهم في صخب عمان هو صوت الاجراس التي تلعلع من رغدان وبسمان وانما اليد التي تحرك الاجراس في الخفاء هي الاهم !.

***

خامسا :- لابد لنا أن نحدد السلاح الذي نحارب به المعركة ، وان يكون تحديدنا له ظاهرا وحاسما .

لا يمكن ان تكون الرشوة هي سلاحنا في المعركة لاننا نحتاج الى كل قرش من مالنا لنصرفه على مصانعنا وعلى حقولنا .

ولا يمكن ان تكون الرصاصة او القنبلة هي سلاحنا في المعركة ، لان هدفنا فيها ليس سلبيا ، يسعى الى مجرد ازالة رواسب الماضي ، وانما هو يسعى اساسا الى اطلاق آمال المستقبل .

ولا يمكن أن تكون المؤامرات باى شكل من الاشكال ، هي سلاحنا في المعركة لان التآمر هو سبيل الذين يريدون وقف تقدم الزمن ، واما الذين يؤمنون بانهم يسيرون في صف واحد مع حتمية التاريخ فلابد ان يختلف اسلوبهم ..

كذلك ينبغي لنا أن ندرك باستقامة وشرف - أن وسائلنا الى غاياتنا الكبرى هي جزء من هذه الغايات لا ينفصل عنه أو يبتعد .

لايجب ان يكون شعارنا هو : أي وسيلة الى اشرف غاية .

وانما يجب أن يكون : أشرف وسيلة الى أشرف غاية .

أن « اخلاقية » النضال ، اساسية في نجاحه ، مهما بدا من اغراء وسائل الخفاء والظلام ، ومهما بدا من قدرتها على تحقيق نجاح سريع !..

واذن من هنا يتحدد سلاحنا في المعركة

الدعوة المستمرة من اجل كل ما نثور عليه ، وكل ما نثور طلبا له

التايبد الواضح لكل من يؤمن بمثل ما نؤمن به ويناضل وراء الحدود المصطنعة من اجل الحرية والاشتراكية والوحدة .

التطبيق الامين ، داخل حدود وطننا ، القاعدة ، لكل من ننادي به من المبادىء ، ليكون وطننا الصغير قطعة حية من احلام امتنا الكبيرة .

***

ولربما كان المغزى الوحيد لعملية انسحاب الجمهورية العربية المتحدة من اتحادها مع اليمن ، هو انه استجابة صريحة واضحة لهذا المنطق الذي اسطردت اليه .

ويخطىء من يتصور أن الانسحاب من الاتحاد مع اليمن ،هو رد فعل لقصيدة شعر نظمها الامام ضد الاشتراكية قال فيها :

هيا بنا لوحدة مبنية	على أصول بيننا مرضية
قانونها شريعة الاسلام	قدسية الاوصاف والاحكام
ليس بها شائبة من البدع	تجيز ما الاسلام عنه قد منع
من أخذ ما للناس من أموال	وما تكسبوا من الحلال
بحجة التأميم والمعادلة	بين ذوى المال ومن لا مال له
لان هذا ماله دليل	فى الدين أو تجيزه العقول
فأخذ مال الناس بالارغام	جريمة فى شرعة الاسلام
ولا يجوز أخذ مال الغير	الا بأن يرضى بدون ضير

يخطىء من يظن أن هذا هو السبب ، فلا يمكن أن تزيد هذه الابيات من الشعر الركيك لامام اليمن عن كونها نكتة ، تثير من الضحك أكثر ما تثير من الغضب !

لكن طبيعة ظروف النضال العربى ، والصراحة والوضوح ، اللذين تقتضيهما المرحلة ، هى التى حتمت وهى التى أملت القرار وختمته .

لقد تم الاتحاد مع اليمن فى ظروف مرحلة سابقة من النضال ، اقتضت ، أو تصورنا خطأ أنها اقتضت ، مداراة الرجعية والسكوت عنها ، حتى تنفسح فرصة لتدعيم تجربة الوحدة الاولى بين مصر وسوريا .

وليت ظروفا تسنح ، وتسمح لنا وسط زحام الحوادث أن تروى قصة الاتحاد مع اليمن ، كيف بدأت ، وكيف مضت .

لكن زحام الحوادث يسد الطريق ،كذلك فان الحوادث اليوم جادة ، ممعنة فى جدها ، بينما حكاية الوحدة مع اليمن أشبه ما تكون بفصل من مسرحية الريحانى المتعة ... حكم قراقوش !.

***

يكفى أن أروى ، كيف طلب أمير المؤمنين الامام أحمد حميد الدين ــ ! ــ فى شهر فبراير سنة ١٩٥٨ أن يدخل فىاتحاد معالجمهورية العربية المتحدة .. الوليدة يومها !.

كان السيد شكري القوتلي قد جاء الى القاهرة ليوقع مع الرئيس جمال عبد الناصر ميثاق الوحدة بين مصر وسوريا .

وفجأة ، بينما ميثاق الوحدة قد تم توقيعه ، وشكرى القوتلى

يتاهب لمغادرة القاهرة عائدا الى دمشق ، تلقى الرئيس جمال عبـــد الناصر برقية من تعز ، مقر الامام ، يقول فيها :

«من امير المؤمنين الناصر لدين الله الامام يحيى بن حميد الدين ملك المملكة المتوكلية اليمنية .

الى فخامة الاخ الرئيس جمال عبد الناصر .

بالله لا تنفضوا قبل أن تضمونا اليكم .

أحمـــــد »

وكان شكرى القوتلى جالسا بجوار الرئيس جمال عبد النـــاصر حين قدمت اليه رسالة الامام ، وقرا جمال عبد النـــاصر هـــذه الرسالة الغريبة ، ثم ناولها لشكرى القوتلى وهو فى دهشة من امرها .

وقال شكرى القوتلى بطريقته المشــهورة :

ـ خير ... خير ... نضمه الينا ! .

وقال جمال عبد الناصر ضاحكا :

ـ نضم امام اليمن ... الى الجمهورية العربية المتحدة ... هــل هـــذا معقـــول ؟!.

ثم استقر الراى على ارسال برقية الى الامام تستوضح مقصده .

ورد الامام على جمال عبد الناصر بما يلى :

« لقد استخرت النجوم ، وبعد الحساب الطويل ، تبين لنا ان نجمكم يكسف نجم الآخرين ويغطى عليه ، ولهذا نريد أن ننضم اليـــكم ، والولد البدر فى طريقه لعندكم لبحث الامور ونقل راينا » .

وتبين فعلا ان الامام أحمد ، قد كلف عراف القصر وحاســب النجوم فيه أن يستطلع له أمر المستقبل ، لكى يحدد موقفه فى الصراع العـــربى أيامها

فى ذلك الوقت كانت مصر وسوريا فى طريق

وكان العراق والاردن ـ تحت الاسرة الهاشمية ـ فى طريق آخر

وكانت مصر وسوريا على وشك اعلان قيام الجمهورية العربيـــة المتحـــدة .

وكان العراق والاردن على وشك اعلان قيام الاتحاد الهاشمى .

ويبدو أن امام اليمن اراد ان يعرف أى الكفتين ترجح وايهما تطير فى الهواء فلم يجد غير عراف القصر وحاسب النجوم .

وجاء العراف الى الملك يقول له :

« ان نجم جمال عبد الناصر يعلو ، وانه حين يقترب من نجوم الاخرين يزداد لمعانا بينما تصاب باقي النجوم بالكسوف » .

وقال الملك للعراف :

« احسب مرة أخرى » .

وكانت النتيجة هى نفس النتيجة ، وعلى أساسها أرسل الامام برقيته الاولى ، ثم الثانية ، ثم بعث بولى عهده ، أو « الولد » البدر على حد تعبيره الى القاهرة ودمشق ، يحمل بقية التفاصيل ، ويحمل تفويض الامام !

***

ولست أريد هنا أن أحمل السيد شكرى القوتلى مسئولية اتمام الاتحاد مع اليمن ولكنى لا اظن ان شكرى القوتلى سوف ينكر اليوم أن صوته كان الصوت المرجح لقبول فكرة الاتحاد مع اليمن .

وعلى أى حال فلقد كانت لشكرى القوتلى نفسه حجة مقنعة ، خصوصا فى ظروف الفوران العاطفى الذى أحاط بوحدة مصر وسوريا

قال شكرى القوتلى فى ذلك الوقت ، انه بصرف النظر عن مسائل النجوم وحسابها والعرافين ونبوءاتهم فانه يرى قبول عرض الامام للاسباب التالية :

أولا ـ انها خطوة وحدوية لا يجب التردد فيها .

ثانيا ـ انها قد تفتح طريقا للحضارة حتى تدخل اليمن .

ثالثا ـ أنها قد تخفف من الضغط على العناصر الوطنية فى اليمن .

رابعا ـ اذا لم نأخذه معنا ، فمعنى ذلك اننا نعطيه هدية لسعود الذى يتآمر على الجمهورية منذ يومها الاول .

وليس ذنب شكرى القوتلى بعد ذلك ، انها لم تكن خطوة وحدوية ، وانها لم تفتح طريقا ولو لشعاع ينفذ بالحضارة داخل اليمن ، ولا انها لم تخفف عن العناصر الوطنية شيئا من الرعب الذى يفرضه الامام !.

لقد كانت مهادنة الرجعية ذاتها هى الخطأ تلك الايام ، ولكن الفوران العاطفى غطى على الحقيقة ... حتى تولت التجربة ذاتها تمزيق الغطاء، واثبتت أن لا مهادنة مع الرجعية ... بصراحة ، ووضوح ... وبكل النقط على كل الحروف !.

هيئة قناة السويس

تعلن هيئة قناة السويس عن حاجتها الى موظفين حاصلين على بكالوريوس التجارة سنتى ١٩٥٩ و ١٩٦٠ ، ويشترط فيمن يتقدم لشغل هذه الوظيفة :

١ ـ ان يكون متمتعا بجنسية الجمهورية العربية المتحدة .

٢ ـ أن يكون حاصلا على بكالوريوس التجارة (شعبة المحاسبة) .

٣ ـ ان يكون التقدير العام الذى حصل عليه فى البكالوريوس بدرجة جيد على الاقل .

٤ ـ ألا يزيد سنه على ٢٨ سنة .

٥ ـ أن يكون حاصلا على احدى شهادات المعاملة المنصوص عليها فى المادة ٦٤ من القانون رقم ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥ طبقا لما تقضى به المادة ٥٨ من القانون ٥٠٥ لسنة ١٩٥٥ والقوانين المعدلة له .

ويجب أن تقدم الطلبات فى ميعاد لايتجاوز ٢٠ فبراير سنة ١٩٦٢ باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس بالاسماعيلية « قلم شئون الموظفين » على نموذج الهيئة الذى يمكن الحصول عليه من احد مكاتب قسم العلاقات العامة بالقاهرة والاسماعيلية وبور سعيد وبور توفيق على أن يلصق بالطلب طوابع دمغة قيمتها مائة مليم ويرفق به ٤ صور فوتوغرافية مقاس ٥ فى ٨ سم .

هذا ولن يلتفت الى الطلبات السابقة على هذا الاعلان أو التى تقدم الى الهيئة بعد الميعاد .

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد ـ روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ ـ ٤٥٤٠٥ ـ ٣١٦٢٥

فرع الصحافة
١١ شارع الصحافة ـ القاهرة
تليفون ٨١٣٠٣٤ ـ ٨١٣١١٩ ـ ٨١٣٢١٤



كتب قومية



الثمن ١٥

صدر يوم الخميس ٢٢ فبراير (شباط) ١٩٦٢

الدار القومية للطباعة والنشر
١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج
تليفون ٤٥٣٤٦ - ٤٥٤٠٥ - ٣١٦٢٥
فرع الصحافة
١١ شارع الصحافة - القاهرة
تليفون ٨١٣٠٣٤ - ٨١٣١١٩ - ٨١٣٢١٤